



This is a digital copy of a book that was preserved for generations on library shelves before it was carefully scanned by Google as part of a project to make the world's books discoverable online.

It has survived long enough for the copyright to expire and the book to enter the public domain. A public domain book is one that was never subject to copyright or whose legal copyright term has expired. Whether a book is in the public domain may vary country to country. Public domain books are our gateways to the past, representing a wealth of history, culture and knowledge that's often difficult to discover.

Marks, notations and other marginalia present in the original volume will appear in this file - a reminder of this book's long journey from the publisher to a library and finally to you.

Usage guidelines

Google is proud to partner with libraries to digitize public domain materials and make them widely accessible. Public domain books belong to the public and we are merely their custodians. Nevertheless, this work is expensive, so in order to keep providing this resource, we have taken steps to prevent abuse by commercial parties, including placing technical restrictions on automated querying.

We also ask that you:

- + *Make non-commercial use of the files* We designed Google Book Search for use by individuals, and we request that you use these files for personal, non-commercial purposes.
- + *Refrain from automated querying* Do not send automated queries of any sort to Google's system: If you are conducting research on machine translation, optical character recognition or other areas where access to a large amount of text is helpful, please contact us. We encourage the use of public domain materials for these purposes and may be able to help.
- + *Maintain attribution* The Google "watermark" you see on each file is essential for informing people about this project and helping them find additional materials through Google Book Search. Please do not remove it.
- + *Keep it legal* Whatever your use, remember that you are responsible for ensuring that what you are doing is legal. Do not assume that just because we believe a book is in the public domain for users in the United States, that the work is also in the public domain for users in other countries. Whether a book is still in copyright varies from country to country, and we can't offer guidance on whether any specific use of any specific book is allowed. Please do not assume that a book's appearance in Google Book Search means it can be used in any manner anywhere in the world. Copyright infringement liability can be quite severe.

About Google Book Search

Google's mission is to organize the world's information and to make it universally accessible and useful. Google Book Search helps readers discover the world's books while helping authors and publishers reach new audiences. You can search through the full text of this book on the web at <http://books.google.com/>



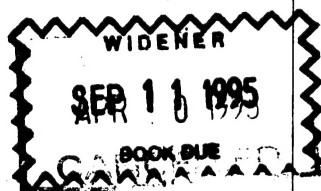
3 2044 024 307 308

This book should be returned to
the Library on or before the last date
stamped below.

A fine is incurred by retaining it
beyond the specified time.

Please return promptly.

1819485



لامر ما . وساراه مرة أخرى
ولكن هذا السر بقي في صدر ايليا ومات بئوته . لا سيما وان ابا استير الذي وقف عليه
ايضاً قد توفي بعد شهر من وفاة ابنته
وقد فاتنا ان نقول ان زوجته العجوز توفيت في ذات الاسبوع الذي توفيت فيه
استير من حزنها على ابنتها

وقد دفنوا ايليا بين قبر استير وقبر اسناذه الراهب ميخائيل . وكان يوم دفنه يوم عويل
وحزن عظيم عند اهل المزرعة كباراً وصغاراً حتى الاولاد
فيا ايها القبور الثلاثة التي تعانقت رفاتها في جوف الارض تعانق الاحباء وضممت
الحكمة والجمال والشباب والعقل : سلام عليكم من كاتب قصتكم وقارئها
سلام عليكم وهنيئاً لكم لانكم رقدتم براحة وسلام قبل زمن الاضطرابات التالية . هنيئاً
لكم لانكم خلصتم من مشاهد الحياة الباردة واهتماماتها الباطلة وشهواتها الفارغة واعتداء آتتها
الوحشية . انكم خلصتم من مشهد الصغير النفس يجرّ ذيل الكبر منتصراً . والدميم خلقاً وخلقاً بيه
دلالاً ويمشي اختيالاً . والسالب يتمتع بما سلب مكرماً محترماً بين قومه لان الناس
لم يتعودوا شم رائحة الذهب قبل اكرام صاحبه ليعلموا هل كان كسبه حراماً او حلالاً .
والوقح يبلغ ما ربه بوقاحته ويزدري كل الفضائل والاخلاق اللطيفة لانها بين الحيوانات البشرية
في الدنيا لا تجرّ مغناً ولا تدفع مغماً

هنيئاً لكم ايضاً لانكم قضيتم قبل العصر الذي تزحف فيه الامم والقارات بعضها الى بعض
ليفني بعضها بعضاً . انكم يا ايها الجواهر الثلاثة قد شهدتم سقوط اورشليم الجميلة عاصمة
العواصم وزينة الدنيا وعروس العالم . ولكن كل هذا ليس بالشيء الذي يذكر بازاء
الاهوال الآتية . ان عنصرين جديدين من البشر سيشتبكان ويخاططان ويتماسكان وكل
منهما يطلب اذلال الآخر او نبذه من الدنيا . فاشفقوا على اخوانكم الضعفاء الآتين بعدكم
في هذا النزاع الهائل . اشفقوا على الدماء التي ستسفك من الفريقين والمظالم والفظائع
والصبيانيات التي ستحدث في الجانبين . وبما انكم قد خرجتم عن دائرة النزاع والعراك في
الحياة واصبحت نفوسكم نفوس ملائكة لا نفوس حيوانات بشرية فواحي الى الشرقيين يا ايها
النفوس الكريمة المبادئ الجميلة الشريفة التي ترميهم باطيل نزاعهم . ثم ارسلني الى حكاهم
روح العدل والحق والنزاهة والمحبة والالفة والسلام ليعيش الجميع في هذه الارض التي اصبحت مشتركة
بينهم والتي سقوها بالدماء والدموع معيشة هادئة لا يسبون معها الارض ولا يشكون من السماء

الناس . بيوتهم امتلأت من الغش كالقفص المملوء طيوراً ولذلك عظموا واستغنوا . سمان لامعون وهم يتعدون وصاياي شرّ تعدٍ ولا يقضون بينهم دعوى اليتيم ولا يحجرون حكم المساكين . اعلى هذا لا اعاقبهم ؟ قد حدث في الارض دهش فظيع : الانبياء يتنبأون زوراً والكهنة يتسلطون بايديهم وشعبي يحب مثل هذه الامور . . . فكيف تكون الآخرة (١)

« ويل لمن يبني بيته بغير عدل وقصوره بغير حق (٢)

« ويل للرعاة الذين يهلكون ويبددون غنم رعيي (٣)

« يا رب اذكر ماذا صار لنا . اشرف وانظر الى عارنا . قد صار ميراثنا للغرباء وبيوتنا للاجانب . صرنا ايتاماً بلا أب وامهاتنا كرامل . شربنا ماءنا بثمنه واخذنا حطبنا بثمنه . اباؤنا اخطأوا وذهبوا ونحن نحمل آثامهم . مضى فرح قلبنا . سقط اكليل رءسنا . اعدنا يا رب اليك فنعود . جدّد ايامنا كالقديم (٤)

هكذا كان ارميا يخطب على جبل الزيتون ويرثي اورشليم حين دخول حامية العرب اليها لتولي شأنها . ولو سمعه حينئذ الاسرائيليون الذين كانوا يرافقون جيوش العرب لقالوا له انه قد جاءت نوبة قومه في هذا الرثاء بعد ان صرف قومهم فيه عدة قرون

ولم يكد ارميا بطوي الكتاب الذي بين يديه ويترك الرثاء حزناً متلاً حتى طلع عليه بعض فرسان العرب . فعرف ارميا منهم عمراً بن معدي كرب وقد جاء بطلب ايليا لغرض له . فاخبره ارميا عن مرض ايليا ودله على المزرعة . ولما وصل الامير اليها كان ايليا غائباً عن الرشد وهو على اهبة الرحيل

ذلك ان الحمى التيفوئيدية فعلت فيه ما فعلته باستير

وكان الشيخ واهل المزرعة حينئذ في منتهى الحزن والغم لحالة ايليا وهم من ذلك في بكاء مستديم ولما علم الامير بموت استير ومرض ايليا الى هذا الحد حزن حزناً شديداً . وقبل عودته من المزرعة سأل الشيخ سليمان ان يدلّه على قبر الراهب ميخائيل الذي كان ايليا قد اخبره خبره كما تقدم . فذهب به الشيخ اليه . وقبل رحيل الامير سأل الشيخ ماذا يريد من ايليا ليلفّه اياه بعد انتباهه من نوبته . فاجاب الامير بلسان ترجمانه . هي مسألة كتاب سري بين خليفتنا عمر وبترككم لم يدربها احد غير ايليا . فاحببت ان اقف منه على فخواه

وينظر الى اورشليم امامه
وكان هذا الرجل ارميا والكتاب الذي في يده نسخة من التوراة
وكان ارميا يقرأ فيها نبوءة (سميته) ارميا ورثاءه اورشليم . فكان صوته يدوي في
جو المدينة المقدسة كأنه يوق ينذر بسقوط المدينة العظيمة . وكان في فكره يرثي اورشليم واستيرمعاً
ويا للعجب العجائب ان كثيراً من تلك النبوءات كان كأنه كتب عن الامة الفاتحة . وهذا
بعض ما كان يتلوه ارميا :

« يا ليت رأيي ما وعيني ينبوع دموع فابكي نهائراً وليلا قتلي بنت شعبي (١)
« كيف جلست وحدها المدينة الكثيرة الشعب . كيف صارت كارملة العظيمة
في الامم . كيف صارت السيدة في البلدان تحت الجزية (٢)
« كيف غطي السيد بالظلام ابنة صهيون . كيف القى من السماء الى الارض نحر اسرائيل (٣)
« كيف اكدت الذهب وتغيرت الابريز الجيد (٤)
« هكذا قال الرب . هوذا شعب قادم من ارض الشمال وامة عظيمة تقوم من اقاصي
الارض . تمسك القوس والرمح . هي قاسية لا ترحم . صوتها كالبحر يجموع على خيل تركب .
مصطفة كإنسان لمحاربتك يا ابنة صهيون — امة قوية امة منذ القديم . امة لا تعرف لسانها
(يا اسرائيل) ولا تفهم ما تشكلم . جعلتهم كقبر مفتوح . كلهم جبابرة — سمعنا خبرها
فارتخت ايدينا . اصابتنا ضيق ووجع كلما خض . لا تخرجوا الى اسفل وفي الطريق لا
تمشوا لان سيف العدو من كل جهة (٥) وخيله اسرع من النسور (٦)
« من صوت الفارس ورامي القوس كل المدينة هاربة (٧)
« ويل لنا لاننا قد هلكنا . اغسل من الشر قلبك يا اورشليم لكي تخلصي . الى متى
تبقى في باطنك افكارك الباطلة (٨)

« طوفوا شوارع اورشليم وانظروا واعزقوا وفتشوا في ساحاتها هل تجدون انساناً او
يوجد فيها عامل بالعدل طالب الحق فاصفح عنها (٩)
« هم من صغيرهم الى كبيرهم كل واحد مولع بالربح الحرام ومن النبي الى الكاهن كل يعمل بالكذب
« بينهم منافقون يرصدون وهم كامنون كالصيادين . وقد نصبوا الفخ لاقتناص

١ نبوءة ارميا ص ١ ع ١	٢ مراتي ارميا ص ١ ع ١	٣ مراتي ارميا ص ٢ ع ١
٤ المراثي ص ٤ ع ١	٥ ارميا ص ٦ ع ٢٢ وص ٥ ع ١٥	٦ ارميا ص ٤ ع ١٣
٧ ارميا ص ٤ ع ١٣ و ١٤	٨ ارميا ص ٤ ع ٢٣	٩ ارميا ص ٥ ع ١

المدينة في كل يوم لاستطلاع اخباره (١) * فركب الامام عمر على بعيره وركب امرأ المسلمين معه وضجت القبائل بالتهليل والتكبير . ولما وصل عمر الى الجابية اقام بها حيناً فاخذ خمس انبياء (٢) لبيت المال حسب العادة * . ولما رأى الامام كثرة الاموال والخيرات التفت الى ابي عبيدة وقال (— يا عامر لقد آن لنا ان ندون الدواوين ونفرض الفروض والعطاء للمسلمين فان الشام وفارس ملاءت خزائننا بالمال . فسأل ابو عبيدة (— وكيف يكون العطاء يا امير المؤمنين . فاجاب عمر (— « على السابقة في الاسلام » ابتداءً من المهاجرين والانصار فمن بعدهم الى اليوم . فقال ابو عبيدة (— والمساكين يا امير المؤمنين . فقال عمر (— « ساجع ستين مسكيناً واطعمهم الخبز ثم احصي ما اكلاوا وافرض لكل انسان منهم ولعياله على هذا التقدير (٣) فلا ادع في المسلمين محتاجاً

ثم انه شرع في تسريح الجند لاتمام الفتح « وقسم الشام قسمين . فاعطى ابا عبيدة من حوران الى حلب وما يليها وامره بالمسير الى حلب وان يقاتل اهلها . واعطى ارض فلسطين وارض القدس والساحل ليزيد بن ابي سفيان وجعل ابا عبيدة والياً عليه . وامر يزيد ان يحارب اهل قيسارية الى ان يفتحها الله على يديه . وسير عمر ابن العاص الى مصر (٤) « وجعل علقمة بن حكيم على نصف فلسطين واسكنه الرملة وجعل عاتمة بن مجزر على نصفها الآخر واسكنه ايلياء » (٥) ثم ان الامام ودع الامراء واوصاهم بالاتحاد والنشاط وعاد مع رجاله على بعيره قافلاً الى « المدينة » عاصمته وهو يحمد الله على الفتح ومعه كعب الاحبار * فبتسيير الرجال هذا التسيير الى اقطار الارض لفتحها وتوحيدها اشبه الامام عمر السيد المسيح لما ارسل تلاميذه الى العالم ليفتحوه ويوحّدوه وينشروا فيه الوداعة والمحبة والسلام بقوة الكلام فقط . ولكن كأن الكلام لم يفعل في العالم الفعل المقصود ولذلك قام السيف الآن . واذا كان الكلام لم ينجع فالسيف لا ينجع ايضاً

وفي اثناء ذلك بينما كانت فلسطين قائمة قاعدة لحركات الجند المختلفة فيها كان رجل جالساً تحت الارزة على جبل الزيتون وفي يده كتاب يقرأ فيه بصوت جهوري قراءة جديدة

- (١) الواقدي (٢) الغنيمة او الخراج او الجزية (٣) كذا فعل الامام بعد عودته الى المدينة في رواية ابن الاثير (٤) الواقدي . وروى درابرون في ترجمته « هيراقليس » ان بطريرك الاسكندرية وعد الامام عمر بان يزوجه ابنة الامبراطور هرقل وبيندي الجزية اذا امسك عن مصر ولم يبعث ليفتحها فلما درى بذلك الامبراطور استدعاه واهانه وعذبه (٥) اي بيت المقدس (ابن الاثير)

فمن يعلم ان استير لم يسرها وهي تحت التراب هذا الاخلاص من محب عاقل ومحب مجنون

الفصل الرابع والعشرون

✽ الخاتمة ✽

ماذا حدث لابليا بعد ذلك . الامام عمر والفروض . تسريحه الجيوش لانمام الفخ .

عودته من الشام . مرآتي ارميا في اوروشليم . القبور الثلاثة

هكذا كانت نهاية هذه القصة المؤلمة التي نزع فيها المؤلف دموعه بدموع ابليا . وربما

بدموع القارىء ايضا

وفي تلك الليلة لم يزر الكرى جفن ابليا ولما اصبح الصباح لزم فراشه لاعتلال طرا

عليه . ومنذ هذا اليوم عاده ضيجه القديم فصار سكوتا متقبضا لا يلتفت الى شيء ولا يبالي

بشيء . ولما سمع الشيخ سليمان باعزاله اسرع اليه شديد الاهتمام بامره

ذلك ان الشيخ سليمان كان كثير الخبرة في الحياة

ذلك انه كان يعلم تأثير بعض الامراض

فقد كان له في شبابه طفلان مات احدهما بعلة سرية في الاسبوع الاول وتبعه الثاني

في الاسبوع الثاني

فيا استير ليتك لم تهبي ابليا دفترك . فانك وضعت له مع عواطفك ميكروبات مرضك

ولما كان يقبل فيه عواطفك بشفتيه كان يلنقط بها ميكروباتك

فافتحوا يا اهل المزرعة قبرا ثالثا بجانب قبري استير والراهب ميخائيل

ويا استير سري وافرحي ان عزيزك ابليا راحل اليك

وهو ايضا كان مسرورا بذلك

انه قبل معرفتك ضجر من هذه الحياة الباردة وسئم اهتماماتها الباطلة فلما عرفك اصبح

يراهم لذينة جميلة . فهل من غرابة ان يكرهها بعدك كما كرهها قبلك

وفي اليوم الثالث من مرض ابليا بينما هو طريح الفراش يعاني الحمى التيفوئيدية ويهذي

باسم استير ويراهم في احلامه كان الامام عمر يودع امراء الجيش ليعود الى « المدينة »

المنورة في بلاد العرب حيث كان الناس قد استبطئوه وظنوا انه سيقم في الشام لكثرة

خيرها وخص اسعارها وطيب فاكثها ولانها بلد الانبياء . ولذلك كانوا يخرجون الى

الحياة بعد تمام عافيتي فاعود الى التمسك بها . . اما الآن فلا جبن ولا ضعف ولا خوف . . .
 غداً ستطلع الشمس ولكن تكون استير غائبة . غداً يناديها امها وابوها فتكون جثة باردة
 و « هو » ماذا يصنع حينئذ . وما يقول . . . وبم يفتكر . . . آه انني لم اعد اقدر على لفظ
 اسمه بضمي . . يا الهي احرسه بعدي . . او اه هل يكون سعيداً او تعيساً في مستقبل حياته .
 وا اسفاه انني اختبرت الحياة ورايت ما فيها من الشناعة والقيح والدناءة . . فمن الصعب فيها على محبي
 الجمال المطلق والنقاء وطهارة الاخلاق ان يعيشوا مسرورين مرتاحين . انني لا ازال
 اذكر ما رايت من افعال الناس في حياتي . لا ازال اذكر الوحوش البشرية
 الشرهة المرتدية بلباس جميلة تحيط بي وتصرف انظارها الي كما انها تريد ابتلاعي لا ازال
 اذكر تنازع هذه النفوس الصغيرة واقتناها على الامور الارضية التافهة افتتالاً يسقط فيه
 الخجول الطريف اللطيف العفيف ويقوم الخشن الغليظ الوحشي الكثيف . لا . لا . ما احلاك ايها
 الموت فتعال وارحني من هذه الحياة الدنيئة . ان حفرتك الهادئة الجميلة هي ملجأ امين من
 كل فظائع وشروخ هذه الحياة . هي مكان الراحة الابدي الذي يرفرف عليه ملاك الجمال
 جمال الهدوء والسكون والسلام بعد شناعة القلق والاضطراب . فما احلى واطيب الرقاد
 في ذلك المكان . . ولكن ياللذة العظمى والحلاوة الكبرى لو كان « هو » معي . . .

فمسح ايلى دموعه هذه المرة ايضاً وهو يشفق شقيقاً شديداً . وكان قد اتى على آخر
 الدفتر ولم يبق في الصفحة الاخيرة غير عبارة واحدة مسطرة بحروف مضطربة لان اليد التي
 كتبتها كانت ترتجف من ديب الحمى والموت . فقراءها ايلى فكانت كما يلي
 « الوداع . . صرت عاجزة عن الكتابة . . فاقراء من قبيل الوداع الفقرات الثلاث
 الاخيرة من كتابي اليك لما كنت في المزرعة »

فتذكر حينئذ ايلى هذا الكتاب (١) فاخرجه من جيبه واخذ يتلوه ويقبله باكية .
 ولما لم يعد قادراً على اتمام تلاوة الدفتر لشدة تأثره طواه ووضع في جيبه وهو يبكي بكاء
 الاولاد ثم خرج مسرعاً من الغرفة يقصد قبر استير . ولكنه لم يصل اليه حتى وجد هناك
 فوق التراب الذي لم تكن مرت بعد ساعتان على انهياره على نعش الفتاة — رجلاً ممدداً على الارض
 بطول القبر وهو يبكي . فعرفت ايلى ارميا لاول نظرة . ولما وقعت عين احدها على الآخر
 اجهشا كلاهما في البكاء

احلامك فاني ارسل اليك بدلها بركة سماوية من منزلي الابدى . فبجياة عينيك لا تنسني . .
انني اعرف قلوب الرجال . . فهم يقولون انهم يحبون الى الابد ولا تمر عليهم سنة او شهر حتى
ينسوا حبهم وعهدهم . آه يا ايليا لا اطلب منك كل يوم الا زهرة واحدة على قبري

يا ايليا . اين تدفنونني . آه انني اشعر منذ الان ببرودة وثقل التراب الذي سينهال
على جسدي الخفيف . . اف . لقد ضاق صدري . . واوشك ان يغمرني علي . . آه يا الهي
ارحمي لكن وافرجاه وافرجاه ان صدري يتسع ونفسي ترتفع حينما اذكر في موقف
كهذا الموقف كلمة « الهي » آه ما احلى هذه الكلمة يا ايليا في افواهنا وقلوبنا في حال كحالي .
اسمع ها انني بعد ان تلفظت بها واحضرتها في فكري وقلبي صرْتُ قادرة على سحق الموت
بقدمي . فتعال ايها الموت انني لا اخشاك لان نفسي الخالدة اقوى منك تعال ايها التراب
البارد الثقيل فانك لست ببارد ولا اثقل من جسدي . . لكن . . لكن يا ايليا اين تدفنونني
هل تدفوني خارج المدينة في مكان مهمل مجهول . لا لا انني ارتعد من وحشة القفر
ويخيفني رقص الذئاب والضباع فوق قبري في ظلام الليالي المدممة . هل تدفنونني في
« طبريا » حيث يولد المسيح وفي « صفد » حيث يُقام عرشه (١) لا لا انني لا اريد الابتعاد
عن ايليا مسيحي . فادفوني في مزرعته بجانب قبر الراهب ميخائيل . هناك يراني ايليا في
كل يوم ويسلم علي في كل صباح ومساء . وانني اذا كنت قريبة منه هكذا فلا اكون
وحدي بل يكون لي بجانبي مؤنس اذا مر قرب قبري دفات عظامي بجماعة انفاسه
وهشت له حجارة قبري

(وكان ايليا في اثناء هذه القراءة يجهد في البكاء عند كل سطر او سطرين كأن
عينيه وجدتا نبعاً جديداً من الدمع . فلما انتهى الى هنا عاد الى خاتمة الدفتر ليقف على آخر
عواطف استير بعد وقوفه على الاسباب التي ذكرتها . فقراء في الصفحتين الاخيرتين ما يلي)

. نعم نعم . . انني ارى الموت آتياً . حمداً لك يا الهي فانك انقذتني من جنابة
الاتحار وقتل النفس . . بل انك يا الهي انقذتني من الحياة نفسها لانني لم اكن على ثقة
من مقدرتي على الاتحار . . فكنت اخشى ان اجبن حين الشروع فيه او تعود الي غريزة

ويزداد أكرامك لذكري . أما الآن فاني صرتُ أشعر بكل جوانحي انني صرتُ صغيرة ذليلة في نظرك وفي نظر نفسي . وإذا كنتُ انتَ شهماً كريماً تجاهل ذلك وتتناساه أكراماً لي فانا لا يمكن ان انساه ابداً . . . انني كلما وقع نظري عليك اقول في نفسي « انه الآن يتذكر انني كنتُ من بنات الجاسوسية وقد اتجرتُ بجمال وجهي » . فيا ايليا سامحي على الامر الذي عزمتُ عليه . لقد عزمتُ على الفرار منك مرة ثانية . ولكنني هذه المرة سارحل الى مكان لا تستطيع ان تتبعني اليه . . .
آه يا ايليا . انني هذه المرة سافارك الى الابد فراقاً حقيقياً . . .

قلتُ آنفاً ان فراقنا الى الابد . فعفوك يا الهي . انني كفرتُ بنعمك ولم ادر . ليس فراقنا الى الابد يا عزيزي ايليا بل الى الملتقى . نعم الى الملتقى هناك فوق يا ايليا حيث لا مسيحي ولا يهودي ولا وثني بل كلنا بشر متساوون نستريح او نتعب تبعاً لاعمالنا الصالحة او السيئة في هذه الحياة . اضحك معي هنا من انني صرتُ فيلسوفة مثلك . آه انني لا انسى حتى في الدار الاخرى خطبتك بجانب قبر الراهب ميخائيل . وان يدي لترجف اذا رمتُ ان اُسطرك الآن رائياً فيها . ولقد تأملتُ كثيراً في موضوعها بعد رحيلي عن المزرعة فوجدتُ انني لو بقيتُ فيها لما كتبتُ لك الكتاب الذي كتبتهُ
نعم الى الملتقى يا صديقي وهذا هو الامر الذي يقويني على فعله . لانني لو كنتُ اعنقد انه لا ملئقي لنا بعد فراق هذه الدنيا لارتعدتُ فرائصي واحجمتُ عن الامر الذي عزمتُ عليه . اذ اين اجد حينئذ القوة على فراقه فراقاً لا لقاء بعده . اما الآن فاني قوية على ذلك راغبة فيه لانني اعلم ان دمي سيفسلي في نظره ونظر نفسي . واذا حال هذا الدم دون سعادتنا هنا فسيجعلني قادرة ان اكون سعيدة معه هناك واعيش بجانبه دون ان اخجل منه او يستحي بي . ولا ريب ان الله يسامحي على فعلتي . . .

» يوم الاحد

بما انني عازمة على فراقه فقد صرتُ اجد في نفسي قوة على محادثته ومضاحكته . ولقد دخل عليّ اليوم ضاحكاً مسروراً فاستقبلته ضاحكة مسرورة ايضاً . لماذا اجلب له الكآبة والحزن منذ الآن . اما يكفيه منها ما سيصيبه بعدي . . . آه . ايليا ايليا . ان كل دمعة تنحدر من عينيك على قبري ستبرد لها عظامي . ايليا ايليا ان كل مرة تراني فيها في

اخافه لانه سيبعدني عنك واتمناه لانني لم اعد اقدر ان اعيش بدونك . . ولا نقل احبي
لاكون لك فاني ذكرت لك في مقدمة هذا الدفتر الاسباب التي تحول دون ذلك . فاشفق
علي وصل من اجلي

(فهناسم ايليا دموعه لانها صارت تستر سطور الدفتر عنه وطلب المقدمة . فقراء فيها)

» يوم السبت

» اول ما فتحت عيني امس وجدته امامي باسماء . ولكنه كان اشد اصفراراً مما
عهده . فدنا مني واخذ يدي . آه . اني شعرت حينئذ بنار تحرق كبدي . . ولقد
سألتني هل ذهب الالم فقلت له قد ذهب كل شيء . . نعم قد ذهب كل شيء . . وعبثاً
يحاول تعزيتي وتخفيف مصيبتني فاني اشعر بانه لم يبق لي صبر على الحياة . . فقد اُضيف
الى الاسوار التي بيني وبينه سور جديد لا يهدم ابداً . هو مسيحي وانا اسرائيلية فامته
عدوة امتي خصوصاً في هذا العصر الذي كثرت فيه الدماء بينها . فافتراضي به يكون
عاراً علي عند قومي . بل انا نفسي لا ارضاه لنفسي لانني لا اقدر ان انسى مصائب
امتي واحالف اعداءها عليها . وفضلاً عن هذا فمن يعقد عقد القران ؟ . فلا اهله
وكهنته يتركون يد كاهن يهودي ترتفع على راسه ولا اهلي وكهنتي يتركون يد كاهن مسيحي
توضع على راسي . . . واولادنا ماذا يكونون ؟ . واي عار يلحقهم حتى ذريتهم كلما قيل لهم
عند اليهود ان اباكم مسيحي وعند المسيحيين ان امكم يهودية . . . اف ما اشد طياشتي .
لقد وصلت في الفكر الى الاولاد . .

» ثم ماذا يحل بامي متى علمت بفعلي . انني اعرف غضبها ولا اقدر على احتمال سخط
عجوز ضعيفة على شفا القبر . . وقد سمعتها مرة تقول : خير لها ان تموت من ان ينقذها مسيحي
ولكن كل هذا يا ايليا شيء يسير بالقياس على السر الجديد الذي فضحه بارميا على
سميع مني . انا ابنة جاسوس ؟؟ انا يُفجر بي للوصول الى اسرار الناس وخفائهم ؟ نقول
انك لم تصدق ذلك ولم تعباً به وتستشهد بارميا على قولك هذا . ولكن انا ماذا افعل
بضميري . ماذا افعل باعتقادي بنفسي . . آه آه . ان هذه الضربة قطعت حبل آمالي في
هذه الحياة . ومنذ اصابني لم تبق لي قوة على النظر اليك . لما فررت منك من المزرعة
يا ايليا فررت وانا شاحخة الراس لانني علمت انك تفهم قصدي هذا وثني عليه

ولقد انفذ الشيخ والعجوز وصية ابنتهما . فاذا في دفنها في مزرعة الشيخ سليمان بجانب قبر الراهب ميخائيل . وقد صلى عليها ابوها واشترك اهل المزرعة جميعاً في جنازتها والبكاء عليها لانهم عرفوها كما تقدم
اما ايليا فصار في الجنازة كوجود غير حاضر وقد نقد الدمع من جفنيه . وبقي طول ذلك النهار كمن مسه خبل في عقله . ولما غيب التراب في المساء جسم عزيزته استبر عاد الى غرفته فاقلع الباب ثم انطرح على وجهه يتذكر ماضي استير وتقلبات حياته : وبينما هو يتأمل في ذلك تذكر الهدية . فارتعد وجلس ليراها . فلما فتح الدفتر ونصفحه وجد انه عبارة عن « يومية » كانت استير تسطر فيه عواطفها كل يوم . فوضع ايليا شفثيه على الدفتر حيث كان خط استير وعواطفها وقبلة . ماراً وهو يبكي بكاء الاطفال . ثم ترك البكاء وشرع في القراءة فقراء اولاً مايلي

« يوم الاربعاء (اقراء هذا اولاً)

« خرجت اليوم معه الى الحديقة . فرأيت في النور اجل منه في الظل . وشعرت بلذة الحياة في هذا العالم . . . ولكن اواه انني لم اولد لاعيش فيه . . . وهذا شأن البشر الذين يعطيهم الله نفوساً حساسة أكثر مما يجب . . . يا الهي لا اعارض في احكامك وحمدك . . . لما تأملت اليوم في جمال الكون ولذة الحياة اسفت لانني سافارق الدنيا . . . خصوصاً بالطريقة الشنيعة التي عرمت عليها . . . آه عفوك يا الهي مقدماً . . . واذا صدق الحلم الذي رأيت في هذا الليل اعتبرته نعمة منك . . . فاني رأيت رسولك جبرائيل هبط الي وقال : ايها الفتاة ان الله تحن عليك ورائف بك ولذلك سيفنيك عن جناية الانتحار . وقد ارساني استدعيك اليه في زمن قصير . . . فانتهيت من النوم مذعورة ولكنني سررت لانني ساموت موتاً . . . لا انتحاراً . ولكن اصحيح هذا . . .

يا الله . يظهر ان الحلم سيصدق . فماذا حدث لي يا الهي . . . نعم كنت اشعر في الايام الماضية بضعف وصداع وارتخاء في كل جسمي ولكنني كنت اقدر على الجلوس والوقوف . اما الآن بعد عودتي من الحديقة فقد صرت عاجزة عن امتلاك حواسي . . . فهل هذا بدء الرحيل . . . هل اقترب الملاك جبرائيل . . .
ايليا ايليا . لقد شعرت الآن انني منحدرة الى هوة الموت . . . آه . انني اخافه واتمناه .

هي سمٌ ينتشر في دم الانسان يهدوء وبطء فيستحمه ويفني قواه وحياته . هو الداء الذي ما عرفوا اسمه وميكروبه الا منذ زمن . هو الافة التي ترتعد منها فرائص الالهات والاباء اذ كم اختطف منهم عزيزات واعزاء — هي الحمى التيفوئيدية

فيا ايها الميكروب القاتل الذي دخلت جسم استير الخيل وتمكنت منه دون ان يدري بك احد انك ستجري دموعاً وتكسر قلوباً وقرب الظهر فتحت استير عينها . فلم تعرف ايليا بل ظننه اباه . فقالت بصوت متقطع : ابتاه اما جاء كبيره ايليا

فوضع ايليا يده على عينيه لمسح دموعه فاردفت استير بقولها : انني راحلة يا ابتاه . وقد شعرت بدنواجلي . فارجو منك ان تدعوه لي لاراه المرة الاخيرة . . اما انت يا اماء فصلتي من اجلي فمسح ابوها دموعه واخبرها ان ايليا قد اتى وهو واقف امامها . فابشمت استير ابتسامة جرت عادة ملاك الموت ان يجعلها في منحنى الجمال والحلاوة على شفاه الراحلين . ثم مدت يدها الى ايليا فاخذت يده وقالت بصوت متقطع : يا كبيره ايليا شكراً لك . ثم خنقتها العبرات وعادتها التوبة

وكان استير شعرت حينئذ انها شرعت في الدخول في دار الابدية فاستجمعت قواها كلها ومدت يدها الى قميصها فاخرجت منها دفترًا مطويًا ثم دفعته نحو ايليا قائلة بصوت ضعيف منقطع لا يفهم كلامه الا بصعوبة : هدية الى ايليا من عزيزته . فنناول ايليا الدفتر يمينه بينما كان يمسح دموعه بيسراه . ويظهر ان الفتاة المسكينة قد رأت وهي في حشرة النزاع دموع ايليا فابشمت سرورًا بان ايليا يبكي من اجلها . ثم اشارت اليه اشارة ان يتقدم منها . فتقدم ايليا . فاستجمعت استير قواها وهي على ابواب الموت فقدرت ان تنطق بهذا الكلام : صل من اجلي بدل البكاء ادفنوني في المزرعة . . . قرب القبر . . . لكي ابقى قريبة منك ابدًا . .

وهنا اطبقت الفتاة جفניה واعادت روحها الى بارها فيا ايها القارئ الكريم نرجو منك ان تعفينا من وصف حالة ايليا وارميا والشيخ والمجوز لما رأوا امامهم استير المسكينة جثة هامدة . فان هذا الوصف يزيد اشجانك واشجاننا ويحفف بنايع الدموع في عيوننا

وبينا هي في تأملها هذا سقطت نقطتان من نقط المطر التي على الشجرة كان احد العصفير قصد مداعبة استير فرشقها بهما . فوقعت احدى النقطتين على يد استير والاخرى على التراب امامها

فحينئذ ابتمت استير ونظرت الى ايليا وقالت : هل نظرت ما نظرت . فاجاب ايليا نعم نظرت . فقالت استير فيماذا تشبهها . فقال ايليا اشبهها بمذهبي الجاحد والمؤمن . فحملت استير وشارت بعينها الى امها كأنها ترجو منه ان لا يبحث في امر ديني على مسمع منها وان كانت لا تحسن اليونانية : فلم ايليا انها لم تفهم كلامه فقال : نعم اشبهها بمذهبي الجاحد والمؤمن . فان النقطة التي وقعت على الارض وصارت وحلاً دينياً رمزاً الى مذهب الاول في مصير الانسان والنقطة التي وقعت على يدك وبقيت ماسة صافية جميلة رمزاً الى مذهب الثاني

فبهت استير وسكنت تفكر . فراب ايليا سكوتها فقال لها : وانت هم تشبهينها فرفعت استير رأسها وابتمت ولم تزد على الابتسام وفي هذا الحين وصل الشيخ ابوها فلما رآها جالسة في الحديقة وهي تكاد ترتعد من البرد اسرع اليها واعادها الى فراشها رغماً عنها . ويظهر ان هذه النزهة كان لها تأثير شديد على مرضها

فانه قبل دخول الليل اشتد صداعها وعادوها اغاؤها وهذيانها وكثر اضطرابها ولم يدن الفجر حتى وصل ارميا الى مزرعة الشيخ سليمان مذعوراً وهو يلث من التعب . ففرع باب غرفة ايليا حتى كاد يكسره فانتبه ايليا مبغوتاً فاخبره ارميا باكيًا ان استير في خطر فطار ايليا الى بيت لحم . فوجد استير بلا حراك في فراشها وحولها امها وابوها يبكيان بدمع مخنن

وكان وجه الفتاة في سكونها هذا وجه ملاك عابس وممدد في فراش كولد صغير فغجب ايليا من هذا الانقلاب وسأل اباه وامها عن سببه فلم يستفد شيئاً ذلك واسفاه ان الجميع كانوا يجهلون علتها ولذلك كانت العلة كل الايام الماضية متمكنة منها ولم يشعروا بها ولكن ما هي هذه العلة ؟ الحب ؟

هذه علة قديمة فيها . ولكن هنالك علة جديدة وما هي ؟

على مقعد بعيد وهو حزين يتأمل ورأسه بين يديه . فعاد ايليا من حيث ائق اجتناباً
للملق ارميا . ولما علم ان استير نامت مستريحة بعد العشاء اطمان باله فطلب فرسه ليعود
الى القدس على ان يعود في الغد . وقبل رحيله اختلى بابي استير وحادثه بما حادثه بشأن
الرق السري ثم ركب وعاد الى القدس

ولم يكد ايليا يصل الى منتصف الطريق حتى لقي شزيمة من امراء العرب قادمين الى
بيت لحم مع الامام عمر لانه رام مشاهدة المكان الذي ولد فيه المسيح كما شاهد قبره ومصعده .
فاستأذن ايليا الامام باتمام سيره ليعود الى البطريك بمهمة ارسله فيها فاذن الامام له
وفي اليوم التالي عاد ايليا الى البيت الاحمر فوجد استير على ما كانت عليه امس وقد
ابتمت له هذه المرة وحادثته وضاحكته

وفي اليوم الثالث اصحبت تقعد وتطلب دفاترها لتكتب فيها
وقد عجب ايليا من ان استير صارت في مرضها اكثر جمالاً مما كانت . ولكن ايليا
نسي المبدأ المشهور « ان الجمال في عين الرائي » ولذلك لم يعلم ان ذلك الجمال الجديد
الذي اصبح يجده لها كان في نفسه فقط وبذلك من قبيل الشفقة على نحوها وضعفها والخوف
على حياتها

واقامت استير خمسة ايام متتالية وعليها ظواهر الصحة مع صداع في راسها .
وكان ايليا كلما زارها وجدها مشغولة بالكتابة في دفتر تضعه تحت وسادتها . وحين دخوله
عليها كانت تطوي هذا الدفتر مبتسمة وتدسه في قبصها

وفي اليوم السادس لما زارها ايليا طلبت ان تحمل الى الحديقة تجلس ساعة فيها .
وكان الوقت قبل منتصف النهار والشمس تكسر شوكة البرد بجاراتها المحيية . فاخرجوها
الى مقعد تحت شجرة ظليلة فجلست هناك قريبة من امها ومن ايليا

وكانت هذه اول مرة تخرج فيها استير الى النور وتتنشق هواء السماء النقي بعد مرضها .
فانشرح صدرها للذة الحياة وابتقت عينها . ولكنها لم تلبث ان تغيرت فانقضت وسطع في
عينها دمعان جميلتان كنقط المطر الصافية التي كانت لا تزال على اغصان الاشجار تترقرق
في نور الشمس الذهبي كاحجار ماسية معلقة بها

فانتبه ايليا الى انقباضها هذا بعد الانشراح ولكنه لم يعلم له سبباً
اما استير فانها اسندت رأسها اللطيف الى يدها النخيفة وصارت تنظر بحزن الى ما
حولها من جمال السماء والارض

شئت برهاناً على كذبه فأنني أقول لك انه جاءني اليوم بعد الظهر واعتذر مني عن كذبه واقترائه . وهو حاضر خارجاً يشهد على ذلك . هل تريد ان ادعوه لك فلما رأت استير ان ايليا دخل في الموضوع الذي كرهت الدخول فيه صيانةً لكرامتها وشرفها تحول لونها بغتة من الاصفر الى الاحمر وبدأ الدموع في عينيها . واذا رأى ايليا انها لم تجاب عن سؤاله وكان يعلم ان السكوت في معرض الحاجة بيان نادى باعلى صوته — ارميا ارميا . ادخل بامر السيدة استير

وكان ارميا قد سمع من وراء الباب حديث ايليا مع استير . وكلما كان ايليا يذكر عن ارميا انه معتوه او مجنون كان ارميا يحرق الارم وبعض شففيه من الحنق ويشور كالجلج قائلاً في نفسه — لقد سمحت له ان يأخذها ولكني لم اسمح له ان يهينني لديها . فلما سمع صوت ايليا يناديه دخل ونزق الجنون في عينية . ولكنه ما وقع عليه نظر استير من وراء طرفها الكسير حتى تحول نزقه الى هدوء . فاحنى عنقه امام ايليا كالاولاد وقال : ماذا يا مربي ايليا

فقال ايليا : يا ارميا اما جئتني اليوم واعتذرت الي عما فرط منك . فقال ارميا نعم يا مربي ايليا . فقال ايليا اما ذكرت لي ايضاً انك لما كذبت كذبتك على مسمع من السيدة استير كنت مضطرب العقل . فتردد ارميا في الجواب ثم قال . نعم نعم قد قلت لك ذلك وانت قلت لي انك . . . فهنا خاف ايليا من فلتات ارميا فقطع كلامه قائلاً : انا لا اسألك عما قلت لك بل اسألك عما قلت لي . فاخرج الآن مشكوراً على اخلاصك فاحنى ارميا المسكين عنقه ايضاً وخرج طائعاً كولد صغير . وبهذه الكذبة وهذه الطاعة في حال كذه الحال لغرض كالفرض الذي اتفق عليه مع ايليا محاً ارميا كل خشونته السابقة واظهر ان نفسه نفس رجل كريم . بل انه بهذا الامر الذي انكر فيه ذاته الى هذا الحد ارتقى بمجنونه الى ما فوق العقل وفاق حبه حب ايليا

اما استيره فانها كانت في اثناء ذلك ساكنة هادئة لا تظهر على وجهها دلائل الرضى ولا دلائل السخط . وقد ظن ايليا انه اقمعها بهذه البراهين . وزاد عليها انه ذكر لها سبباً سياسياً لرحيله بسرعة من معسكر العرب كنصيحة عمرو بن معدي كرب ودعوة البطريق له فضلاً عن اتباع ما ذكرته له في كتابها . ولكن استير كانت تفكر في شيء آخر

وفي ذلك المساء تعشى ايليا في الفندق وتعتش استير براحة . وبعد العشاء خرج ايليا الى الحديقة مسروراً بان استير اخذت نتقدم من الصحة فوجد في الحديقة ارميا جالساً

فدفع باب الغرفة ودخل اليها

فلما سمعت استير صوت حركة الباب رفعت رأسها عن وسادتها والتفتت نحوه بعينين
ثائرتين منتفختين

وكانت العجوز امها بجانبها فلما رأتها تنبه الى صوت الباب وتظر بعينين واعيتين
عرتها الدهشة اذ كانت هذه اول مرة انتهت فيها استير هذا الانبأه
وقد دخل ايليا الى الغرفة وحده وبقي الشيخ وارميا وتوفانا خارجا
فلما وقع نظر ايليا على نظر استير ابتسم لها ابتسامة كابتساماته القديمة ونقدّم نحو فراشها
اما استير فانها ألوت رأسها الاصفر الخفيف وعادت الى وسادتها وهي تلتفظ بين شفثيها
بكلام لم يسمعه احد

فدنا ايليا منها والابتسام لا يزال في شفثيه . ثم اخذ يدها ليحس نبضها
فلما التقت يدها ارتعشتا معاً كما يرتعش سلكان كهربائيان مختلفان حين التقائهما
وكانت استير حينئذ بلون الاموات نحيلة كالخيال ضعيفة القوى كالطفل . وكانت
تغض من طرفها وتحاول ستروجهها من ايليا يدها . فآثر ذلك في نفس ايليا تأثراً بلل
عينيه بالدمع . فقال لها : كيف حال السيدة استير . وهل ذهب ألمها

فاجابت استير برزانة وجدّة وصوتها في منتهى الضعف : نعم قد ذهب كل شيء
ففهم ايليا معنى كلامها فابتسم اخفاً لئلا يلم وقال : فلماذا تبكين اذا كان الالم قد ذهب
فاظهرت استير الدهشة وقالت : انا ابكي ؟ معاذ الله . وانما تهيجت عيناى مما اصابني . .
ثم تنهدت وقالت : اف اف فلقد كنت متوقعة ذلك منذ الصباح . فاني انتهت من
النوم ورأسي مقل وصدري ضيق . فلعل ذلك من عدم تعودي الرقاد في خيام
العرب في ليالي البرد

فعجب ايليا حينئذ من انفة استير ورشاقة حيلتها في نسبة علتها الى غير سببها . وكان
ابوها يسمع كلامها من وراء باب الغرفة فسرّ بجوابها الدال على عزة نفسها . امماها فكانت
بجانبها تنظر شرراً الى ذلك الشاب المسيحي

غير ان ايليا رأى ان كتمان الداء لا يشفيه بل ربما زاده استفحالاً فعزم على مصادمته
وجهاً لوجه . فانحنى نحو استير وقال : هل تستاء فتاة عاقلة مثلك من كلام رجل معتوه
كارميا . فنها غضت استير من نظرها وترقرق الدمع في عينها . فقال ايليا : فلو كنت
مكانك لضحكمت من كلامه بدل ان تأثر به . فانه مجنون ولا عتب على المجانين . واذا

انظر يا بني انها منذ الصباح لا تفارقها نوبة الا وتقع في نوبة . وكلما تكاد تصحو يشتد هياجها فتلطم وجهها وتقطع شعرها . وفي احدى المرات عرفتني فزاحمت صياحا شديداً وصرفت عني وجهها نائحة معولة . وهي في اثناء كل ذلك تنادي « ايليا ايليا » ونقص على غير وعي كل ما جرى لك معها . فيخيل لسامعها والناظر اليها انها فقدت عقلها . فيا ولدي الكريم ليس لي ولا لها في الارض احد نهتم به ويهتم بنا غير هذه الفتاة . فهي شمس آمالنا وعصا شيخوختنا . فساعدنا على تسكين اعصابها ورد عقلها اليها يكن لك الاجر والثواب عند الله والناس

وان القلم ليعجز عن وصف ما قام في نفس ايليا في اثناء هذا الكلام . فقد يده وأخذ بيد الشيخ وقال : هلم بنا اليها

فدخل الشيخ وايليا الى الفندق بقصدان غرفة استير ولم يفتح باب الغرفة ليدخلا منه حتى انتصب في وجهها شيخ امرأة وضعت اصبعها على شفيتها و اشارت اليها بالرجوع . فوقف ايليا والشيخ في مكانهما ولم يدخلا وصاح ايليا بدهوة : السيدة تيوفانا

فخرجت تيوفانا واغلقت الباب ثم سلمت على ايليا وقالت . يا كبيره ايليا لا يمكن ان اتركك تدخل على الفتاة الآن لانني اخشى عليها من البغته . وفضلاً عن ذلك فهي الآن راقدة . وهذه اول مرة رقدت فيها واستراحت منذ اغنائها فشر ايليا بان كلام تيوفانا هذا لا يخلو من تهكم المرأة التي يلذها عذاب رجل وابعاده عن حبيبة له في قبضتها غير منها

وفي هذا الحين وصل ارميا الى باب غرفة استير عائداً من الاسطبل . فلما سمع كلام تيوفانا عن راحة استير صأب وقال في نفسه « كبيره لا يسون . ان استير يجرد دخول ايليا الى الفندق بداعت تستريح . فكأنها مسحورة منه »

وكاد ايليا يمثل لامر تيوفانا وحيلتها فينظر الى ما بعد انبياه استير من رقادها لا سيما وانه سر بهذا الرقاد لانه يدل على تحسن صحتها . ولكنه لم يخط خطوة عائداً عن الباب حتى سمع من الغرفة صوتاً يصيح بدعز وبأس : ايليا ايليا

وكانت استير هي التي صاحت من الغرفة هذا الصياح في الحلم . ولكنها لم تلبث ان انتهت مرتعدة لصياحها واخذت تبكي

فارتعد ايليا لهذا الصوت وبقي جامداً في مكانه . ولما سمع بعده بكاءها نقطت احشاؤه

الى البيت الاحمر يا مولاي حسب امركم
فقال البطيريك مبتسماً مع اشتغال باله وكثرة همومه : لا باءٌ س يا بني . فان انقاذ
روح محبة من الموت كانقاذ نفس ضالة من جحيم الضلال
وبعد خمس دقائق كان ايليا على جوادٍ يعدو على طريق بيت لحم ووراءه ارميا
يركض كالكلب وراء صاحبه

ولما وصل ايليا الى « البيت الاحمر » نظر في الباب من بعيد ابا استير واقفاً ينظره
طبقاً لعود البطيريك . وما وقع عليه نظر الشيخ حتى اسرع اليه والدموع في عينيه . فدخل
ايليا الى الفندق مع الشيخ . اما ارميا فاهتم بتدبير مربوط للجواد
وما صار الشيخ وايليا وحدهما في الحديقة التي امام الفندق حتى انطرح الشيخ على بدالتي ليقبلها .
فاجفل ايليا ورجع القهقري . فقال الشيخ باكياً : يا كبريه ايليا لقد انقذتني مرة فانقذني مرة أخرى
فقال ايليا بجدٍ وهذوء : ماذا جرى

فقال الشيخ : جرى ما سيقتلني ويقتل امها اذا ماتت . فاذا كنت انا مذنباً فما ذنبها
هي . يا كبريه ايليا لقد علمت كل شيء . فانها ذكرت في اثناء هذيانها وذوولها كل ما
حدث لك معها في المزرعة . ووقفت من ارميا على سبب اغنائها ونفورك منا . فانتجاشت في
ذلك الآن بهذوء يا كبريه ايليا . ابي جناية ارتكبت لا ستحق احتقارك . نحن وانتم
قوم نتنازع على هذه الارض وكل منا يحارب خصمه بكل سلاح يقع في يده . فلقد هدمتم
هيكلكم وحرمت علينا الدنو من بيت مقدسنا وسفكتم دماءنا وجعلتمونا نهيم على وجوهنا في
الارض كحيوانات سائمة . فهل ينكر علينا بعد كل ذلك ان نحالف عليكم من يقوم
لاستخلاص البلاد منكم . ولو كنتم في مكاننا وكنا في مكانكم افما كنتم تفعلون ما تفعله
نحن الآن . بل انكم الآن تفعلون مثله مع اعدائكم العرب لانكم تبعثون اليهم من يتجسس
احوالهم ويتنصم اخبارهم . فلماذا تحملي وحدي يا ايليا عار الجاسوسية ما دامت هذه
الوظيفة القبيحة من لوازم الحروب الاضطرابات

لما ايليا فلم يلتفت كثيراً لهذا الكلام ولا جاب عنه بل سأل الشيخ دون ان ينظر
اليه : اين السيدة استير ايها الشيخ فاني احب ان اراها لاثبت لها انني ما زلت احترمها
كما كنت وان ما بلغها عني خطاء محض

فاشرق وجه الشيخ واكب ثانية على يد ايليا صارخاً بدموع : بارك الله في شهادتك
يا ايها الرجل الكريم . نعم يا ولدي . قل لها انك لا تحقرها وانا على ثقة من شفائها .

ولما دخل ايليا على البطريك وجده جالساً على مقعدٍ وهو مطرق يفكر . ويظهر ان الاشهر التي مرت في اثناء الحصار وما تلا ذلك من فتح المدينة قد اثر في نفس البطريك تاثيراً شديداً ولذلك كان لونه الناصع الوردى الاعنيادي مشوباً بالاصفرار . وجسمه قد نخل قليلاً . ولما وقع نظر البطريك على ايليا صاح البطريك : بم اجاب الامير يا ولدي . فدأ ايليا يده الى جيبه وهي ترتجف واخرج له الرق السري وابلغه جواب الامير . فنناول البطريك الرق بيد ترتجف ايضاً وقال بنزق : من اين وصل هذا الرق الى يد ذلك اليهودي . فدهش ايليا وقال اي يهودي يا مولاي . فقال البطريك : ابو الفتاة التي قبض عليها الشعب في طريق بيت لحم . ولذلك بعثت في طلبك مع ارميا لتدبر هذه المسألة . فازدادت دهشة ايليا وظن ان ارميا كاذب بما قاله عن استير . فقال : وما شأن هذا اليهودي . فقال البطريك اجلس يا ايليا

ثم ان البطريك اخذ يقص على ايليا ما حدث . فعلم ايليا ان ابا استير جاء البطريك باكياً متحماً فانطرح على قدميه واخبره ان ايليا اساء الى ابنته وقد اشرفت على الموت ولذلك فهو يسأله ان يرسل اليها ايليا ليظهر لها الرضى ويعزيها حتى اذا شفيت من علتها وعادتها صحتها سافر بها ابوها . فدهش البطريك من هذا الاقتراح البارد ورد الشيخ بخشونة . فذهب الشيخ باكياً وارسل اليه مع احد الشماسة ورقة محتومة فيها هذه العبارة « اذا لم يفعل البطريك ما ذكرته له وماتت ابنتي فاني انتقم لنفسي بان اكتب للامبراطور واطلعه على مسألة الرق السري الذي دفعه الى امير العرب »

فلما قراء البطريك هذه الورقة اسقط في يده وارسل يسترجع الشيخ . فرجع الشيخ . وعلم منه البطريك ما يريد عمله عن استير وايليا . وكانت السيدة تيوفانا التي ذهبت باستير الى دير العذراء على جبل الزيتون قد عادت من الدير بعد فتح المدينة فاستدعاها البطريك وطلب منها ان تنقل استير من خيام العرب في حوزيت المقدس الى منزل موافق لصحتها وتحسن مداراتها . فاخترت تيوفانا فندق « البيت الاحمر » في بيت لحم فذهبت مع ابي الفتاة ونقلت استير اليه . وقد وعد البطريك الشيخ بان يبعث اليه ايليا في المساء . وكان ارميا قد جاء مع الشيخ الى المقام البطريكي فارسله البطريك في طلب ايليا . فذهب ارميا وجرى له مع ايليا ما جرى

فلما وقف ايليا على هذه التفاصيل خيل له ان الارض اخذت تميد به . وسمع صوت استير في باطنه يناديه : ايليا ايليا . فما فرغ البطريك من كلامه حتى وثب ايليا وقال : انا سائر

وكان الشيخ سليمان قد عاد الى المزرعة بعد ان ودع عمر وايليا يسير وراء الامراء منفرداً لان رفيقه القس الترجمان قد عاد الى البطريرك قبل قصدهم جبل الزيتون ليطلعه على نتيجة مهمة ايليا وبلغه ان الامير امسك ايليا عنده

وكان ايليا يسير وفكره شارد عند استير وابيها . ولذلك استعاذ بالله لما نظر ارميا قادماً . فنوى ان لا يلتفت اليه فاطرق الى الارض وبقي سائراً في طريقه اما ارميا فانه ما اقترب من الركب ولمح ايليا من بعيد حتى صاح باقوى صوته : كبريه ايليا كبريه ايليا . تعال تعال الي

فالتفت نحوه ايليا لفئة ثم صرف وجهه عنه وسار في طريقه وقد عجب الامراء من حالة هذا الرجل وصرف ايليا وجهه عنه . ولكن ابا عبيدة اخبر الامير انه معتوه فخلّ الابتسام محل العجب عندهم

اما ارميا فانه هجم كالذئب الكاسر على ايليا واخذ به . ثم جثا على الارض صارخاً بكل قواه : كبريه ايليا كبريه ايليا . رحماك خلصنا . صديقي . اخي . حبيبي . لا تركنا فدهش ايليا من هذه اللهجة الجديدة فلم ير بداً من سؤال ارميا عن مراده وقصده فصاح ارميا والجنون يقصف ويعصف في عينيه

— ايليا . ايليا . اذا تركت استير فاني اقتلاك . ها ها . هلم معي اليها . هي تنتظرك . هي تنادي ايليا ايليا ولا احد يجاوبها اسمع اسمع . ان البطريرك ارسلني اليك وابوها عنده الآن . . . وهو يطلب ان يراك . . . ففتشت عليك المدينة كلها فلم اظفر بك الا هنا ايليا ايليا . . . لا تستغرب كلامي . . لا تظنني مجنوناً فانا اقول لك الحق . . نعم قد دخل الشيطان منذ مدة الى قلبي فصنعت ما صنعت معك ولكن ما كنت اظن انها تحبك الى هذا الحد . . . فاسمع يا صاحبي . . يا اخي في المسيح . الله يبارك لك فيها انظر . . . ها انني انقض يدي امامك منها . . خذها وحدك . . لك وحدك يا ايليا . . . ولا آخذ منها انا غير خصلة من شعرها . . ولكن خالصها . . آه لو كنت علمت انه سيحدث ما حدث لما كنت صنعت شيئاً . . ولكن ما جرى جرى . . . ولا نعود اليه هلم معي يا عزيزي لنخلصها

فلما سمع ايليا هذا الكلام ونظر الى حالة ارميا اشتد جزعه على استير . فانقض المعتوه وسكن باله واستخبره الخبر . ولما علم منه كل شيء طارت نفسه شعاعاً فاستأذن الامير وسار مسرعاً الى المدينة قاصداً المقام البطريركي

وبعد برهة رفع الامام الجليل كفه الى عينيه (- فنظر ابو عبيدة في وجهه فرأى دمعين جيلتين تسطعان كلؤلؤتين في حدقتي الامام (- فصاح ابو عبيدة : ما ابكي امير المؤمنين . فازداد عمر بكاء وقال (- يا عامر انني ابكي على امتي لانني لا اعلم ما يحل بها بعدي . يا عامر انك تعلم انني لم ارفع العرب واجمعهم بعد تفرق كلمتهم الا بعضا من حديد فاخشى ان تدب عقارب الشقاق بينهم بعدي . يا عامر قد سمعت من الشاب ايليا ما هي شريعة الروم وسمعت من الشيخ كيف خرجوا عنها فانا اخشى ان نخرج عن شريعتنا في مستقبل الزمان كما خرج الروم عن شريعتهم فيصيبنا ما اصابهم . يا عامر ان بلاد الله وعباد الله لا تساس الا بالعدل والصدق والحق . واطلاق الحرية للغير لان لكل فرد وكل شعب حيزاً لا غنى له عن التحرك ضمنه . وانصاف الناس حتى اصغرهم واحقرهم . والاهتمام بالشعب قبل كل اهتمام . وتنزيه الدين عن اتخاذه دعامة للمصالح والسياسة والة للبخس والشقاق . واعتبار الامم التي نقبلنا وندخل بلادها انساباً لنا . لها ما لنا وعليها ما علينا لانها في ذمة الله وذمتنا . فانا اخشى يا عامر ان ندير ما بانفسنا من هذا يوماً ما كما غير الروم فيغير الله نعمته علينا وتنتقض اعمالنا

فيا تربة جبل الزيتون التي شربت تينك الدمعين الجميلتين اللتين جرتا من عيني الامام العادل العظيم هل حفظتهما في صدفة نفيسة كما يحفظ الدرّ النفيس . يا طيف الكمال الذي يسكن جوّ ذلك الجبل الكريم منذ دوت في فضائه خطب ابن الناصرة الالهية ألم ترفرف حينئذ حمامتك السماوية على رأس ابن الخطاب حين لفظ هذا الكلام الجميل . ويا ايها المسلمون والمسيحيون في مشارق الارض ومغاربها خصوصاً يا اخواننا الشرقيين الا تنفض عظامنا كلنا - انفضاض العصفور بآله القطر - بعد وقوفنا على اسباب سقوط سلطنة برنطيه وتأمّلنا في التي خلفتها وسماعنا الامام عمر بعد وقوفه على هذه الاسباب يقول ما قاله

الفصل الثالث والعشرون

✽ استير ✽

في البيت الاحمر

ولم يكد عمر يبلغ بركبه سفح الجبل حتى ظهر لهم من بعيد رجل يركض ركضاً شديداً . فلما وقع نظر ايليا على هذا الرجل عرف انه ارميا فقال في نفسه قبحاً لمنظر هذا الثقل والملقاء

وكان ابو عبيدة يسير الى جانب الامام عمر في مسيره وهو يفكر ايضاً . وبعد حين قال (— ما قول امير المؤمنين في اسباب سقوط دولة الروم . والله ان نفسي في اثناء كلام الشيخ كانت تتنفض خوفاً من ان يصيبنا يوماً ما اصابهم فسمع خالد كلام ابي عبيدة فدنا منه وقال (— ايها الامير نحن بعيدون عن كل ما اودى بالروم بعد الارض عن السماء . فلا رهبانية في الاسلام لنخشى منها على ديننا وشعبنا . ولا تجتر ولا تكبر عندنا لنترك ضعفاءنا يموتون جوعاً وضعفاً واقرباءنا يحشدون الاموال ويستخرون لانفسهم باقي الناس باجور قليلة . وخليفتنا انما هم بصلاح حال الشعب قبل اهتمامه بنفسه وبامراء امته . وكل واحد منا احب شيء اليه الموت في ساحة القتال طاماً للجهاد لانه مروض على الحرب منذ نعومة اظفاره . وقبائلنا ملاء الله قلوبها بروح الاسلام وغسلها من ادران الجاهلية فهي متحدة علي اعلاء كلمة الله اتحاداً لا انقسام بعده . — فمذا نخاف بعد هذا

فسكت عمر ولم يجب . ولكنه بعد حين قال لابي عبيدة (— ادع لي ايليا . فاسرع ايليا ووراءه الترجمان . فساه له عمر) — يا ايليا هل ورد للرهبان والصور ذكر في انجيلكم . فاجاب ايليا كلا ايها الامير . فقال عمر (— هل يعلمكم انجيلكم التجبر والتكبر ويقسم امتكم قسمين : سائدين ومسودين . فقال ايليا . معاذ الله ايها الامير فانه يعلمنا ان الكبير فينا صغير والصغير فينا كبير وان رئيسنا يغسل قدسي كل واحد منا دلالة على انضاعه واهتمامه بامته فقال خاله (— سبحان الله

فقال عمر وقد هز رأسه (— وهل يحضكم انجيلكم على اذخار الاموال والاستئثار بها واتفاقها . في سبيل الشهوات والملاذ . فقال ايليا : ايها الامير ان سيدنا المسيح كان يشترط على كل رجل يتبعه ان يبيع املاكه ويحجي بثمرتها الى صندوق الطائفة وهو « كبيت المال » عندكم فقال خالد ايضاً (— سبحان الله

فقال عمر وهل يحضكم انجيلكم على التنافس والتباغض وقيام افرادكم بعضهم على بعض وشعوبكم بعضها على بعض . فقال ايليا . ايها الامير ان انجيلنا يقول « لا تقاوموا الشر بالشر بل من ضربكم على خدكم الايمن فحولوا له الايسر . واحبوا اعداءكم وباركوا مبغضكم لانكم اذا لم تحبوا غير محبيكم فاي اجر لكم »

فصاح خالد هذه المرة بصوت اقوى مستغرباً (— يا سبحان الله اما عمر فانه انتفض رأسه وسكت . وبقي يسير بجانب ابي عبيدة وخالد متخبراً عنها .

وحروب شديدة يُظهر فيها كل واحد من الفريقين منتهى البسالة والقوة تُحوّل سياسة العالم عن مجراها الاول . فانه بعد ان يكون كل الخلاف والنزاع محصوراً في سلطنة عظمى ينازعها جيرانها البقاء ويطمعون فيها تقوم سلطنات عظيمة اخرى على انقاض ايطاليا القديمة والسلطنة الغرية فننصرف الالهية السياسية عن برزنيته الى عواصم سلطنات الغرب الجديدة . وبدل ان يكون حينئذ هم « الوارث » مصروفاً الى منازعة « الفاتح » لطلب ارثه يكون مصروفاً الى مقاومة تلك السلطنات القوية الجديدة ليجنظ نفسه منها الى زيادة مستعمراته في جهات اخرى لان سياسة المستقبل سياسة فتوح استعمارية لا سياسة فتوح حرية واعطام فارغة . بل ان « الوارث » و « الفاتح » سيتفقان بازاء الخطر الجديد الوارد من باقي السلطنات الكبرى والصغرى ويعيشان جنباً الى جنب بسلام وامان كجارين كريمين . فان الارض واسعة لانضيق عن الناس الكرام

فقال ابو عبيدة . ولكن ا لم يخبر النجم شيئاً عن « الاصيل » صاحب الملك الاول .

فاين يذهب

فاجاب الشيخ نعم اخبر عنه . فانه يقول ان هذا « الاصيل » يصغر بعد الكبر لانه لم يقدر على حفظ نفسه ويختصر في شبه جزيرة صغيرة قرب القسطنطينية . ومن هناك بقي متطالاً دائماً الى عاصمته القديمة مفكراً فيها ومراقباً « الوارث » عدوه القديم لئلا يسطو عليها فقال خالد ضاحكاً . والعجب من تعادي « الاصيل » و « الوارث » مع انها من دين واحد ففحك الشيخ واجاب . ان النجم يقول ان « الاصيل » سيتنق يوماً مع « الفاتح » على « الوارث » وعناصره (١) حفظاً لمصلحه لان السياسة مبنية على المصالح لا على الاديان . والقرون القادمة سيكون الدين فيها اضعف العلائق بين الناس

ويظهر ان الامام عمر فخر من هذا الحديث فظهرت دلائل الملل في وجهه فقال : لا عرافة ولا نجييم في الاسلام . والله لم يدهشني شيء كغضب الزبير من تخربات النجم . فدعونا من هذه الاوهام . ايها الشيخ شكراً لك لانك اوقفننا على بعض اخبار المملكة . اتبعنا يا ايديا

ثم نهض عمر فنهض الجميع لهوضه عائدين الى بيت المقدس وعمر كثير التفكير والاهتمام

١ هو اتفاق الباب العالي واليونان في العام الماضي على البلغار في المسألة المكدونية . وما نحب ملاحظته هنا ان هذا الاتفاق جاء متطابقاً على سياسة اليونان الماضية لما استعانوا على سحق سلطنة السرب بمراد الاول كما تقدم

الامبراطرة على سحق المملكة السرية التي اقامها السريون . فيهدم سلطان تركي (١) مملكة السرب (سنة ١٣٨٩) وبذلك تقوى سلطة الاتراك قوة عظيمة . اما سلطنة برنطيه فانها تصبح يومئذ عبارة عن بقايا ولايات منقطعة عن راسها . ولكن بقاءها حينئذ انما يكون مسبباً عن تعدد سلاطين الاتراك وانقسام قواتهم . فلما يقوم فيها سلطان قوي (٢) ويوحد قوتهم وسلطتهم باخضاعهم لسلطانهم يهاجم القسطنطينية ويحصرها (١٣٩٧) ولكن انتصار سلطان المغول (٣) على جنوده قرب انقربه يردّه عن هذه العاصمة . فيقوم بعده «التركي الفاتح» الذي كُتب للقسطنطينية ان تُفتح له (٤) فيحصرها ويفتحها (سنة ١٤٥٣) ويجلس على عرش القياصرة العظام بنوا آخر امبراطراتها (٥) يموت بين جنوده موت الابطال دفاعاً عن عاصمته وعرشه . وحينئذ تقوم في القسطنطينية الجديدة سلطنة جديدة عظيمة تباغ من بسطة الجاه والعظمة ان تصل جنودها الى قلب الغرب واساطيلها تستمزي بشواطئه

فلما انتهى الشيخ الى هنا سكت ونظر الى ايليا فوجده مشغولاً عنه بالتأمل وعلى وجهه دلائل التألم من شيء يفكر فيه . اما امرأه العرب فقد ساءم ختام نبوءة الشيخ . وكان الزبير حاضراً بينهم فانبرى وقال : ان صاحبك النجم يظن اننا سنصنع صنع الروم اي نشغل لغيزنا . فوالله الذي الا اله الا هو اننا ستملك القسطنطينية كما ملكنا بيت المقدس ولو توارت عنا في السحاب

فقال الشيخ وقد رام تخفيف غضب الزبير وغيره : ايها الفارس الشجاع . لا تغضب لنبوءة النجم فانه بتكهن على غير هدى . اما نحن معاشر السوربيين فسيان عندنا ملككم السلطنة انتم او ملككم غيركم لاننا لا نطلب من ملككم غير العدل والحرية .

فابتسم ابو عبيدة وسأل الشيخ . وهل فرغت نبوءة النجم . ام بقي منها شيء لعل نوبتنا تأتي بعدها . فاجاب الشيخ . بل بقي منها شيء . وهي ان الذين رشحوا انفسهم لوراثة سلطنة برنطيه كما تقدم الكلام بغضبون لانتقال هذا الارث من يد اليونان الى يد امة «الفاتح» كما غضبتم الآن انتم من ذلك . فيقومون الى طلب هذه الارث فقال ابو عبيدة : وبعد

فاجاب الشيخ : هنا سكت النجم ولم يعد يذكر شيئاً جلياً . وانما يقول انه بعد اضطرابات

امراء الغرب سيتحدون يوماً على الشرق تحريض رجال الدين . ويكون لهم يومئذ من هذا التحريض غرضان . الاول اسقاط سلطنة اليونان لما بين الفريقين من الخلافات الدينية والثاني افناء سلطة الاسلام واستخلاص القبر المقدس منها . وستكون هذه الحروب من اعظم الوسائل الى تمدن الغرب لان الصليبيين يجدون في القسطنطينية والشرق من آثار العمران والعلوم والفنون والحكمة والعظمة ما بهر عقولهم فيتهافتون على اقتباسه . ولكنهم يجزون هذه الامم الممدنة في مقابلة ذلك شرّ جزء لانهم يضعفونها بجروبهم ويفرغون جهدهم في اسقاطها ويستولون مدة على القسطنطينية منصرفين اليها عن الشرق وعن الاسلام . مع انه لو تحدد الفريقان يومئذ لتغير وجه الكرة الارضية . ولكن اذا كان يمكن اتحاد الماء بالنار يمكن اتحاد اليوناني باللاتيني لتخالف مصالحها السياسية والدينية معاً . ولما يظن احد الامبراطرة (١) ان النزاع بين السلطنتين وارد من جهة الاختلاف في الدين فقط يتقرب من كنيسة رومه لازالة الخلاف . فيرسل نواباً من قبله الى مجمع ليون (سنة ١٢٧٤) ولكن الشرق وكنيسته يرفضون الاتفاق . فكان هذا الامبراطور يجهل ما يعرفه الجميع من ان كل امة تحب ان تعيش حرة في بلادها ونفهم دينها بقول ابنائها لا بقول غيرهم . ثم تعج الحالة في القسطنطينية فوضى . ويكون الاباطالين فيها محاكم خصوصية وقناصل يحكمون بينهم كأنهم مملكة في المملكة . وتثور حرب اهلية بين شيخ وحنيد (٢) فيقوم خادم للشيخ (٣) ويغتصب الملك منها ويحالف الاتراك عليهما (سنة ١٣٤٧ - ١٣٥٥) ويكون ملك هذا الخادم مقصوداً على النزاع على الملك بينه وبين الوارث الشرعي من آل الشيخ (٤) ولما يعود الملك الى الوارث الحقيقي يقوم عليه ابنه . وسيدخل البندقيون والجنويون والاتراك جهدهم للاستفادة من هذه الفتن الداخلية ويوسعونها . وحينئذ تبدأ سلطة عظيمة في الانتشار . فان الاتراك بعد الاضطرابات التي ستسقط خلافة بغداد (سنة ١٢٥٨) تشد شوكتهم فينتشرون من شرقي جبال الاوليب في وادي سنغاريوس حيث يقيمون ويزحفون الى القارة الغربية . ويساعدهم على انتشارهم هذا ان الاسرة المالكة (٥) بعد ان تمك القسطنطينية لعدوها الداخلي الذي قام عليها وتخذ نيقية عاصمة لها حيث تقدر منها على مراقبة الاتراك والحرص على ولاياتها الاسيوية التي كانت كل قوة الامبراطورية منها - تعود فتترك نيقية لاستردادها القسطنطينية . فيخلو الجو حينئذ للاتراك وبثبون على البلاد . وبدل ان يتحد السلافيون واليونان واللاتين عليهم يستعين بهم

٢ اندرونيكوس الشيخ وحنيد اندرونيكوس الشاب

١ ميخائيل بالبولوغوس

٥ آل بالبولوغوس

٤ يوحنا بالبولوغوس

٣ كاتنا كوزينوس

والايقونات فتكون نتيجة هذا القرار سلخ ايطاليا والكنيسة الغربية عن السلطنة الشرقية .
 لانه حين وصول خبر ابطال الايقونات الى ايطاليا يقوم في نفس الشعب ميل للانفصال
 عن سلطة القسطنطينية وطلب الاستقلال ويساعد على ذلك رئيس كنيسة رومه مقاومة
 لقرار المجمع وسلطة الامبراطور . ويومئذ يكون اللومبارديون مهديين ايطاليا والايطاليون
 يخضعون لرئيس كنيستهم اكثر من خضوعهم للامبراطور . فلما يرى رئيس الكنيسة الغربية
 انه لا يرجى من الامبراطور مساعدة على اللومباردين يستعين بالفرنك عليهم فتسقط سلطة
 الامبراطور عن ايطاليا سقوطاً تاماً وتنضم ايطاليا الى املاك ملكين عظيمين للفرنك (١)
 ثم ان رئيس الكنيسة الغربية رغبة في تقوية نفوذه وسلطته يخضع اعظم هذين الملكين (٢)
 لقب « امبراطور » ويتوجه في سنة ٨٠٠ . فيستاء من ذلك امبراطرة السلطنة الشرقية ولا
 يعترفون له بهذا اللقب . ثم ان « الامبراطور الغربي الجديد » تحدته نفسه بتوحيد
 الامبراطوريتين ليكون « سلطان العالم » فينوي الزواج بامبراطرة تكون على
 عرش السلطنة الشرقية (٣) ثم يقوم احد الامبراطرة (٤) ويعترف له بلقبه وان
 كان باقي الامبراطرة بعده ينكرونه عليه . وفي سنة ٨٤٢ يجتمع مجمع في القسطنطينية
 ويقرر اعادة الصور . وفي ختام القرن التاسع والعاشر تباع المملكة من السعة والقوة مبالغاً لم
 تدركه قبل ذلك . حتى ان احد ملوكها (٥) يدحر السلافيين في بلاد الروس ويملي
 عليهم شروط الصلح ويصل الى ما وراء نهر الفرات . ولكن هذا العدو الهائل — الروس
 وفرعهم من البلغار والسرب — يبقى في وجه السلطنة كجبار رابض على صدرها . الا ان
 هذا الجبار يتلطف يوماً وينجذب الى المدنية اليونانية . فتأتي في سنة ٩٥٧ ارملة الملك
 الذي هاجم القسطنطينية (٦) الى هذه العاصمة وتعمد فيها . وفي سنة ٩٨٨ يتزوج احد
 ملوك الروس (٧) باخت امبراطور (٨) ويدخل الى بلاده الدين المسيحي والمدنية
 اليونانية . فتصير مدينة كييف ثانية القسطنطينية من حيث نمو العمران والحضارة والمدنية .
 ولكن امبراطورية اليونان تربي لنفسها في هذا الشعب الهائل الجديد الآخذ في التمدد
 عدواً لدوداً و « وارثاً » لقوتها وسلطنتها وكأن الله يخنار هذا الشعب الجديد لهذه الوظيفة
 لان الشعب اليوناني القديم يحجز عن اتمام وظيفته الى النهاية للامراض التي طرات عليه .
 ومما يزيد اعداءه وامراضه حروب يسمونها يومئذ حروباً صليبية . فان النجم يقول ان

١	بيزنوس وشارلمان	٢	شارلمان	٣	الامبراطورة ايرينا	٤	مخائيل الاول
٥	يوحنا ترميسيس	٦	اولغا ارملة ايكو	٧	فلاديمير	٨	باسيليوس الثاني

فانبرى حينئذ خالد بن الوليد وصاح : والله انني لا خوض الا ان يجزاني البحر الى القسطنطينية
اذا اذن لي امير المؤمنين . فابنهم عمر لشجاعة خالد . ولكن الشيخ وابليا ابنيهما ايضا

النبوة (١)

عن مضر سلطنة برنطية (القسطنطينية)

(دعنا الامام عمر)

وكان ابو عبيدة في اثناء ذلك مصغياً . فقال حينئذ : ايها الشيخ انت قلت ان النجم
والرجم بالغيب كثير في بلادكم . فلم يتنبأ احد عن مضر هذه السلطنة
فابنهم الشيخ واجاب بلي ان النبوءات كثيرة . وها انني اذكر لكم احداها
قال النجم : ان السلطنة ستصير الى قوم مخنونين . وهذه الولايات السورية التي هي
اكثر الولايات عمراً وفيها اليونان اقوى منهم في سواها ستدخل تحت حكمكم . واحد
قوادكم (٢) سيصل في سنة ٦٦٩ حتى اسوار العاصمة (القسطنطينية) ويحصرها . ولكنه
يرتد عنها . وسيعبر البلغار احد فروع السلافيين نهر الدانوب ويؤسسون في ولايات
الشمال مملكة قوية لمدة ثلاثة قرون . ثم ينتشر السلافيون في ابيروس والتراس (٣)
ومكدونيا وثناليا والاتيكا والموره نفسها حتى سالونيك . فيقوم النزاع العظيم في الغرب بين
العناصر السلافية والعنصر اليوناني . ومن سنة ٧١٦ الى سنة ٨٤٢ يقوم امبراطرة مصلحون (٤)
يفرغون جهدهم في اضعاف نفوذ الاكليروس وعلى الخصوص الرهبان وتنقية العبادات
وثقوية السلطنة المدنية وسلطة الامبراطرة . ومن الاسف انهم سيضطرون بحماسة النزاع
الى بعض الاضطهادات ولكنهم مع ذلك يصلحون اصلاحات عديدة فيحسنون احوال
الفلاحين والزراع وبلغون الرقي ويصلحون نظمات العائلة . وسيكون لهم اعوان ومساعدون
من جميع الطبقات المستنيرة من الامة ومن عقلاء الاكليروس ايضا (٥) وهذه الاصلاحات
السياسية والدينية يقبلها الناس بهدوء ولا يثورون ضدها الا في احدى الجزر (٦) وفي
زمن احد الامبراطرة (٧) يجتمع مجمع مؤلف من ٣٤٨ اسقفاً ويقررون ابطال الصور

١ « وضعنا هنا هذه النبوة لنتمكن من ذكر مستقبل سلطنة برنطية بعد ذكرنا حاضرها وماضيها
٢ « مومع اوبية (٣) هي رومانيا وبلغاريا اليوم (٤) هم لاون الثالث وقسطنطين
الخامس ولاون الرابع ولاون الخامس (٥) بابيت وكل هذه التفاصيل له (٦) جزيرة
سيكلاده اليونانية في الارخبيل (٧) « قسطنطين الخامس

ولكن لما سكت الشيخ همس الامام كليتين في اذن ابي عبيدة . فقال ابو عبيدة للشيخ ايها الشيخ لقد احسنت الحديث . انما يؤخذ من حديثك هذا ان المملكة منهزمة فهل يظن انه قد دنت آخرتها على بدنا

فاطرق الشيخ سليمان ملياً ثم قال : انني ارى انكم لا تقدرون على هذه المملكة العظيمة في الغرب وان قدرتم عليها في آسيا . وذلك لعدة اسباب (اولاً) انكم فتحتم بلاد الفرس وستملكونها وتسقطون دولتها . فهذا الفتح سيقوي الامبراطورية لانها ستسرد كل جنودها القائمين على حدود الفرس وهم خيرة جنودها لتدافع بهم عن نفسها دفاعاً شديداً (ثانياً) انكم بعد فتح الشام وفارس لا بد ان تفعل فيكم مدينتها وتجذبكم الى الترف والتنع وتثير الطمع والحسد في نفوس حكامكم لانساع ملككم فتقسم كلتكم ويتنافس امرؤكم فنقفون عن الفتح حيث انتم

فمن نظر الامراء بعضهم الى بعض وضحكوا من حربة فكر هذا الشيخ . اما الشيخ فاردف بقوله (ثالثاً) ان القسطنطينية لا تفتح الا بالاساطيل البحرية . والامبراطور لديه ما يدفع اساطيلكم اذا كان لكم اساطيل . فان سوريا يدعي « كاليبديكشوس » اختراع له سيالاً اذا وضع في اسطوانات وفتح على السفن احرقها ولم يدعها تدن من الشاطئ . وتركيب هذه النار محسوب في جملة الاسرار الامبراطورية . واليونان يحرقون بها كل الاساطيل التي تدنو من بلادهم

(رابعاً) ان معامل الفرس الصناعية ستنتقل ولا شك الى الامبراطورية بعد فتحكم بلاد الفرس لانني اظن انكم في هذا الطور من الفتح لانهتمون كثيراً بالمعامل والصنائع . اذ كفاكم منها ما لدى الشعوب المغلوبة التي تدخل تحت يدكم . وفضلاً عن ذلك فان اليونان هم سلاطين البحار الآن وتجارتهم اوسع التجارات . فلهذا كله سيبقى في مملكتهم من القوة الحيوية ما يمكنها من المقاومة والبقاء دماً طويلاً

(خامساً) ان القبائل الذين اضعفوا السلطنة بحروبهم على شواطئ والمدانوب قد اخذوا يتمدون . اي اخذوا ببناء المدن على شواطئ هذا النهر . فدخلهم في طور الاقامة بعد طور الارتحال سيقوي السلطنة لانه يجعلهم بمثابة سور لها مانعاً عنها كل غارة جديدة (١) فالذي اراه ان هذه الاسباب ستغلب عليكم اذا لم تهتفوا عليها

١ « هذه الاسباب اوردها مونتسكيو ليعمل بها بقاء سلطنة بزنطية قروناً بعد ظهور العرب واخذهم املاكها في الشام وفارس مع ما كان في السلطنة من الضعف والاعتلال

وطوراً بالاكليروس وآونة بشعب القسطنطينية واخرى بشعب باقي المدن (١)
ولما تكاثرت الفتن والثورات وحأت بالملكة المصائب في الخارج صار الناس ينسبون
كل ذلك الى سوء تدبير ملوكهم فازدادت الفتن والمصائب بهذا الاعتقاد . وهكذا انتجت
الثورات ثورات وصارت النتيجة سبباً (٢)

وبما كان يزيد ضعف الحكومة يومئذ انقيادها الى آراء النساء . فانه كان من المقرر
في الشرق اتخاذ عدة نساء اضعافاً للسلطة العظيمة التي تكون للمرأة الواحدة على الرجل في
هواء الشرق الحار . اما في عرش القسطنطينية فقد كانت المرأة واحدة تبعاً لنظام المسيحية .
وهذا الامر كان من اسباب ضعف الحكومة احياناً (٣)

وبما ان الجيش كان له يد وراي في السياسة فقد افضى هذا الامر الى تمرد احياناً .
وبذلك ضعف نظام الجندية . وقد كان القائد بليزار يقول لجنوده في ساحة الحرب « ان
جنود الفرس لا يفضلونكم في الشجاعة ولكنهم يفضلونكم في الطاعة لقوادهم » فضلاً عن ذلك
فان الترف والمدنية اضعفا نفوس الامة وميلها الى الحروب في حين ان باقي الامم التي
تحيط بها لم يكن لها شغل غير الحرب . وبذلك ومن عزمها امام اعدائها وصار لا يجتهد
قوامها ونشاطها الا التحريض الديني كالحث مثلاً على استخلاص الصليب كما حدث في حروب الفرس
هذه أيها السادة امم اسباب التي اضعفت السلطنة . وقد فصلتها لكم باختصار .
فلو تداركها اليونان لكان عندهم اجمل وافوى واعمر سلطنة في الارض ولما تمكن احد
غيرهم من منازعتهم في شيء

لماذا

بقيت سلطنة بزنطية (القسطنطينية) قروناً طويلاً

بعد مصائبها وامراضها المذكورة آنفاً

وهنا سكنت الشيخ ليستريح من تعب الكلام . وكان الحاضرون في اثناء كلامه
يتحادثون همساً ويتبادلون افكارهم وهم تارة يتسبحون وطوراً ينقبضون . اما الامام عمر
فانه كان بينهم كالجيل الراسخ لا يحركه شيء ولا تبدو على وجهه دلالة

(١) مونتسكيو (٢) مونتسكيو (٣) منقول حرفياً عن مونتسكيو . ولكن ليس الذنب
في هذا الضعف " للمرأة الواحدة " بل لعدم وجود دستور ومجالس نيابية دستورية توقف الامبراطور
والامبراطورة معاً عند حدودهما كالحال الآن في اوروبا واميركا حيث جميع الملوك والروساء بامرأة واحدة

ولكني اذا كنتُ اليوم الامبراطور لاهاله شعبه الى ذلك الحدفانا اشفق عليه . فان السلطنة متعددة الاحزاب الآن وهذا من اسباب ضعفها ايضاً . فان الاحزاب في البلاد الجمهورية تنفع الامة لظهور الحقائق بالبحث واحتكاك الافكار ولكتها في البلاد الملكية المطلقة تكون سبب ضعف لها لان كل حزب منها يقدر ان يستبد بالحزب الآخر فيقوم هذا الى الثأر منه وهكذا دواليك الى ما شاء الله . واهم احزابنا الآن « الخضر » و « الزرق » واصل تسميتهم هكذا ان سافة المركبات الذين كانوا يتسابقون الى الجوائز في حلبة السباق كان فريق منهم يلبسون ثياباً زرقاء وفريق ثياباً خضراء . فكان الحاضرون يتحزبون لم حزبين يسمون « الخضر » « والزرق » (١) وقد انتشرت هذه القسمة في كل مدن الامبراطورية وصارت قسمة سياسية . ولما قام جوستينيانوس انتصر « للزرق » وظلم « الخضر » فقوي الزرق حتى صاروا يدوسون نظمات المملكة . وكذلك الخضر عثوا بالنظامات لانهم راوا ان رفاتهم الزرق لا يحترمونها . وكان كل قاتل وشرير في ذلك الزمن من حزب الزرق وكل مقتول من حزب الخضر (٢) فسادت الفوضى بين الناس وانتهكت حرمة النسب والصدقة والواجبات ومعرفة الجليل بقيام الناس والعائلات بعضهم على بعض بنفون بعضهم بعضاً .

وبما زاد الاضطراب واختلال الايمان اعتقاد شاع في المملكة وهو « انه من المحرم سنك الدم المسيحي » (٣) فكانت كل الجنابات والجرائم التي لا تتعلق بالدين يعاقب اصحابها عقاباً خفيفاً (٤)

وبما ان امراض العقل تتحول ولا تزول فقد اتخذ التنجيم والنبوء صورة غير الصورة القديمة . فقد كان الوثنيون من اليونان والرومان يستطلعون البيخت ويرون الغيب بنظرم في احشاء الذبيحة او مراقبتهم طير الطيور يمينا او يساراً . فخل عند المسيحيين محل هذه الطريقة استطلاع البيخت والغيب بالنظر الى اشياء توضع في حوض ماء (٥)

وكانت حوادث المملكة السياسية تضرع نار الطمع في النفوس حتى انه لم يكن في السلطنة رجل عظيم الا وقد نبي له بانه سيتولى الامبراطورية . وكانت الثورات والفن في الامبراطورية تنوال بلا انقطاع . وبما ان الامر المتنازعة على الملك كانت تمر على العرش بسرعة فلم يكن الناس مخلصين لواحدة منها . وكانوا يتخذون كل الطرق للوصول الى العرش . فتارة بالجنـد

١ « مونتسكيو ٢ « مونتسكيو ٣ « شاع هذا الاعتقاد على الخصوص حين ظهور الاسلام ٤ « مونتسكيو ٥ « مونتسكيو

بانّ الاشياء التي من طبيعتها الانفصال والتباعد والتي لا يمكن ان توجد معاً الا منفصلة متباعدة بعضها عن بعض — يجب ان لا تمتزج ابداً . وهذا الفصل كان معروفاً عند قدماء الرومان اكثر مما كان في القسطنطينية ولئن كان اكابروسهم الوثني غير منفصل عن طبقات الهيئة الحاكمة . فانه لما وقف الامبراطور كلود يوس منزلاً — « شيشرون » للحرية بعد نفيه وعاد شيشرون من منفاه طلب استرداد منزله فحكم رؤساء الكهنة بانه يمكن رد منزله اليه دون ان يكون في ذلك اهانة للدين اذا كان المنزل قد وُقف بلا امر خصوصي من الشعب . قال شيشرون . وقد قالوا انهم ينظرون في صحة الوقف لا في صحة الشريعة التي سنّها الشعب وانهم اذا كانوا نظروا في القضية الاولى كروء ساء كنهة فانهم ينظرون في هذه القضية كاعضاء مجلس الشيوخ » (١)

هذا هو اعظم الاسباب في ضعف سلطنة بزنطية . وانما يستمد هذا السبب اهميته الخصوصية من صرفه فكر الحكومة والامة عن الاصلاحات الاجتماعية والحوادث الخطيرة وشغلها بالمجادلات الدينية العقيمة

انظروا ايها السادة لا اعطيكم برهاناً صغيراً يدلّكم علينا احسن دلالة . قبل ان نصلوا الى هذه المدينة بيوم واحد لتحصروها كان شعبها يملأ الدنيا ضجيجاً على طريق بيت لحم طلباً لتعميد فتاة يهودية وجدها في طريقه . وكان يهتم بهذه الفتاة اكثر من اهتمامه بمجنودكم الزاحفة اليها

ومن هنا تعلمون مبالغ ضعف تربيته السياسية . وعواطفه الوطنية . استغفر الله فانه يجب عليّ ان لا اذكر « الوطن » بشئني اذ الوطن عندنا الدين . بل الدين عندنا فوق الوطن وفوق كل شيء

وعكذا بدل ان يقرم الشعب ويطلب اصلاحات اجتماعية كانشاء جمعيات لمساعدة الزراعة والصنّاع والعمال وفتح الترع لجرّ المياه للقول وانشاء المدارس لتعليم ابناء الامة ووضع نظمات جديدة لتقوية العائلة والسلطة الحاكمة ضد الرهبان الذين تقدّم ذكرهم ونقل معامل الفرس الى السلطنة او انشاء مثلها فيها — نراه اذا قالوا له مثلاً هذه قطعة من حذاء بولس او بطرس او هذا اثر من مريم المجدلية فانه ينسى كل تلك الاصلاحات وبيعهما كلها بهذا الاثر

فما اسهل ارضاء الشعب الديني اليها السادة

منها. ولذلك كان النزاع الشديد مستمراً بين الفريقين . وكثيرون من البطارقة والاساقفة انتصروا للامبراطرة على الرهبان لان الرهبان كانوا ينازعونهم كل سلطة وسيادة . وكان هؤلاء يفتنمون كل الفرص لرفع شأنهم لدى الشعب بالتزلف اليه واسقاط مزاحمتهم . ولما كانت تعود الصور والايقونات الى الكنائس كان شأنهم يرتفع عند الشعب ارتفاعاً عظيماً . وهكذا باغوا بسداجة الشعب اسمى درجات السلطة وطردوا باقي الاكليروس منها وصاروا مملكة في المملكة حتى ان الامبراطرة كانوا يضطرون للدفاع عنهم (١)

فماذا كانت نتيجة هذه التربية الرهبانية في المملكة انكم تستغربون ولا شك اذا علمتم ان قائداً من قواد السلطنة رفع الحصار عن مدينة كان محصراً في مقابلة اثر ديني اعطوه اياه (٢)

ولا ريب انكم تدهشون ايضاً اذا اخبرتم ان احد قواد الامبراطور موريس لما كان يوماً على وشك الدخول في قتال مع عدو له قبل المعركة اخذ يبكى حزناً على الدم الذي سيسفك فيها (٣) . ولست اجهل ان دموع هذا القائد جميلة للغاية لحبه الخير والسلام وكرهته للآثام . ولكن ما الحيلة . ان هذه العواطف لا تستحسن الا في الاديرة والمجالس الاديبة . لانه يجب على الجندي المدافع عن وطنه ان يحسن وظيفته اي يجب ان يحسن ان يكون شديداً فاسياً غليظ القلب والحسام . وبدون ذلك لا تثبت المملكة اذا كان امامها اعداء اقوياء ونهاية العجب والاستغراب ان امبراطوراً (٤) أهمل قواه البحرية لانهم اخبروه ان الله راضٍ عنه كل الرضى لغيرته على الكنيسة ولذلك فهو لا يسمح لاحد بمهاجمة مملكته . وهذا الامبراطور نفسه كان يقول انه يخشى ان يناقشه الله الحساب عن الزمن الذي يصرفه في تدبير سلطنته اذ يجب عليه صرف جميع اوقاته في الاهتمام بالشؤون الروحية (٥) هكذا كانت نتيجة السياسة حين مداخلتها في الدين . « فكان من اعظم اسباب مصائب اليونان جهلهم الحدود التي بين السلطة الاكليريكية والسلطة المدنية . ولذلك وقع الفريقان في اغلاط متواصلة . والفصل بين هاتين السلطتين الذي عليه بُني دعائم راحة الشعوب ليس اساسه الدين فقط ولكن اساسه ايضاً العقل والضعيفة . فانها يقضيان

١ « لما فتح كائنا كوزينوس القسطنطينية وجد الامبراطور حنا الامبراطورة حنة مشغولين بجميع ضد اعداء الرهبان . ولما حصرها محمد الفاتح بعد ذلك لبغتها كما تم له ذلك كان اهلها معتمدين بجميع فلورنسا اكثر من اهتمامهم بجيش الاتراك (مونتسكيو) ٢ مونتسكيو ٣ مونتسكيو ٤ هو اندرونيكوس باليولوغوس وقد رواه مونتسكيو ولكن بايت يقول ان آل باليولوغوس لم يهملوا بحريتهم واساطيلهم الا اعتماداً على بحرية المجنوبين محالينهم ٥ مونتسكيو

ولقد كنت أحب ان يكون الامبراطور جوستينيانوس حياً الآن ليرى الخطاء الذي ارتكبه في اثناء السامر بين في هذه البلاد (فلسطين) واضطهاد اليهود فيها اضطهاداً جعلهم اعداء لمملكته واطع منها هذا الجانب الذي دخلتم منه الى الشام وفلسطين مع انه كان من المصلحة تقويته (١) فانه حينئذ كان يعلم انه لم يكن بذلك الاضطهاد والقتل يزيد عدد المؤمنين بل كان ينقص عدد الرجال اللازم بقاؤهم واستمالهم للدفاع عن السلطنة ويرتبي في قلب السلطنة عدواً شديداً لها . — وهذا الامر لازم دائماً عن المظالم والاضطهادات الدينية ولو كان الخطب من هذا الوجه فقط لكان هيناً بل كان هنالك خطباً اشد . فان الاديرة غصت بالرهبان والشبان الهاربين من تنازع الحياة لان الرهبانية تضمن رزق الراهب وتعطيه السيادة بثمن بخس . ولرغبة الرهبانيات في السيادة المطلقة كانت تتخذ السياسة الدينية آلة للحاربة البطارقة والامبراطرة . والذي جعل لهم هذه القوة صرفهم الشعب الى ظاهر الدين عن باطنه وتحريضه على عبادة الصور والايقونات (٢) فشغف الشعب بهذه العبادة شغفاً مابعد شغف . وكلما قويت شهوته هذه زادت سلطة الرهبان عليه . وسواء كانت هذه العبادة عبادة او اكراماً فان الشعب انصرف اليها عن باطن الدين وصار عنده الفضل كل الفضل في تقديس الايقونات لا في فضائل النفس ومكارم الاخلاق . والذي زاد تمسك الشعب بهذا النوع من الظواهر الدينية انطباع البشر على حب الفنون وتمثيل هذه الفنون لهم الاشخاص والرجال الكرام الذين يحبونهم . فلما قام بعض الامبراطرة لمقاومة الايقونات والصور اعتبر الرهبان ان هذه المقاومة موجهة اليهم (٣) . وكان الامبراطرة ينسبون اولئك الرهبان الى « الوثنية » واولئك الرهبان يذنبون الامبراطرة الى السحر . وكانوا يشيرون الى الكنائس التي ازال منها الامبراطرة الصور والايقونات ويقولون لم ان حكاهم لم يفعلوا بها هكذا الا لكي يعبدوا فيها الشيطان (٤) فكان الشعب يهيج لذلك اشد هياج ويعتقد ان من واجباته خلع حكمه . ولم يكن هنالك ملوك يتخذون الطريق الوسط ويسكنونه بتخفيف استعمال الصور والايقونات بدل حذفها وازهار الغرض الحقيقي

١ « مونتيكيو . وقد نقل عن بروكوب المؤرخ اليوناني ان جوستينيانوس استاصل السامريين في فلسطين فصارت مقبرة بعدهم

٢ « بما اننا نتكلم هنا عن اسباب سقوط سلطنة بزنطية القديمة و الاسنانة ، فقد رأينا جميع كل تلك الاسباب في كلام الشيخ وان كان اكثرها متأخر اعته

٤ « مونتيكيو

٣ « مونتيكيو

الامبراطرة لاحد البطارقة : دبر انت الكنيسة ودعني ادبر سلطنتي . فاجابه البطريرك . هذا قول لم يسمع بمثله فانه بمثابة قول الجسد للنفس دعيني وشأني فاني غير محتاج الى مساعدتك (١) فنشأ عن هذا سعي البطارقة والامبراطرة في وضع العقول كلها في قالب واحد ليملأوها تعتقد اعتقاداً واحداً . وبما ان السلطنة كانت مؤلفة من عدة عناصر مختلفة الآراء والمشارب والمصالح فقد تحتم حدوث الشقاق فيها

فيومئذ قام آريوس بمجد لاهوت الكية والمكدونيون بمجدون لاهوت الروح القدس وقام النساطرة بنكرون اتحاد الطبيعتين في المسيح وأوتيشيوس بنكر الطبيعة البشرية في المسيح بعد التجسد والقائلون بالمشيئة الواحدة بنكرون المشيئة البشرية مع اعترافهم بالطبيعتين . فجمع الامبراطرة الحجامع للفصل في هذه المعتقدات فحكمت الحجامع برفضها ونبد اصحابها . ولكن بعض الامبراطرة كانوا يعودون الى بعضها فتعتقد رعيتهم فيهم الكفر فيقومون الى خلعتهم . ولما كان يثور الشعب عليهم كان الامبراطرة يلجئون الى الكنيسة . واتقرر انه في هذه الحالة من حق البطريرك الاذن في تسليمهم للشعب او حمايتهم منه . وعلى ذلك كان الامبراطرة تحت سلطة البطارقة (٢)

وكما كان الاضطراب من حيث الامبراطرة فقد كان من حيث البطارقة . فقد كان للبطريركية الواحدة ثلاثة بطارقة (الاول) البطريرك الذي يعزل لمقاومته الامبراطرة او الشعب . (والثاني) البطريرك الذي معين مكانه (والثالث) البطريرك الذي يرشح نفسه لان يكون بطريركاً . وكان لكل واحد من هؤلاء الثلاثة اعوان وانصار متخمسون . ولكل فريق منهم آراء ومصالح واهواء . فكانوا في اضطراب دائم . واضطرابهم هذا كان يلقى كل السلطنة لما بين السلطنتين من الاتصال (٣) كما تقدم

وبما لا يحتاج الى بيان ان الرغبة في توحيد المعتقد تؤدي الى اضطهاد المخالف في المعتقد . وهذا ما جعل بعض الامبراطرة يضطهدون الطوائف المخالفة لهم والتي عاشت قبل ذلك في ظل الرومان بكل حرية كالسامريين واليهود والمناشيين والسبتيين والمونثانيين والوثنيين الذين كانوا كثيرين في داخلية البلاد خصوصاً بين اهل الزراعة لاصرارهم على دينهم القديم .

١ « مونتسكيو الفيلسوف والشارع المشهور . ولكن هذا القول مناخر عن زمن الشيخ

٢ « مونتسكيو في كتابه اسباب عظمة الرومان واسباب سقوطهم •

٣ « مونتسكيو

ولما قام الامبراطور جوستينيانوس المشهور عدل عن السياسة اليونانية الى سياسة عمومية . فبدل ان يهتم ببلاده واهلها اليونان فيقوتها ويقومهم ويصلح شؤونها وشؤونهم انصرف الى اعادة السلطنة الرومانية الى ما كانت عليه من الاتساع . فبعث لاسترداد افريقيا من ايدي الفنداليين الذين انشؤوا فيها مملكة واسعة وناصب القوطيين الحرب في ايطاليا حتى مزقهم تمزيقاً . وكان ساعده في ذلك القائد بلنزار المشهور انيبال العصر الجديد . ولكن الامبراطور لم يستفد من ذلك كثيراً لان السلطنة كانت تُعجز عن حكم بلاد واسعة الاطراف الى هذا الحد . فكان كأنه افنى قواه في الغرب واهمل الشرق مع ان فيه حياة سلطنته . ولذلك كان يترضى الفرس بما يسكتهم ويلبهم عنه بينما البرابرة في شمال القارة الغربية يخرجون الولايات والهونيون يهاجمون حتى اسوار القسطنطينية (١)

هذا من جهة الخارج اما جهة الداخل فانه اضطهد العنصر اليوناني الذي هو قوة الامبراطورية وعضدها فقاوم المستغلين بالعلوم القديمة وحذف درس الفلسفة والحقوق في آثينا واوجب اتجاذا للغة اللاتينية لغة رسمية . هذا فضلاً عن نصيحته لكنيسة رومه الاستقلال الذي كان يطلبه بطاركة الشرق منذ القرن الرابع (٢)

وبعد وفاته ثار مغاربة افريقيا واستولى اللومبارديون على شمالي ايطاليا واستمروا يحاربونها الاستيلاء على شبه الجزيرة كلها . ثم تحرك الفرس يهددون حياة المملكة في آسيا والسلافيون يهددون حياتها في اوروبا . فلما قام الامبراطور هراقليوس كما تقدم الكلام وجد المملكة بين هذه الامم التي كانت تنازعها البقاء نزاعاً شديداً . وقد فصلت لكم ماذا فعل بالفرس وكيف سحق سلطنتهم . اما السلافيون فانهم لا يزالون يهاجمون سلطنته فن كل ما تقدم يظهر سببان عظيمان من اسباب ضعف السلطنة . « الاول » رغبتها في ان تحكم العالم اجمع ولذلك تنفي قواها عبثاً ولا تحسن حكم نفسها . « والثاني » اعداؤها المحيطون بها ينازعونها الحياة دائماً

ولكن هنالك سبب ثالث ربما كان اصل الاسباب كلها وهو المسالة الدينية . واريد بها مداخلة الدنيا بالدين والدين بالدنيا

واصل البلاء في هذه المسألة مداخلة الامبراطرة في شؤون الكنيسة لانه ذلك جرت بحكم الطبع مداخلة الكنيسة في شؤون الامبراطورية . وفي ذات يوم قال احد

١ باييت . وكل هذه التفاصيل له

٢ باييت

ثم التفت عمر الى الزحمان وقال (— سل الشيخ . فاذا كانت هذه قوة الملك وجنده يومئذ فما حلّ بتلك القوة . وقد سمعت ان الملك احتاج المال فاين ذهب بالغنائم التي غنمها جيشه من الفرس وهم مشهورون بالغنى والكنوز

فاجاب الشيخ اما الكنوز التي عاد بها من بلاد الفرس فانه دفعها كلها الى بطريك القسطنطينية وفاء للاموال التي اخذها منه لتعبئة الجيش والاتفاق على الحرب كما تقدم . وهذا ما اخطأ الجند والامة . وقد قال بعضهم ان ذلك حق لانه وفي ديننا عليه ولكن البعض الآخر يقول ان املاك واموال الاكليروس انما جمعت من الامة فاذا انفق في سبيل الامة كان اعتناقها في خير الوجه . فبدل اعادة تلك الاموال الى خزائن الاكليروس وجسها فيها كان يجب اصلاح احوال الامة بها

فقال عمر احسنت ايها الشيخ البهي

فاردف الشيخ بقوله . اما ضعف المملكة بعد تلك القوة فله اسباب عديدة . واذا شتم بسطت لكم تلك الاسباب كلها

فاجاب عمر تكلم ايها الشيخ

فقال الشيخ بعد ان تخرج والقي نظرة الى ايليا

لما تغلب قسطنطين الكبير على رومه نقل كرمي الملك الى بزنطيه (١) فانشرت الامبراطورية الرومانية الى شطرين : شرقي وهو هذا وغربي وهو شطر رومه . وبما ان العنصر اليوناني كان حفظ نفسه في المستعمرات الرومانية اثناء الحكم الروماني فقد تمت امبراطوريته الشرقية نمواً سريعاً . وكان سلاطين هذه الامبراطورية يسمون انفسهم « امبراطرة الرومان » ويعملون اللغة اللاتينية لغة رسمية الا ان السلطنة مع ذلك كانت يونانية في الباطن . وهذا ما كان من اسباب قوتها . وهكذا بينما كانت رومه والامم التابعة لها تتضع لملك القوط وتصير ائماً بربرية كانت سلطنة الشرق يتركها البيزنطي الجامع بين يونان الغرب ويونان الشرق زاوية زاهرة لا سلطة لاحد عليها

ولكن في مقابلة ذلك كان بين كنيسي رومه والقسطنطينية فرق كلي . فان الاولى كانت تهتم بالمسائل العملية المفيدة فائدة اجتماعية وتطبق عليها المبادئ الدينية . واما الثانية فانها انصرفت من سوء الحظ الى مجادلات عقيمة في لاهوت المسيح (٢) كما سيحي

(١) الاسنانة اليوم

٢ بايبس في تاريخ بزنطيه

معنا توافقي الامبراطور لرغبته في ان تكون اول من يسرد الصليب . وكان كسرى برويز قد نزل في قزكا من اعمال اتروباتينا (١) باربعين الف مقاتل وجعل باقي جنده تحت قيادة قائده الكبير سايس . فهاجما الامبراطور وهو في طريقه يخرب المدن والقرى ويجرفها . ولما بلغ قزكا فرّ كسرى من وجهه فدخل الامبراطور وهدم هيكل الشمس المشهور الذي كان فيها وحطم آلات صناعية كانت فيه تمثل انقضاء الصاعقة ونزول المطر . (٢) ولما خاف انضمام الاتراك الى الفرس تقرب الى " زيبيل " زعيم الترك فقابله في تفليس ووعده بان يزوجه ابنته . وبذلك جعل الاتراك من حزبه . وبعد ست سنوات من سفره اي في سنة ٦٢٨ وصل دستجرد عاصمة الفرس ففرّ كسرى منها ايضا فدخلها الامبراطور واحرق تلك العاصمة الفاخرة . وبذلك تضعفت مملكة الفرس فدبت بين اهلها عقارب الانحلال والفتنة . واصيب كسرى بمرض عضال فاوهى بالملك لاحد ابناؤه فقام عليه ابن آخر فاستأثر بالامر ومجن اباه وعذبه حتى مات . وكتب هذا الابن فصالح الامبراطور ومن ذلك الحين اشتغلت مملكة الفرس بفتنها واضطراباتها الداخلية

اما الصليب فقد كان مغربوكا في قزكا عاصمة عبادة النار وقد دلّ عليه القائد شهر باز . فلما وجده الامبراطور ودخل به الى القسطنطينية ظافرا ارتجت السلطنة من جهاتها الاربع . ثم جاء به بنفسه ونصبه هنا في الجبلجلة بيده

وكان الشيخ يتكلم والترجمان يترجم كلامه والحاضرون مصفون كأنّ على رؤوسهم الطير . وكان خالد بن الوليد اشدّ اهتماما بهذا الحديث لانه دخل بلاد الفرس وفتح كثيرا من بلداتها كما تقدم . فلما فرغ الشيخ من كلامه ووقف يستريح انحنى خالد نحو ابي عبيدة وقال له (— كان مثل الروم مثل كلاب الصيد فانها اصطادت لنا لاما . اذ بسحقها سلطنة كسرى سهلت علينا الاستيلاء على بلاد فارس . ولولا ذلك فرجا نعدّر علينا فتحها

فالتفت حينئذ الامام عمر الى خالد وقال (— لقد سمعناك يا خالد فاتق الله فان لا معين سواه

فسكت خالد ولم يبد جوابا

(١) هي اليوم توريس من اعلى اذربيجان . ومعنى اذربيجان بلاد النار وقد سميت كذلك لان الفرس كانوا يومئذ يضعون فيها اعظم نيرانهم التي كانوا يعبدونها — وقد خبئوا يومئذ الصليب في هذا الموضع

(٢) هذا يدل على ارتفاع الفنون عند الفرس يومئذ

الفرس يومئذ الى سوريا فاتحاً . وفي اثناء ذلك ظهر ضعف فوكاس وسخط عليه الناس فكانتوا رجلاً من اكبر قواد الجيش كان والي افريقيا ويدعى « هراقليوس » ان ياتي اليهم ليخلصوا فوكاس ويؤاوه . وكان لهذا الولي ابن يدعى ايضاً هراقليوس وابن اخ يدعى نيستاس . فجهز هراقليوس الابن اسطولاً عظيماً وحشد نيستاس جيشاً كبيراً واتفقا على الزحف الى القسطنطينية لاسقاط فوكاس . الاول بجراً والثاني براً عن طريق مصر وسوريا . وتعاهدا على ان الذي يسبق الى العاصمة تكون المملكة له . فسبق اليها هراقليوس الابن باسطوله فخلع فوكاس اعداؤه وقتلوه وولوا هراقليوس مكانه وهو الامبراطور الحاضر وما مرّت اربع سنوات على ملك الامبراطور حتى فتح الفرس سوريا ومصر واستولى قائدهم شهر باز الملقب « بالجاموس الملكي » على هذه المدينة (القدس) فاحرق كنيسة القيامة واخذ منها الصليب الحقيقي (١) . ثم اشتد الاضطراب في السلطنة وقام انصار فوكاس يطلبون ثأره وتوفيت زوجة الامبراطور فتزوج ثانية باخت زوجته خلافاً لنظام الكنيسة . وكان الامبراطور فقيراً لا يملك الا ينظم به امور ملكه . فيئس من هذا المصاعب وعزم على الالتجاء الى قرطجة (تونس اليوم) ليتخذها قاعدة لملكه بدل القسطنطينية استراحة من الفن . ولكن البطريرك سرجيوس شدّد عزائمّه واخذ الى كنيسة آجيا صوفيا واجبره فيها على ان يقسم بانه لا يترك العاصمة . فقوي عزم الامبراطور وبعث برسالة خصوصية الى ملك الفرس يجمّله فيها ويطلب منه الصليب ويسأله عقد الصلح . فاجابه كسرى برويز جواباً مهيناً ثارت له الامة كلها . ففتح البطريرك سرجيوس خزائن الكنيسة واخرج منها للامبراطور الاموال اللازمة لحشد الجند وتهاوت الناس من كل صوب على التطوّع في سبيل استرداد الصليب . وفي ثاني يوم من عيد الفصح سنة ٦٢٢ تناول الامبراطور سرّ القربان في حفلة رسمية حافلة وخرج من القسطنطينية بجيشه يطلب بلاد الفرس والحماس شديد في الامة . وقد نزل باسطوله وجيشه في عرصوص (قرب الاسكندرونه) وهو المكان الذي نزل فيه قبلاً اسكندر الكبير لما قصده داريوس . وقد احسن الامبراطور بهذا الاختيار لان المقاتل يستطيع من ذلك المكان اصابة سلطنة الفرس في قلبها

وكنّت يومئذ ايها الامير الجليل قائد مئة في هذا الجيش . فاجبرنا الفرس على الانسحاب من مصر وسوريا واخذنا نظاردهم من مكان الى مكان والنصر حليفنا . وكانت الامبراطورة

سليمان ليسمع منه اخبار المملكة وتفاصيل الحرب الكبرى التي قامت بين الامبراطور والفرس .
وان هذه خير فرصة لتفتن للتقرب من هؤلاء الفاتحين
فركب الشيخ سليمان مع ايليا وقصدا الجبل فوجدا الامام عمر والمسلمين ينتظرونهما
تحت الارزة

ولما وصل ايليا والشيخ سلم الشيخ باحترام على الامير فرد عليه الامير السلام
وحادثه هنيئة ثم طلب ان يرى المكان الذي رفع منه عيسى فذهب ايليا به وبجاشيته
الى هذا المكان . وبعد ان شاهده عادوا وجلسوا تحت الارزة
ولما اخذ كل واحد منهم مكانه قال الامام : ايها الشيخ قص علينا ما رايت به في تلك
الحروب الشديدة . وقبل ذلك اخبرنا عن اصل ملككم هرقل (١) فاني سمعت انه لم
يكن ابن ملك

فقال الشيخ . بل هو ابن امير ايها الامير . وقد نال المملكة بهيمته . وتفصيل
ذلك (٢) انه في زمن الامبراطور موريس حدثت ثورة في بلاد الفرس اضطرت ملكها
هرمز الى الفرار منها والاتجاء الى القسطنطينية . فاكرمه سلطانها موريس وامده بالجنود
فعاد هرمز الى كرسية . وملك باسم كسرى برونز (٣) وكانت الحروب يومئذ قائمة بين
الامبراطور موريس والتتر . وكان لدى ملك التتر الوف من اسرى الروم . فطلب ملك
التتر نصف دينار فدية كل اسير . وكان الامبراطور موريس مشهورا بالنجل مع شدة بأسه
فأبى دفع هذا المبالغ فقتل حينئذ ملك التتر اولئك الاسرى نكابة له . فلما علم الشعب
في القسطنطينية بذلك ثاروا على الامبراطور وخلعوه ولوا مكانه احد قواد الجند ويدعى
(فوكاس) (٤) فقبض فوكاس على موريس وابنتاه وقتلهم . فلما باغ هذا الامر الى مسامع
ملك الفرس غضب ونهض لمحاربة فوكاس . وذلك لسببين . الاول الانتقام منه لموريس
الذي احسن اليه والثاني لاغتنام هذه الفرصة وتوسيع املاكه . فدخل جيش

(١) في الاصل « هراقيوس » وهرقل مأخوذة من Eracle وهي اسمه مصغر تحبيبا

(٢) كل ما يرد في هذا الفصل عن لسان الشيخ ملخص من تاريخ بزنطية وان لم يوضع عليه نجمة

(٣) بسمه الانرج خسرو الثاني اي كسرى الثاني او « الملك العظيم »

(٤) هو المشهور في مصر بانه امر عامله فيها بمنع المصريين من تولي الوظائف الاميرية لتخصيصها
اليونان فثار لذلك المصريون بالاسكندرية بغريز اليهود على الاكثر فانقم الامبراطور من اليهود
بان اجبرهم على التنصر وعقد قسرا

واجتاز الامام المدينة بموكبه مع ايليا فاصدين جبل الزيتون . وكان الامير في طريقه
يعلن النظر في ما يبدو على المدينة واهلها ومنازلها من آثار البذخ والترف والجاه والثروة .
فلما صار خارج المدينة قال لايليا . يا ايليا هل لك ان نقص علينا شيئاً من اخبار مملكتكم
وفومكم خصوصاً حروبكم مع الفرس التي سمعتُ ببعضها . فاني ارى عندكم مملكة عظيمة
واما عديدة وجنداً كثيفاً ومدينة واسعة فماذا صنع ولاتكم الروم حتى نقاص هذا الظل
ودالت هذه الدولة

فسكت ايليا ولم يجب اولاً لانه وجد انه لا يلحق به الكلام بهذه الشؤون الداخلية
مع امير اجنبي لا يزال في حرب مع مملكته في جهات اخرى . ولكن لما آتته لدى
الامير من رقة الجانب والرفق ومكارم الاخلاق فضلاً عن معرفته ان هذا الفاتح الجديد
قد حل محل الفاتح القديم قد رأى انه لا يخطئ اذا اغتنم هذه الفرصة لخطبة وداد
رئيس الفتح الجديد وجر النفع لصاحبه الشيخ سليمان صاحب المزرعة . فاجاب الامير
قائلاً . اذا شاء الامير دللته على شيخ جليل شهد حرب الفرس بنفسه وزار القسطنطينية
ووقف على كل اخبارها فيستخير الامير منه ما يروم الوقوف عليه . فصاح الامام عمر :
احسنت يا ايليا . جثني بهذا الشيخ الذي شهد حروب الفرس فاننا ممن بكرمون الشيوخ
وهو خير المخبرين

الفصل الثاني والعشرون

حديث سياسي للشيخ سليمان

الامام عمر يصغي الى ترثمة الامبراطور هرقل وحروبه الكبرى مع الفرس
واسباب ضعف سلطنة القسطنطينية (بزنطية او الروم)

فاستاذن ايليا حينئذ واعمل المهام في شاكلة جواده فاصداً المزرعة وراء جبل
الزيتون بعد ان تواعدوا على الالتقاء تحت الارزة التي على الجبل .
ولا يقدر القلم على وصف السرور الذي حاق بالشيخ سليمان واهل المزرعة حين عوده
ايليا اليهم بعد ان يشوا من عودته كل تلك المدة الطويلة ولم يقفوا له على اثر مع كل بحثهم وتفنيشهم
وقد قصى ايليا على الشيخ سليمان كل ما جرى له منذ وقوعه اسيراً في ايدي العرب والتقاءه
باستير وايها وتركه اباهاً وشانها بعد التقائها بايها وفتح المدينة وطلب رئيس الفتح الشيخ

ونجبة من رجاله فاصداً كنيسة القيامة

ولما بلغوا باب الكنيسة وقف عمر وقال : الفاتحة ايها المؤمنون على ذكر سيدنا عيسى .
نفثع المسلمون ووقفوا يقرءون الفاتحة قبل دخولهم الباب . فنجب ايليا والقس رفيقه من
ذلك الخشوع في صلاتهم

ثم دخلوا الكنيسة حتى اتوا قبروا المسيح

فلما وقف عمر امام القبر حمد في مكانه وحمد المسلمون وراءه واخذوا يحدقون بالغرفة
المحيطة بالقبر . ثم طلب عمر الدخول الى الغرفة للتسليم على " روح الله " فدخل اليها مع
رجاله . ولما صار رئيس الاسلام المنظور في ذلك المكان الهادي ، الكريم المحاط بالاكرام
من كل جانب لانه ضم يوماً جسم رئيس المسيحية الغير المنظور دبّت فشريرة شديدة
في نفوس الحاضرين . وتحرّكت قلوبهم للصلاة في ذلك المكان . ولما فطن عمر الى غرضهم
تذكر طلب البطريرك فامرّع وقال : الفاتحة ايها المؤمنون . فقرءوا الفاتحة ثانية على قبر
المسيح بدل الصلاة . وبعد ذلك استلم (١) كل واحد منهم البلاط الرخامي الذي على
القبر ومسح وجهه وخرجوا . ولما صاروا بجانب باب الكنيسة الخارجى طأوع الامام نفسه
حينئذ على الصلاة فقال : الصلاة ايها المؤمنون . ففرشوا اريدتهم على الارض وركعوا
وراء الامام وصلوا هناك صلاة طويلة بخشوع يحق لجميع الامم ان يحسدهم عليه . وهذا
المكان هو الذي اقام فيه المسلمون بعد ذلك مسجداً تذكّراً لاصلاة الامام هذه وبذلك سوى
الامام عمر العادل بين الفريقين (٢)

ولما خرج الامام والمسلمون من كنيسة اقامة . قال الامام لايليا . ما اسمك ايها
الشاب . فاجاب ايليا : ايليا ايها الامير . فقال الامام اسم مبارك . يا ايليا ولئن
ابطايت على سيدك البترك دلنا على المكان الذي رُفع منه عيسى عليه السلام . فقال ايليا
هو على جبل الزيتون خارج المدينة ايها الامير . فقال الامير لرجاله هلموا بنا الى جبل الزيتون

١ في اللغة استلم الحجر الاسود اسمه اما بالنقبيل او باليد او مسحه بالكف من السلمة وهي الحجر وربما
استعمل في غير الحجر فيقال استلمت يده اذا مسحتها او قبلتها ومنه قول الفرزدق في الحسين
يكنى بمسكه عرفان راحته ركن المحطيم اذا ما جاء يستلم

٢ بعض قصاصي العرب يقولون ان الامام عمر والبطريرك اتفقا على ان يطلب البطريرك كنيسة
الحرم التي هي اليوم المسجد الاقصى ويعرض على العرب كنيسة القيامة وذلك لكي يرفض العرب ذلك
ويطلبوا عكسه ولكن هذه الرواية بعيدة التصديق لان عمر كان قادراً على حمل العرب بياسه على ما يريد
رغماً عنهم فلا حاجة لهذا التدبير

واستير يتدربان في حديث لطيف الى عواطفها القديمة خاف ان يعود ايليا الى استير ويضرب صفحا عن حالة ابوها . ولذلك ثار من ممكنه كذنب كاسر وقطع حديثها فلما رآه ايليا وسمع قوله ازداد وجهه اصفراراً فغضب وصاح به « ما شأنك يا ابله اذهب في سبيلك » .

فبهذا اخطاء ايليا خطاءً عظيماً لانه زاد رغبة المعنوه في الانتقام منه وايدائه ابعاداً له عن استير . فصاح ارميا بغضب شديد . اذا كنت انا ابله فانت كاذب لئيم لا تستحق شعرة من رأس هذه الفتاة . اسمي يا استير لا خبرك الحقيقة . ان هذا الشاب يحترق . وقد تركك لاعتقاده بانك ابنة جاسوس دفيء باع شرفه للعرب . وهذا ما فهمته منه يوم تركه معسكر العرب ودخله الى المدينة

فلما سمعت استير هذا الكلام صاحت صيحة من اعماق صدرها وسقطت مغشياً عليها فخرج الناس من خيامهم لهذا الصراخ واسرع ابو الفتاة على صوتها . ولما رآها في تلك الحالة نقلوها الى خيمة قريبة لمعالجتها وابوها يبكي ويسأل ماذا اصابها اما ايليا فانه كان في اشد حالات الاضطراب فطلب من رفيقه القس الترجمان ان يقبض على ارميا لمعاقبته على افترائه عليه . فتمأص ارميا من القس وصار يضربه ويهجم على الاثنين صائحاً يجنون . انا لست منكم . انا عرب عرب . لقد صرت مسلماً . . . دعوني وشأنني . . . فاني لا اعرفكم

ومن ذلك يظهر انه من أوّل يوم من ايام الفتح الاسلامي بداء في جسم السلطنة المسيحية في الشرق نوع جديد من الانحلال فيها كان يلجأ اليه كل مستاء منها . وكان هذا الاتجاه احياناً للانتصاف من ظلم واحياناً للفرار من حق كما صنع ارميا هنا

الفصل الحادي والعشرون

✽ في قبر المسيح ✽

وبعد صلاة الظهر استدعى الامام عمر رسول البطريرك . فاتي اليه بايليا . وكان ايليا حينئذ كاسف البال لحادثة استير . فقال له عمر : ياذا الشاب . دأنا على قبر عيسى عليه السلام وادخل معنا اليه لتكون دليلاً فيه . فامثل ايليا امر امير العرب وسار به

حواسه وانقدت النار في صدره ودماعه

فقدم ابوها مسرعاً الى الشاب وسلم عليه ببشاشة . فردّ ايليا سلامه بعبوسة لانه لم ينسَ انه كان جاسوساً وخدعه . وفي هذا الحين سمع ابو استير صياحاً فعلم انه صوت زوجته العجوز المقعدة وكانت ثناءً من مرضها فامسرع اليها . فبقيت استير مع ايليا وجهها لوجه فنقدت استير حينئذٍ نحو ايليا يبطء مترددة ولما صارت قريبة منه مدّت اليه يدها وقالت : هل يسمح لي كبيره ايليا ان اصافحه كما يتصافح العرب

فراهم ايليا الجواب ولكنه لم يقدر لشدة تاثره خصوصاً لما رآه على وجه استير من آثار الضعف والاصفرار والاعتلال . ولكنه جمع قواه بعد ذلك وصاح : ما بك يا سيدتي . فابتسمت استير ابتسامةً يسميها كتاب الافرنج « صفراوية » وقالت بين شفتيها بصوت منخفض « يساءلني ما بي كأنه لا يعلم ما بي » ثم اجابت ايليا « طراً اعتلال على صحتي يا كبيره ايليا . . . وانت كيف انت . . . اني اراك في صحة وعافية فيظهر ان هواء المدينة وافق مزاجك »

وقد قالت استير هذا القول متبهكةً لانها كانت ترى فحول ايليا واصفرار وجهه . فابتسم ايليا لهذا التهمك من استير واجاب « اشفي عليّ ايها السيدة لانني اشدّ اعتلاً منك » فسكت استير واطرقت . وبعد حين قالت بغتةً « يا كبيره ايليا لماذا ذهبت دون ان تودّعنا »

فسكت ايليا .

فقالت استير « كيف طاوعتك نفسك يا ايليا على تركي وحدي بين هؤلاء الافواه بعد ذهابك من المزرعة في طلبي . وماذا طراء عليك فغير عواطفك هذا التغيير »

فسكت ايليا ايضاً

غير انه رأى انه لا بدّ من الكلام ففكر في ماذا يقول واذا وجد ضالته اجاب متلجلجاً : ياسيدي اني بعد ان اطمان قلبي ووجدتك سالمة في حيّ العرب ذهب خوفي عليك واعدت قراءة كتابك الذي تعرفينه فرائت من واجباتي الابتعاد عنك امثالاً لارادتك ولكن ايليا لم ينطق بهذا الكلام حتى سمع صائحاً يصيح من وراء خيمة كانت قريبة منه ويقول بغضب « هذا كذب محض فلماذا لا نقول الصدق »

فالتفت ايليا واستير فابصرا ارميا

ذلك ان المعتوه كان مخبئاً وراء تلك الخيمة يسمع حديثها . فلما رأى ان ايليا

الاموال والنفائس فيكون لاهل المدينة عذر في نقض الصلح . فبينما كان عمر يستعد لصلاة الظهر في يوم الجمعة واذ قد وفد عليه رسول من قبل البطريرك ومعه القس الترجمان فادخلوها على عمر . وكان الشيخ ابواستير واقفاً مع استير في ذلك الحين بعيداً عن مضرب الامير في دائرة الحرم يريها حدود هيكلهم القديم . فلما مرَّ الرسول والترجمان من امامهما صاح استير وامتعق لونها . — ذلك لان هذا الرسول كان ايليا

ولكن ايليا لم ينتبه للفتاة وابيها فبقى داخلاً مع الترجمان على الامير عمر . ولما مثل بين يديه اخبره من قبل البطريرك بما قصده بعض فتحمسي العوام وساء له ان يوصي قومه بان لا يدعوا لهم سبيلاً الى ما يريدونه . فسرَّ عمر بصدق نصيحة البطريرك واوصى المسلمين في صلاة الجمعة بما اوصى . وبعد الصلاة ذهب ابو عبيدة يتجول بنفسه في الاسواق مع بعض رجاله . وكما وقعت انظارهم على الحلى والنفائس والنساء الحسنان كانوا يقولون : « الحمد لله الذي اورثنا ديار قوم لهم مثل هذا » * . وهكذا لم يلبس احد من المسلمين متاعاً لاحد من اهل المدينة . فلما سمع البطريرك بذلك قال « لا يقوى احد على هوءاء ما داموا على ما هم عليه من التزام الحق » (١)

وبعد ان ابانغ ايليا الامام عمر هذه الرسالة بقيت عليه رسالة اخرى تقتضي مقابلة الامير وحده . فاستأذن ايليا منه بالانفراد به فاذن عمر في ذلك . فلما صار ايليا امام الامير وحده قال له بلسان رفيقه الترجمان « انا موفد ايضاً من قبل البطريرك لاسألك الامير ماذا فعل بالرق الذي دفعه اليه » — فلما سمع عمر ذلك مدَّ يده الى ثيابه واخرج الرق وقال « اقريء البترك السلام وقل له ان هذا ما أتى اوانه بعد وربما عدنا اليه » فنناول ايليا الرق مخنوماً ووضعته في جيبه

ولما همَّ ايليا بالخروج من لدن الامير ليعود بالرق والجواب الى البطريرك قال له عمر : صبراً ايها الشاب فان لي اليك حاجة . فقال ايليا . انا طوعُ لامر الامير . فقال له الامير . تربص هنا الى ما بعد الصلاة فاخبرك عن حاجتي

فامتلأ ايليا امر عمر وخرج لينتظره خارج الخيمة . ولكن كان خارج الخيمة شخصان ينتظران ايليا ايضاً وهما استير وابوها فلما وقع نظر ايليا على استير من بعيد سرت في جسمه كبر بائسته القديمة . فتضعفت

١ معنى هذه العبارة منسوب في الوافدي لابي الجعيد . وهنا نعيد للمرة الثالثة قولنا ان الذي لا يوضع عليه علامة الخيمة فليس من التاريخ في شيء الا اذا نهبنا اليه

وجمهور المسلمين . وفي دخوله الى ذلك المكان قال « ارقبوا لي كعباً » * ثم قال « ايها الناس اصنعوا كما اصنع » * وبعد ذلك جثا الامام على تراب الارض واخذ فرجاً من فروج قبائه ووضع فيه التراب لينقله ويكشف عن آثار المكان * واذا به يسمع تكبير اصحابه وراءه * فقال ما هذا . فقالوا : كبر كعب وكبر الناس بتكبيره * فطلب كعباً فأتى به فسأله عن سبب تكبيره . فاجابه ان احد انبياء بني اسرائيل تنبأ منذ عدة قرون بما ينعله الامير الآن من اكرام هذا المكان بعد اهائه وكان عمر قد قصد بكشف التراب تخطيط جامع هناك فوق الصخرة (١) وهو المعروف اليوم بجامعه * فسأل كعباً « اين ترى ان نجعل المصلى » فاجاب كعب « الى الصخرة » فقال عمر « ضاهيت والله اليهودية يا كعب . وقد رأيتك وخلعت نعليك » فاجاب « احببت ان اباشره بقدمي » فقال عمر قد رأيتك . بل نجعل قبلته صدره كما جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلته مساجدنا صدورها . اذهب فاننا لم نوثر بالصخرة ولكن ائمرنا بالكعبة *

ومنذ هذا اليوم ارتفعت تحت سماء اورشليم جدران هيكل سليمان القديم الذي هدمته المسيحية لانه كان السبب في صلب صاحب شريعتها

وقد اقام عمر في بيت المقدس من يوم الاثنين الى يوم الجمعة * فلما كان يوم الجمعة كان عمر قد فرغ من تخطيط مسجده وعزم على الصلاة فيه بالمسلمين * فيظهر ان الروم بعد ان شاهدوا العرب من قريب ازدروا بهم واستضعفهم وندموا على مصالحتهم فتآمر بعض غلاتهم على نقض الصلح والهجوم على امراء المسلمين في يوم الجمعة في المدينة فاذا قبضوا عليهم او قتلهم بقي المسلمون بلا قواد فيضعف امرهم وتنفرك كلمتهم (٢) فلما علم البطرك بهذه المؤامرة غضب وبعث يُنذر المحرضين عليها بسوء المنقلب اذا خانوا العهد . فبدا هؤلاء المحرضين امر آخر وهو انهم اوعزوا الى فريق من اهل المدينة ان يبدوا زيناتهم واموالهم ويخرجوا الحسان الى الاسواق والشوارع لعل العرب يمدحون ايديهم الى تلك

١ اخضعوا في اصل الصخرة . على ان في جهات شرقي الاردن على الخصوص آثاراً من قبل النارنج هي عبارة عن حجرين مستطليين قائمين عودياً وفوقهما حجر مستطيل ايضاً قائم افقياً . وبعضهم يقول ان هذه الآثار الحجرية كانت قبوراً بدليل وجود عظام في ارضها وبعضهم يقول بل انها مذابح كانت تُقدَّم عليها الذبائح قبل النارنج . ويسندون على هذا بان الحجر الافقي الممدود على الحجرين العموديين متعرج ومائل قليلاً ليجري عنه السيلال دم الذبيحة . وربما كان بنو اسرائيل يقدمون الذبائح عليها للرب في الزمن القديم . والصخرة الحالية هي على الارحج احدها . وقد كانت جزءاً من هيكل سليمان القديم « رنه دوسو »

٢ لم نرى في غير الواقدي اثرًا لهذا الغدر وبالعامة مشهورة

الناس يسترقون النظر اليهم من النوافذ . وكان الشيخ ابو استير معهم في دخولهم ليدلهم فيها وامامه حمار عليه زوجته العجوز وابنته استير وهي تكاد لا تستطيع الاستواء على مطيئها من الضعف والاعتلال

ومما لا يحتاج الى بيان ان ارميا كان وراء مطيئها بجانب ابياها ولما صار عمر ورجاله في المدينة اخذهم الشيخ الى دائرة الحرم الحالية . فلما اشرفوا على هذا المكان الذي فيه المسجد الأقصى وبیت المقدس هلموا وكبروا . وكان بيت المقدس (١) مدفوناً بالتراب وفضلات المنازل ولم يكن ظاهراً منه غير الجدار الذي في زاوية سور الحرم الى الجنوب الغربي وهو من آثار هيرودوس الكبير * ولا يزال الى اليوم مناحة الامرائيليين كما تقدم في موضع آخر

فترجل عمر ورجاله ودخلوا دائرة بيت المقدس * ولم يلبث ان بزغ الفجر فصلوا فيها صلاة الفجر *

وماكاد عمر يصلي صلاة الفجر حتى قيل له ان رجلاً من اعيان الاسرائيليين قد وفد من احد بلدان فلسطين يريد لقاء الامام * ثم ادخل عليه كعب الاحبار * فسلم كعب * فردّ عمر السلام وقال له « من انت » * فاجاب الرجل « انا كعب الاحبار واني جئت اريد الاسلام والدخول فيه » * فقال عمر « احقاً ما تقول يا كعب » * قال « الله يسمع ما اقول ويعلم ما تخفي الصدور . لكن يا امير المؤمنين هل ورد في كتابكم الذي انزل عليكم في امر دينكم ذكر ابراهيم » * فقال عمر نعم وقراء له الآيات التي ذكر فيها ابراهيم . منها « ام كتبه شهداء اذ حضر يعقوب الموت اذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد الهك واله آباءك ابراهيم واسماعيل واسحق الهاً واحداً ونحن له مسلمون » فاسلم حينئذ كعب وفرح المسلمون باسلامه *

اما ابو استير فانه اضطرب لاسلام كعب وقال في نفسه : اننا لا نستفيد شيئاً اذا كانت امتنا ستضع في الاسلام كما تضيع جرة ماء في البحر . وهيكلنا سينتقل من يد عدو قديم الى يد عدو جديد

ولما اشرفت الشمس سأل عمر عن « بيت المقدس » (٢) وذهب اليه مع كعب الاحبار

١ اي هيكل سليمان القديم

٢ هيكل اليهود القديم كما تقدم والراجع ان هذا المكان هو مكان جامع عمر اليوم او هذا لجامع قسم منه واما المسجد الأقصى فهو بجانبه وكان يوم النسخ الاسلامي كنيسة للعداء بناها الامبراطور جوستينيانوس

فصاحت استير ولماذا لم تخبرني بذلك قبل الآن . فاجاب ارميا وقد استشاط غضباً :
لأنك لم تساليني عنه . وما اهمية رحيله فان الارض لا تزال ارضاً
نعم يا ارميا ان الارض عندك لا تزال ارضاً لم تتغير ولم تبدل ولكن قلب استير
كان قد تغير وتبدل . وليس شيء كالجفاء يغير قلوب النساء . فان استير مع حبها لايليا
في ما سبق قد قدرت على فراقه في المزرعة فراراً منه وقد شعرت يومئذ انها بفعلها هذا قد
فعلت فعلاً جميلاً سامياً لان ذكر « واجباتها لدين آباءها ولائها » كان يعزيها عن كل
شيء . ولكن لما تركها ايليا وذهب عنها تغير وجه المساءلة عندها . فان هذا الجفاء منه
احدث في نفسها حدثين عظيمين : الاول انه زاد حبها له وهذا شأن الجفاء على الدوام .
والثاني انه جرح كبرياءها وانانيتها جرحاً بليغاً . ولهذين السببين صارت استير لا تطيق
ترك ايليا قبل معرفة سبب جفائه هذا

ومنذ هذا اليوم بداءت استير تلخل وتذبل كزهرة انقطعت عنها مادة حياتها . وصارت
تذهب في كل يوم الى طريق المدينة مع ابوها لعلها تجد ايليا راجعاً . وكان يذهب اكثر
الليل وهي قاعدة في فراشها واذا نامت قبيل الصباح قليلاً فان صورة ايليا كانت تطاردها
في رقادها . وكان يتمثل لها ايليا في احلامها هذه غاضباً عليها معرضاً عنها فتنابه باكية
مذعورة وتبقى النهار كله منكورة متألماً

فلما مضت على استير بضعة ايام على هذا المنوال هزلت وانقلب لونها الوردي الى
الاصفرار وقل طعامها . فخرج عليها ابوها وامها جزعاً شديداً . ولكنهما لم يقفيا على سبب
عائتها لان الآباء والامهات قلما يقننون على امثال هذه العلل
وفي اثناء ذلك اشتد اتحاسد عليها بين ضرار وعمرو بن معدي كرب واغتاضت استير
من تعرضها لها فعزم ابوها على الرحيل بها عن معسكر العرب . الا ان استير رفضت السفر
لغير المدينة المقدسة واقعت امها العجوز المتدنية بالاقامة لحضور الحفلة الكبرى التي سيقومها
العرب لاعادة بناء هيكل اليهود القديم . فتمسكت العجوز بهذا المطلب لانه كان من اقصى
امانيها كما تقدم

وكان اليوم الذي تم فيه عقد الصلح يوم احد من شهر اذار * ففي مساء اليوم التالي
وهو يوم الاثنين عزم الامام عمر على دخول المدينة لتخطيط مسجد فيها * فركب في نخبة
من امراء المسلمين واعيانهم ودخل الى المدينة ليلاً * فاضطربت المدينة لدخولهم وصار

لكن قبل رحيلك ينبغي ان تدخل معنا غداً الى بيت المقدس لتكون دليلنا فيها
ثم ذهب ابو عبيدة وهمس بضع كلمات في اذن عمر . فانفض الامام راسه وقال
« انهن فتنة للعالمين » . وبعد ذلك دفع ابو عبيدة « الرق السري » الى الشيخ وقال له .
ترجم لنا هذا الرق واكتب ترجمته على رق آخر وادفعها لنا ثم عد من حيث اتيت
فاطاع الشيخ وفعل ذلك ثم عاد مسروراً بانه سينقذ ابنته من نخلي اسدين
ولكن الشيخ كان يتساءل وهو خارج من خيمة الامام بقوله : ترى من هو صاحب هذا
الاقتراح الغريب الذي يسقط آمالنا في مملكتنا . وبقي يفكر في ذلك طول الطريق
اما عمر فبعد خروج الشيخ تناول ترجمة الرق باهتمام وصار يتلوها . وكان تارة
يتسم في اثناء تلاوتها وطوراً يعبس . ولما اتى عليها اعاد النظر فيها . ثم بعد فراغه منها
القاهها الى ابي عبيدة وهو يتسم فتلاها ابو عبيدة ثم نظر الى عمر مدهوشاً . فضحك عمر
وقال : مرق الترجمة يا عامر وسأورد الاصل الى صاحبه

وبما اننا قد عدنا الى استير بعد التفاصيل الطويلة التي تقدمت فيجب ان نذكر ما
جرى لها بعد دخول ايليا الى المدينة
بقيت استير تنتظر ايليا في ذلك النهار حتى جنّ الليل . ولما ابطأ ظنّت انه ذهب
الى خيمة الامير عمرو بن معدي كرب حسبما طلب الامير . فنامت تلك الليلة مضطربة .
وقد رأت في الحلم في تلك الليلة ان ايليا جاثٍ امامها يعيد لها التصريح بحبه . فانتهت في
الصباح وقد زاد حبّها له
لكن في الصباح لم يأت ايليا
فلما تعالت الشمس ولم يأت ايليا ايضاً ازداد قلق استير . وكان ارميا يكثر التردد
عليها وينظر اليها نظرات خصوصية لم تفهم معناها . وكان كأنه يقول لها بتلك النظرات
« لقد ابعده عنك الى الابد » . فلما انتصف النهار ولم يأت ايليا ايضاً قالت استير
لارميا . يا كيريه ارميا اين ذهب كيريه ايليا هل بات الليلة عند عمرو بن معدي كرب .
فابتسم حينئذ ارميا ابتسامة شيطانية وقال : كلا ايها السيدة : ان كيريه ايليا قد رحل
الى المدينة

فاجفلت استير لهذا الكلام . وشعر ارميا بيفتنها فقال ليجهز على آمالها : والارجح عندي
ايتها السيدة انه لا يعود لانه ودّعني وداع فراق طويل

الفصل العشرون

﴿في حيزهيكسل سليمان القديم﴾

(المسجد الاقصى - عود الى اسنير)

ترجمة الرق السري . الحجاب عليه بانسامة . عودة الى اسنير بعد رحيل ايليا . تخاضم ضرار وابن معدي كرب فيها . في دائرة الهيكل . كعب الاحبار واسلامه . مراقبة عمرك . رسول البطريك الى عمر . بين اسنير وايليا . ارميا يضرب ضربة ثانية

وينا كان البطريك يتلو صورة العهد الذي ارسله عمر اليه ويتأمل فيه وفي قوله « ان يخرجوا الروم » كان عمر منفرداً بابي عبيدة يسأله ترجماناً لترجمة ما في الرق الذي دفعه البطريك اليه . فقال ابو عبيدة : العجب من انه لم يعهد البتة الى ترجمانه ترجمته لامير المؤمنين . فقال عمر : لعله يا عامر يكره ان يعلم به احد من قومه فهاث من يترجمه لنا . فبعث ابو عبيدة في طلب اليهودي يوسف

فلما وفد الشيخ ابو اسنير كان مضطرباً دامع العين . فسأله ابو عبيدة عن سبب بكائه . فاشتد بكاءه واجاب انه رام الرحيل بعلته منذ مدة لمعالجة اعتلاله لم يلبثه فخالوا دون سفره . فسأله ابو عبيدة : ومن حال دون سفرك . فسكت يوسف وكان الامام عمر يسمع الحديث فقال دون ان يلتفت الى يوسف : ياذا الرجل قل من حال دون سفرك

فاجاب الشيخ : ضرار وابن معدي كرب

فاصلح عمر جلوسه في مقعده وقال : ما ترب لا حفاوة . ثم قال مخاطباً ابا عبيدة . يا عامر انظر في امر الرجل فاني ارى هنا ظلامة

فانفرد ابو عبيدة بالشيخ واستخبره الخبر . فعلم منه ان ضراراً وعمراً بن معدي كرب قد تبارزا في ذلك الصباح وكاد يجري دم احدهما لولا دخول بعض المسلمين بينهما . وسبب ذلك ان عمراً بن معدي كرب كان يطلب نقل الشيخ ابي اسنير الى خيمته من خيمة ضرار وضرار يابئ ذلك . فسأله ابو عبيدة الشيخ : وانت سيفي اي الخيمتين تريد الاقامة . فاجاب الشيخ مضطرباً . اما انا فاني استأذن في السفر ايها الامير فان ابنتي في اعتلال شديد وقد سهرت طول الليلة عليها . فقال ابو عبيدة . متى شئت فارحل واذا منعك احد فاخبرني

معسكر المسلمين . فام تقبلهما المسلمون بهتاف طبق السماء ابتهاجاً بفتح المدينة . وقبل الظهر كتب الامام عمر عهد الصلح وارسله مع احد رجاله الى البطريرك وهذه صورته (١)

بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما اعطى عبد الله عمر امير المؤمنين اهل ايلياء من الامان اعطاهم اماناً لانفسهم واموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيها وبريها وسائر ملتها انه لا تُسكن كنائسهم ولا يهدم ولا ينقص منها ولا من حيزها ولا من حلبيهم ولا من شي من اموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار احد منهم ولا يسكن بايلياء معهم احد من اليهود . وعلى اهل ايلياء ان يعطوا الجزية كما يعطي اهل المدائن وعليهم ان يخرجوا منها الروم (٢) واللصوص فمن خرج منهم فهو آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا ماء منهم ومن كان بها من اهل الارض قبل مقتل فلان (كذا) فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على اهل ايلياء من الجزية ومن شاء سارع الروم ومن شاء رجع الى اهلهم . فانه لا يؤخذ منهم شيء حتى يُحصّد حصادهم . وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين اذا اعطوا الذي عليهم من الجزية . شهد على ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن ابي سفيان . وكتب وحضر سنة ١٥

فيا اورشليم استعدي فهذا عنصر جديد قد انضم الى عناصرك . وكل محب للشرق يتحنى لولم يكن هذا الانضمام لانه سيجر على الشرق كله وبلاات هائلة (٣) سيما في يوم يا اورشليم الجميلة ينسى فيه هذا العهد العمري فتشتد دواعي الجهل والبغض بين عناصرك . وحينئذ يختل ميزان العدل بين الناس وينشوا الاضطهاد فيتخذ الغرب هذا الامر حجة للزحف على شرقك رغبة في استخلاصك . حينئذ تقوم حرب هائلة بين الشرق والغرب . وهي الحروب التي سيسمونها حروباً صليبية . وستجني هذه الحروب يا اورشليم على الشرق جناية هائلة لانها ستكون من اسباب زوال مدينته العظمى وانتقالها الى الامم الغربية وزيادة الاحقاد بين العناصر البشرية زيادة تشوه واسفاه وجه الانسانية

(١) كما رواه الطبري (٢) اي اليونان وهذا القول يدل على ابلغ دلالة على صحة استدلالنا السابق من ان العرب في زحفهم لفتح الشام كانوا مسلمين للامة السوربة اي اهالي الشام ولم يكونوا معادين الا للروم « اليونان » ورو سائهم (٣) هذا الراي جدير بالاعتبار اذ لولا الرغبة في استخلاص قبر المسيح لما تمكّن روماء الغرب من اثاره نفوس العوام والمجنود في اوربا لسوقهم على الشرق

الاسكندر الكأس في يد وناوله الكتاب في يد اخرى . ثم شرب الكأس قبل ان يقرأ طيبه ذلك الكتاب * فالملو رخون والكاتب يهتفون متاف الدمشة حين وقوفهم على هذا الامر اعجاباً بثقة الاسكندر وشجاعته ويقولون انه لا يصدر الا عن نفس عظيمة كنفس الاسكندر . - قلنا ولكن صنع عمر هذا ليس باقل من صنع الاسكندر وكانت الغرفة التي اجتمع فيها عمر والبطريق بجانب باب السور . ولم يكن معها غير القس ترجمان البطريق

فقال الامير بعد جلوسه موجهاً السؤال الى الترجمان ماذا يريد البترك فاجاب البطريق : اريد قبل كل شيء صداقة امير مثلك . فاننا نحن معاشر رؤساء الام تجمعنا جامعة الرئاسة وان فرقت بيننا المذاهب . وكلنا نعبد الها واحداً لا اله الا هو ولا شريك له وعلينا تدبير نفوس رعايانا لابقائها في سبيل الفضيلة والخير . فاذا اختلفنا في الجزئيات والظواهر فنحن متفقون في الكليات والبواطن . فعلينا اذاً ان ننظر الى ما يجمعنا لا الى ما يفرقنا . ولذلك اطلب من الامير ثلاثة امور . الاول ان يكتب لنا عهداً بالصلح نحفظه عندنا للمستقبل . والثاني ان بوصي رجاله بان لا يتعرضوا لاحد منا في دينه . والثالث ان لا يصلي بجانب قبر المسيح في كنيستنا الكبرى لانه يعلم انه اذا صلى هناك طلب المسلمون جعل المكان مسجداً

فلما ترجم هذا الكلام للامير اطرق ثم قال . هذا كل ما يريد البترك . فقبل له نعم : فتمض عمر ووضع يده في يد البطريق وقال : نحن كما قلت . اما العهد فساكتبه الساعة وارسله اليك . ولولا رغبتى في ان يشهد عليه شهود من المسلمين لثلاث يشته به في ما ياتي من الزمن لكتبته الآن . واما الوصية فوالله الذي نفس عمر في يده انكم لا تجدون احداً منا يعتدي على احد منكم بغيًا وظلمًا . وعندنا « لا اكراه في الدين » . واما الصلاة بجانب قبر عيسى عليه السلام فساء فعل ما ذكرت لانني اشد رغبةً منكم في اجتناب النزاع على قبر عيسى في مستقبل الزمان وانتم احق منا به

ثم هم الامير بالخروج فمد البطريق يده الى جيبه وتناول منها رقاً مطويًا . ثم ناوله للامير يدًا بيد وقال للترجمان : اخبره ان هذا الرق مكتوب بلغتنا وفيه امر سري لا احب ان يعلم احد انني صاحبه . فليمن فيه النظر ثم يعيده الي غداً او بعده فاخذ الامام عمر الرق ووضع في ثيابه ثم خرج مودعاً . ولما ظهر الامام لابي عبيدة من الباب تنفس ابو عبيدة الصعداء وحمد الله على سلامته . ثم سارا معاً عائدين الى

فاحتى البطريق رأسه مسأماً ونادى من اعلى السور : افتحوا الباب للامير فلم يفهم عمر كلام البطريق ولكنه لم يلبث ان ابصر الباب يفتح في وجهه وخرج الناس منه * « فتواضع عمر حينئذ لله وخرّ ساجداً على قنب بعيره » * ثم نزل ملافاة البطريق اذ علموه انه قادم لاستقباله

وبعد دقيقتين ظهر البطريق صفرونيوس في الباب ومعه قس من اخصائه يعرف العربية ليترجم له . فلما رآه عمر وابو عبيدة تقدم الاول وتحنى الثاني وكانت الاسوار حينئذ غاصة بالناس وهم يتطأون ليشاهدوا ملتقى عميدي المسيحية والاسلام وكان على رؤوسهم الطير

اما قبائل العرب من بعيد فانها كانت تهال وتكبر ابتهاجاً بفتح بلد عيسى وموطن الانبياء ولما دنا عمر من البطريق مدّ البطريق اليه يده مصافحاً فدّ عمر يده اليه . وكان البطريق ينظر في وجه عمر وعمر ينظر في وجه البطريق . فيظهر ان نفسيهما اتفقتا لاول نظرة لان النفوس الكبيرة تتعارف حين التقائها بالنظر كما يتعارف باقي الناس بالكلام . فابتدأ البطريق الحديث بقوله : لقد طلبت ان يكون الامير الكريم متولي عقد الصلح بيننا لانني اذا وضعت هذه المدينة المقدسة في عهده وذمته خاصة اكون في امن عليها وعلى اهلها من كل وجه : وانا الآن التي مفااتيها اليه

فلما ترجم الترجمان هذا الكلام لعمر اشار عمر برأسه موافقاً على كلام البطريق واجاب : المسلم من حفظ العهد ورعى الود . ونحن جميعاً عباد الله فعلينا ان نكفل بعضنا بعضاً فسرّ البطريق بهذا الجواب . وعلم انه وضع ثقته في من هو اهل لكل ثقة . فطلب من الامير ان يدخل معه الى غرفة قرب باب السور ليخلو به فيها بضع دقائق . فلم يتردد الامير في الدخول بل مدّ رجله وتخطى عتبة الباب . فلما رآه ابو عبيدة بضع قدمه في تلك المدينة المدججة بالسلاح ليدخل اليها وحده اصفر وجهه خوفاً عليه . وكان البطريق قد تدبّر لذلك من تلقاء نفسه . فانه لما رأى اصفرار وجه ابي عبيدة تألم مع سوء الظن ووقف ممتنعاً عن الدخول بالامير . ففهم حينئذ عمر ذلك فنظر الى ابي عبيدة وابتمسم ابتسامة تائيب ثم دخل مع البطريق

يروى في التاريخ القديم ان اسكندر الكبير كان يثق بطبيب له كل الثقة . ففي ذات يوم وردته كتاب فحواه رائحة هذا الطبيب عازم على تسميته . واتفق ان الاسكندر فرغ من تلاوة هذا الكتاب حين دخول طبيبه عليه يحمل له كأس دواء . فتناول

ابو عبيدة وابلغ الواقفين على الاسوار هذا الخبر . فذهبوا واعلموا البطريق «نفرج البطريق من كنيسته وعليه المسوح وترجل الرهبان والقسس والاساقفة معه وقد حمل بين يديه صليب لا يخرجونه الا في عيدهم وسار معه والى المدينة وهو يقول للبطريق . يا ابا ان كنت تعرفه معرفة حقيقية والا فلا تفتح له ودعنا وهو لاء العرب فاما ان نبيدهم واما ان يبيدوننا » * فاجابه البطريق (- يا ولدي . ان ولدنا ايليا الذي تعرفه كان يطوف امس على الاسوار فابصر الفارس الذي ذكره لنا وهو ابن معدي كرب فارسل اليه هذا الفارس نبلة وقد ربط بها كتابا فيه ثلاث كلمات باللغة اليونانية وهي هذه « لقد وفد عمر » ولست اشك في صدق هذا الرجل بعد ما بلغني عنه . وفضلا عن ذلك فان ولدنا يوحنا الغساني يعرف الامير لان بعض عرب المدينة وصفوه له . فقال والي وباصفته . فقال البطريق : هو في الخامسة والخمسين من العمر (١) اصلع طويل بظهر اطوله كانه راكب . ايض اشيب ابيض (اي شديد البياض) تعلوه حمرة وهو يصفر لحيته ويرجل رأسه » (٢)

فلما اشرف البطريق ورجاله على ابي عبيدة من عن السور قال البطريق « ما تشاء ايها الشيخ الباهي » * فاجاب ابو عبيدة « هذا امير المؤمنين عمر وليس عليه امير قد اتى فاخرجوا اليه واعقدوا معه الامان » * فقال البطريق « يا ذا الرجل ان كان صاحبك الذي ليس عليه امير قد اتى فدعه يدنونا » * واقرأه عني السلام (- وفل له انني احب مقابلاته فاستغرب ابو عبيدة هذه اللهجة الودادية الجديدة . فعاد الى عمر وابلغه جواب البطريق ولكنه لم يبلغه سلامه الا همسا في اذنه . فاطرق عمر ثم هم بالقيام » * فقال له اصحابه يا امير المؤمنين . اتخرج اليهم منفردا وليس عليك آلة حرب غير هذه المرفعة وانا نخشى عليك منهم غدرًا او مكرًا فينالون منك » * فلم يجب عمر ولكنه قرأ الآية * « قل ان يصيبنا الا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتكلم المؤمنون » ثم استوى على بعيده وعليه مرفقته « وعلى راسه قطعة عباء قطوانية وقد عصب بها راسه وليس معه الا ابو عبيدة وهو سائر بين يديه حتى قرب من السور ووقف بازاء السور والبطريق والوالي » *

وكان يوحنا الغساني بالذي تقدم ذكره واقفا وراءها

فلما دنا عمر من السور ووقع نظر يوحنا عليه همس يوحنا في اذن البطريق والوالي قائلاً :
وحياة العذراء مريم هذا هو

١ كان عمر يوم وفاته اي بعد ثمانى سنوات من هذا التاريخ ٦٣ سنة برواية ابن الاثير

٢ ابن الاثير

والقصور وصنع الزخارف وحشد الجنود واقامة المعامل التي تشقى فيها فئة من البشر لتسعد بها فئة اخرى - الارضاء لكبريائه . ففى محبت هذه الكلمة « الكبرياء » من قواميس البشر ومن نفوسهم فحينئذ تصبح الارض مكاناً طيباً ويبطل اصل الفساد فيها . حينئذ لا يعود فيها سيد ومسود . وعبد وحر . وكبير وصغير . وغني وفقير . بل يكون الجميع اخوة فى الانتفاع والدعة والسذاجة ومكارم الاخلاق كما يكون الاولاد فى طور سذاجتهم . فلنخفض هنا رؤوسنا احتراماً للإمام الجليل الذي رام بتلك الحركة الجميلة سحق انبي الكبرياء فى نفسه ونفس امته . ولنؤاخذ بين هذه الحركة الجميلة وقول كتاب المسيحيين « ان لم ترجعوا وتصيروا كالاولاد فلا تدخلوا ملكوت السموات » - فان هذه بمعنى تلك وتلك بمعنى هذه

الفصل التاسع عشر

✽ بين الامام عمر والبطيرك صفرونيوس ✽

(فتح المدينة صلحاً)

معرفة البطيرك عمر من صفته . فى ان نفس الاسكندر لم تكن اكبر من نفس عمر .
حديث سرى بين الامام والبطيرك . الرق السرى . صورة العهد .
فتح العرب اورشليم كان بلاء على الشرق كله

ثم سار عمر من الجابية وحوله امراء المسلمين وما زال سائرا حتى اشرف على معسكر الجند وبيت المقدس . فلما ظهرت له المدينة صاح « الله اكبر الهم » افتح لنا فتحاً يسيراً واجعل لنا من لدنك سلطاناً نصيراً » * وما اشرف عمر بموكبه على المعسكر حتى قامت العشاير والقبائل على ساق وقدم وهرعت لاستنقباله بالتهليل والتكبير * فارتجت الارض واشرف اهل المدينة من عن الاسوار ليعلموا سبب تلك الضجة الهائلة . ولما علموا بمقدم عمر ذهب احدهم واخبر البطيرك « فاطرق البطيرك ولم يتكلم » * اما عمر فانه نزل فى خيمة من شعر * ضربت له بجانب خيمة ابى عبيدة * « فجلس فيها هناك على التراب . ثم قام يصلى اربع ركعات » *

وبات العرب تلك الليلة فرحين بمقدم اميرهم وخليفتهم . فلما كان الغد وصلى عمر صلاة الفجر قال لابي عبيدة « يا عامر تقدم الى القوم واعلمهم انى قد اتيت » * فذهب

امير المؤمنين ورايه الموفقى ان شاء الله في اسعاد احوال فقراء المسلمين . فان المسلمين اخوة
وهم بعضهم لبعض كالبناء المخصوص . لا كالروم الذين يتمتع اغنياءهم ببلاد الدنيا ويتركون
فقراءهم كالكلاب «

ولكن ابا عبيدة كان يجهل وبالا لاسف ان « ما حل » بالروم في مدينتهم الواسعة سيجل
بالمسلمين ايضا عند اتساع مدينتهم ويقوم يومئذ « حق الملائكة (١) المطلق » الذي عليه
مدار المعاملات في هذا العصر مقام كل شيء

ولما هم « عمر بالرحيل الى معسكر المسلمين قرب بيت المقدس وهو على بعيره وعليه مرقعته
قال له بعض الامراء « يا امير المؤمنين لوركت بدل بعيرك جواداً ولبست ثياباً
يضاً » * لاستقبال الروم بها . فاجابهم عمر الى ذلك « فلبس ثياباً مصنوعة في مصر تساوي
خمسة عشر درهماً (٢) وطرح على عاتقه منديلاً من كتان ليس جديداً ولا بالخلق دفعه
اليه ابو عبيدة وقدم اليه برذون اشهب من براذين الروم » * فلما صار عمر على ظهر
البرذون صار البرذون يهملج به ويهملج ويختال فامسرع عمر الى النزول عنه وضرب وجه البرذون
وقال « لا اعلم من عاتك هذه الخيلاء » (٣) ثم التفت الى اصحابه وقال « افيلوا عثرتي
اقال الله عثرتكم يوم القيامة فقد كاد اميركم ان يهلك بما دخل قلبي من العجب والكبر واني
سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من
الكبر ولقد كاد ان يهلكني ثوبكم الايض وبرذونكم الملعج » * ثم ان عمر خلع الثوب
الايض وعاد الى مرقعته وبعيره

فيا لجمال هذه الحركة التي نبذ بها عمر الثوب المصري الايض ليعود الى لبس المرقعة
الصوفية وابعده الفرس المختال ليعود الى البعير الذلول المتضع . وربما يظهر ذلك لانباء هذا
العصر حتى المسلمين انفسهم امرأ غريباً صغيراً ولكن الذين يعرفون سر فعل عمر لا يستغربون
صنعه . نعم ان كل ما في الارض من شقاء وشور وفساد مصدره شيء واحد وهو « كبرياء
الانسان » فالانسان لا يحال كل الحرمان في سبيل جمع المال وانماء الثروة الا لارضاء كبريائه .
لا يسطو فرد على فرد او شعب على شعب لاذلاله وسلب ما في يده الا لارضاء كبريائه .
لا يرى الانسان متصدراً مغتالاً فخوراً كانه مفرد في الدنيا كلها وكأن الدنيا كلها ملك يده مع
انه اصغر من فيها — الا لارضاء لكبريائه . لا تسخر الالوف من البشر في بناء المدن

١ اي حرية الانسان في ان يملك ما يشاء وينصرف به كما يشاء . وما دام هذا حق المطلق فنرضى الاحسان
والزكاة عليه من قبيل العيب والغفولان ذلك معاً بآراء (٢) الواقدي عن الزبير (٣) ابن الاثير

الامير عمر: حيا الله الامير ويهاه فانه كره العقاب الا بعد الانذار مع ان الرجل عادر علينا . فلا عجب في ان يحبنا مخالفونا لتساهلنا الى هذا الحد

ثم اخذ ابو عبيدة « يحدث عمر بما لي الجند من الروم وعمر باهت فتارة يبكي وتارة يهدها . فلم يزل كذلك الى ان حضرت صلاة الظهر . فقال الناس يا امير المؤمنين اسأل بلالاً ان يوءذن لنا * وبلال هو العبد الذي كان موءذن النبي وكان قد حضر الى بيت المقدس اغتناماً لاجر القتال في سبيل فتحها . فقال عمر لبلال « يا بلال ان اصحاب رسول الله يسألون ان توءذن لهم وتذكرهم اوقات نبينهم * » فقال بلال نعم * ثم اخذ يوءذن الظهر . « فلما قال الله اكبر خشعت جلودهم واقشعرت ابدانهم . فلما قال اشهد ان لا اله الا الله اشهد ان محمداً رسول الله بكى الناس بكاء شديداً حتى كادت قلوبهم تنصدع عند ذكر الله ورسوله * »

ويظهر ان بلالاً راي في جند المسلمين شيئاً جديداً لم يره من قبل . وفي الحقيقة ان هذا الشيء ليس بالجديد فانه ازلي لوجوده منذ وجود الانسان تقريباً . وهو ان اكابر المسلمين واجناد الشام كانوا « يا كلون لحوم الطيور والخيز النقي » * والضغفاء بكثيراً ما كانوا لا ينالون شيئاً . وبما ان بلالاً قد نشأ في احضان النبوة فقد راي لنفسه حق الشكوى من هذه الحالة الجديدة . فشكى ذلك بعد الاذان الى الامام عمر * مختتماً قوله بهذه العبارة « الكل يفتى ومآله الى التراب ومصيرنا اليه » * فاجابه يزيد بن ابي سفيان « انا لنصيب ما قاله بلال ههنا مثل ما كنا نقوت به انفسنا مدة من الزمان في الحجاز لان الاسعار رخيصة في بلادنا هذه » * فقال عمر « ان الامر كما ذكرت فكلوا هنيئاً مريئاً » * ولكنه اردف ذلك بقوله انه سيفرض لكل اهل بيت ما يكفيهم من البر والشعير والعسل والزيت وما يحتاجون اليه

فحين اذا رمنا ان نسمي هذا الامر باسمه العلي المألوف اليوم فانتنا نقول ابن الامام باهتامة هذا كان يهتم بالمسالة الاجتماعية العظمى . وغني عن البيان ان المبدأ المسيحي والمبدأ الاسلامي في هذه المسالة متناقضان لمبدأ المدينة الحاضرة القائمة على مبداء تنازع البقاء وبقاء الافضل . ولكن المدينة الحاضرة بدأت تعود الى المبداء المسيحي والمبداء الاسلامي من حيث اهتمام الهيئة الاجتماعية بجميع الافراد . وهو مبدأ الاشتراكية الجديد الذي قد طاسيله على اوروبا ولا يعرف مستقبله الا الآن معرفة جلية

ولما سمع ابو عبيدة جواب يزيد وحكم عمر انخرف نحو الامير وقال (-) « لقد احسن

فقال له صديقه هل لك ان تجعل لي في زوجتك نصيباً واكفنيك رعي اهلك والقيام عليها . قال له الشيخ قد فعلت . فلما اخبر عمر بذلك امر بها فاحضرا فقال : ويلكما ما دينكما . قال الاسلام . قال عمر فما الذي بلغني عنكما اما علمتا ان ذلك حرام في دين الاسلام . قال لا والله ما علمنا ذلك . فقال عمر للشباب ان بلغني عنك شيء من ذلك بعد ضربت عنقك * »

وكان عمر قد كتب الى امراء الجند في بيت المقدس ان يلاقوه بالجالية (١) ليوم صماه لم . فلما بلغ جند الشام خبر قدومه « ارتج الناس وهموا ان يركبوا لاستقباله باجمعهم . فقال لهم ابو عبيدة « عزيمة على كل رجل ان لا يخرج من مركزه » * ثم سار ابو عبيدة في اناس من المهاجرين والانصار . فلما وصل عمر الى الجالية كان اول من لقيه يزيد بن ابي سفيان وابو عبيدة ثم خالد بن الوليد وهم على الخيول وعليهم الديباج والحريز * فنزل عمر واخذ الحجارة ورمم بها للبسهم ملابس الروم وقال « ما اسرع ما رجعت عن رايتكم . اياي تستقبلون في هذا الزبي . وانما شعبتم منذ سنين . وبالله لو فعلتم هذا على راس المائتين لاستبدلت بكم غيركم » (١) فقالوا « يا امير المؤمنين انها بلامعة » (اي سلاح يلعب) قال « نعم اذن » (٢) ثم ركب حتى دخل الجالية

وما استقر المقام بعمر في الجالية ليستريح من وعثاء السفر حتى تقدم اليه رجل غريب الزبي وقال « يا امير المؤمنين انك لا ترجع الى بلادك حتى يفتح الله عليك ايلياء (٣) فالتفت عمر الى ابي عبيدة وساله من هذا الرجل (— فاجاب ابو عبيدة هو يوسف اليهودي الذي طلب ان يتقدمنا الى بيت المقدس . فلم يلتفت عمر اليه . وعند الفجر صلى عمر بالمسلمين صلاة الفجر ثم خطب فيهم خطبة حسنة حض فيها الحاضرين على الاتحاد وشكر الله وقراء الآيات من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فلن يجد له ولياً مرشداً » * وكان فس من المسيحيين حاضراً فقال « ان الله لا يضل احداً » * (٤) فلما كرر القس هذا القول قال عمر « ان عاد الى قوله فاضربوا عنقه » * فسكت القس * وحينئذ همس ابو عبيدة (— في اذن

١ « من اعمال دمشق في شمالي حوران

١ « ابن الاثير ٢ « ابن الاثير

٣ « روى ابن الاثير والطبري وغيرهما ان يهودياً اسمه يوسف لقي عمر بالجالية وقال له هذا القول . فجاء هنا محكم الانطباق على ابي اسنير

٤ « الوافدي

من الصلاة اقبل على المسلمين وخطب فيهم يحضهم على الاتحاد وشكر الله على نعمه « ثم يأخذ الجفنة فيلأها سويقاً ويصف التمر حولها ويقرب للمسلمين ويقول: كلوا هنيئاً مريئاً . فبأكل وياكل المسلمون معه » *

هذه كانت مائدة صاحب السلطنة العربية التي كانت آخذة بالامتداد من شاطئ البحر الاحمر الى ما وراء الفرات . فلا طباخ ولا تانق ولا تمنع . وانا طعام طبيعي بسيط يأكله الانسان ليعيش بدل ان يعيش لياكل وينعم جوفه بالاطعمة المختلفة التي تفسد صحة النفس والبدن وبعد مدة وصل الامام الى ماء لجذام يدعى « ذات المنار » وكان هنالك طائفة من عرب جذام . فنزل الامير على الماء . فبعد حين جاءه قوم منهم وقالوا « يا امير الموءنين ان عندنا رجلاً له امرأتان وهما اختان لاب وام . فغضب عمر وقال عليّ به . فاني بالرجل اليه . فقال له عمر . ما هاتان المرأتان . قال الرجل زوجتاي . قال فهل بينهما قرابة . قال نعم هما اختان . قال عمر . فما دنك . الست مسلماً . قال بلى . قال عمر او ما علمت ان هذا حرام عليك والله يقول في كتابه (وان تجمعوا بين الاختين الا ما قد سلف) فقال الرجل ما علمت . وما هما عليّ حرام . فغضب عمر وقال . كذبت والله انه لحرام عليك . ولتخلين سبيل احدهما والا ضربت عنقك . قال الرجل افتحك عليّ . قال اي والله الذي لا اله الا هو . فقال الرجل ان هذا دين ما احبنا فيه خيراً ولقد كنت غنياً عن ان ادخل فيه . قال عمر ادن مني . فدنا منه . تخفق راسه بالدرة (السوط) خفقتين وقال له . انشاءم بالاسلام يا عدو الله وعدو نفسه . خلّ يا ويلك سبيل احدهما والا جلدتك جلدة المتفري . فقال الرجل كيف اصنع بهما وانا احبهما ولكن اقزع بينهما فن خرجت القرعة عليها كنت لها وهي لي وان كنت لهما جميعاً محباً . فامر عمر فاقترع . فوفقت القرعة على احدهما فامسكها واطلق سبيل الثانية . ثم اقبل عليه عمر وقال له . اسمع ياذا الرجل . وعـ ما اقول لك . انه من دخل في ديننا ثم رجع عنه قتلناه : فاياك ان تفارق الاسلام . واياك يبلغني انك قد اصبحت اخت امرأتك التي فارقتها فانك ان فعلت ذلك رجمتك » * (١) ثم انطلق عمر فرّ في طريقه بجيـ من بني مرة « فاذا بقوم قد اتفقوا في الشمس بعدّيون . فقال لهم عمر ما بال هؤلاء بعدّيون . فقليل . عليهم خراج . قال فما يقولون . قال يقولون ما نجد ما نوءدي . فقال عمر دعوهم ولا تكلفوهم ما لا يطيقون » * فخلّوا سبيلهم ثم سار « حتى اذا كان بوادي القرى اخبروه ان شيخاً على الماء وله صديق يودّه

١ « رواه الواقدي نقلاً عن عمر بن مالك العبسي الذي كان مع عمر في هذا السفر

بديك وكان في مسيرك الاجر العظيم في كل ظاء ونخصة وفي قطع كل واد وصعود كل جبل حتى تقدم عليهم . فاذا انت قدمت كان لك وللمسلمين الامن والعافية والصلاح والفتح . ولست آمن ان يبا سوا (اي الروم) منك ومن الصلح ويملكوا حصنهم ويأتئهم المدد من بلادهم فيدخل على المسلمين من ذلك المم والبلاء . لا سيما بيت المقدس عندهم وهو معظم واليه يحجون فلا يتخافون عنه . والصواب ان تسير اليهم ان شاء الله تعالى» (١) فقال عمر حينئذ « لقد احسن عثمان النظر في المكيدة للعدو واحسن علي المشورة للمسلمين فجزاها الله خيرا . ولست آخذ الا بمشورة علي » * ثم امر الناس بالاستعداد للمسير معه فيا له من زمن صغير كبير ذلك الزمن الذي كانت فيه ملوك الامم وقوادها يرجعون الى رجال العقل والفكر في سياسة ممالكهم ويفصلون في الامور السياسية الجسام التي عليها تنوقف حياة ممالك ودول عظيمة في مسجد صغير ساذج في مدينة صغيرة ساذجة بدون كلفة بين افراد من الاصحاب والاصدقاء كلهم عائلة واحدة

على طريق الشام

ولما فشا الخبر ان عمر مسافر الى الشام خرج الناس في المدينة لشؤديه وتشييعه * فأتى عمر المسجد فلي فيه اربع ركعات ثم قام الى القبر النبوي فلم عليه وعلى قبر ابي بكر * واستخلف على المدينة علي ابن ابي طالب * ثم خرج « على بعير (٢) له احمر وعليه غرارتان في احدها سويق وفي الاخرى تمر وبين يديه قرية مملوءة ماء وخلفه جفنة للزاد * وكان مرتديا « بمرفة من صوف وفيها اربع عشرة رقعة بعضها من ادم » * « وعلى راسه قطعة عباءة قطوانية وقد عصب بها راسه » *

هكذا كان لباس الامير العظيم الذي فتحت له كنوز قيصر وكسرى وكان معه جماعة من الصحابة ممن شهدوا وقعة اليرموك وعادوا الى المدينة بعدها في جملتهم الزبير وعبادة بن الصامت *

وانطلق بعير عمر ووراءه مطايا اصحابه في رمال بلاد العرب وقفارها وسهولها وجبالها بقصد بيت المقدس . وكان عمر اذا نزل منزلا لا يبرح منه حتى يصلي الصبح . فاذا انقفل

١ اما رواية ابن الاثير فانها تناقض هذه الرواية . فانه روى ان عليا قال لعمر اذا رام المسير الى الشام « ابن تخرج بنفسك انك تريد عدوا كليبيا . فقال عمر اياك بالمجاهد قبل موت العباس . انكم لو تقدم العباس لاتنقض بكم الشركا يهتف الحبل »

٢ يقول ابن الاثير انه قدم علي فرس

الفصل الثامن عشر

✽ الخليفة عمر بن الخطاب ✽

وسفره الى الشام

الرسول في المدينة . رأي علي وعثمان . سفر الخليفة . مطبئة . طعامه . ثلاثة حوادث رآها في طريقه .
ابو اسير في المجاية ونبيته . عمرو القس الذي يعارضه في صلاته . بلال واذا به .
اثارة بلال المسالة الاجتماعية . حركة جميلة لعمر يقتل بها افعى المدينة الهائلة

وطوى الرسول عدة ليال لم يذق فيها طعم الكرى * وكان وصوله الى « المدينة » ليلاً *
فكره ان ينزل عند احد من الناس فاناخ ناقته على باب المسجد وعقلها ودخل المسجد فسلم
على القبر النبوي وقبر ابي بكر ثم اتى مكاناً في المسجد ونام فيه نوماً عميقاً * فلم يستيقظ
الا على صوت عمر يؤذن وكان بغلس في الاذان * ثم دخل الامام الى المسجد وهو يقول
« الصلاة رحمكم الله » * فنهض الرسول في من نهض وتوضاء وصلى خلف عمر صلاة
الفجر . وبعد الصلاة انخرف عمر عن محرابه فقام الرسول اليه وسلم عليه . فلما نظر عمر اليه
صاحه واستبشر وقال « مبسرة ورب الكعبة . ما وراءك يا ابن مسروق » * فدفع اليه
الرسول الكتاب . فقرأه الامام على المسلمين الحاضرين في المسجد وفيهم الامراء والصحابة
يتقدمهم علي وعثمان بن عفان * فاستبشر الجميع به لقرب وقوع عاصمة الروم الدينية وبلد
الانبياء في ايديهم . فقال عمر يستشيرهم في الرحيل او الاقامة « ما ترون رحمكم الله فيما
كتب ابو عبيدة » * وكان اول من تكلم عثمان بن عفان * فقال « يا امير المؤمنين ان
الله قد اذل الروم واخرجهم من الشام ونصر المسلمين عليهم وقد حاصر اصحابنا مدينة ايلياء
وضيقوا عليهم وهم في كل يوم يزدادون ذلاً وضعفاً ورعباً . فان انت اقلت ولم تسر اليهم
راوا انك بامرهم مستخف ولقتالهم مستخقر فلا يلبثون الا اليسير حتى ينزلوا على الصغار ويعطوا
الجزية » * فقال عمر « جزاك الله خيراً » * ثم التفت الى باقي المشيرين وقال « هل عند
احد منكم رأي غير هذا » * فيظهر ان المناقشة كانت موجودة بين هلي وعثمان قبل وصول
عثمان الى الخلافة ولذلك كان علي يتعرض احياناً لعثمان كما تقدم . فاجاب « نعم عندي غير
هذا الرأي . وانا ابدية لك رحمك الله » * فقال عمر « ما هو يا ابا الحسن » * فاجاب
علي « ان القوم قد سالوك وفي سوء الم ذلك فتح للمسلمين . وقد اصاب المسلمين جهد عظيم
من البرد والقتال وطول المقام . واني اري انك ان سرت اليهم فتح الله هذه المدينة على

بالكف عن القتال وانصرف البطريق وحاشيته

وبعد ذلك اجتمع امراء المسلمين فاباهم ابو عبيدة طلب البطريق « فرفعوا اصواتهم بالتهليل والتكبير » * فرحاً بقرب انتهاء الحرب ودخولهم بيت المقدس . « وقالوا فعل ايها الامير واكتب الى امير المؤمنين بذلك فلعله يسير الينا ويفتح هذا البلد علينا » * وكان شرحبيل بن حسنة حاضراً فقال ان هذا الامر يطول « فاصبر حتى نقول لم ان الخليفة معنا ويتقدم خالد اليهم فاذا نظروا اليه فتحوا الباب وكفينا التعب » * « وكان خالد بن الوليد اشبه الناس بعمر بن الخطاب » * ففعلوا ذلك . ولكن البطريق واهل المدينة لم تنطل عليهم هذه الحيلة . فقال البطريق « يا فتيان العرب كم يكون هذا الخداع فيكم . وحق المسيح لئن لم نر الرجل الموصوف ما نفتح لكم ولا يرجع احد منا يكلمكم ولو اقمتم علينا عشرين سنة . ثم ولى ولم يتكلم » *

فعند ذلك كتب ابو عبيدة الى الامام عمر الكتاب التالي

« باسم الله الرحمن الرحيم . الى عبدالله امير المؤمنين عمر بن الخطاب من عامله ابي عبيدة عامر بن الجراح . اما بعد السلام عليك فاني احمد الله الذي لا اله الا هو واصلي على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم . واعلم يا امير المؤمنين انا منازلون لاهل مدينة ايلياء نقاتلهم اربعة اشهر . كل يوم نقاتلهم ويقاتلوننا . ولقد لقي المسلمون مشقة عظيمة من الثلج والبرد والامطار . الا انهم صابرون على ذلك ويرجون الله ربهم . فلما كان اليوم الذي كتبت اليك الكتاب فيه اشرف علينا بتركهم الذي يعظمونه وقال انهم يجدون في كتبهم انه لا يفتح بلدهم الا صاحب نبينا واسمه عمر وانه يعرف صفته ونعته وهو عندهم في كتبهم . وقد سألنا حقن الدماء . فسر الينا بنفسك وانجدنا لعل الله يفتح هذه البلدة علينا على يديك » * ثم انه طوى الكتاب وختمه * وسأل المسلمين من ينطلق به . فاسرع بالاجابة ميسرة بن مسروق العبسي * فامتطى ناقة له كوماً وسار يقصد « المدينة » في بلاد العرب وهي كرمي الخلافة الاسلامية يومئذ ومقر السلطنة العربية

هوؤلاء العرب وتنظر ما الذي يريدون منا . فان كان امرهم قريباً اجبنا الى ما يريدون ويطلبون وان كان صعباً فتحنا الابواب وخرجنا اليهم فاما ان نُقتل عن آخرنا واما نهزمهم عنا « (١) وكان البطريق قد بدأ يرى راءهم لياؤه من المدد خصوصاً بعد اختلاؤه بايليا ومماعه راءى الامير عمرو بن معدي كرب (٢) . فاجابهم الى هذا الطلب « فاشتمل بلباسه وصعد معهم على السور وحمل الصليب بين يديه واجتمع القسس والرهبان حوله وبايديهم الاناجيل منقحة والمباخر حتى اشرف على المكان الذي فيه ابو عبيدة » * « فنادى منهم رجل بلسان فصيح العربية : يا معشر العرب . ان عمدة دين النصرانية وصاحب شريعتها قد اقبل يخاطبكم فليدن منا اميركم » * فاخذروا ابا عبيدة فجاء ابو عبيدة « وجماعة من الامراء والصحابة ومعه ترجمان » * فلما التقى الفريقان تكلم البطريق فقال « ما الذي تريدون منا » * فانبرى ابو عبيدة وقال « خصلة من ثلاث . اولها ان تقولوا لا اله الا الله وحده لا شريك له . وان محمداً عبده ورسوله . فان اجبتم الى هذه الكلمة كان لكم ما لنا وعليكم ما علينا » * « فقال البطريق (٣) انها كلمة عظيمة ونحن قائلوها . الا ان نبكيكم محمداً ما نقول انه رسول — فهذه خصلة لا نجيبكم اليها » * فعرض ابو عبيدة الخصلة الثانية وهي « تادية الجزية عن يديهم صاغرون » * فقال البطريق « ما كنا بالذي يدخل تحت الذل والصغار ابداً » * فقال ابو عبيدة اذن نقاتلكم حتى نفتح مدبنتكم ونستعبدكم ونغنم اموالكم * فاجاب البطريق بغضب . لو اقمتم على قتالنا عشرين عاماً لما فتحت المدينة لكم . وانا الآن اقول لكم كلمة واحدة . وهي ان المدينة لا تفتح الا لاميركم عمر بن الخطاب . فابعثوا في طلبه لاقابله والتي اليه مفتاحها اذا رتم صلحاً حقيقياً فيه شرف لنا ولكم فاطرق ابو عبيدة يفكر ملياً . وكان راغباً في الصلح حقناً لدماء رجاله . فقال « اني ابعث اليه بان يقدم علينا . افتحبون القتال ام تكف عنكم » * وقد قال ابو عبيدة هذا القول ليظهر للبطريق ان قومه لا يبالون بالحرب . فاجاب البطريق « معاشر العرب الا تدعون بغيركم . انطلب حقن الدماء وانتم تائبون الا التمسال » * فامر ابو عبيدة حينئذ

(١) الواقدي . وكل ما كان في هذا الفصل ايضاً وباقي النصول التالية بين قوسين ووراءه نجمة * فهو نص حرفي له

(٢) غني عن البيان ان هذا الرأي لم ينسب في التاريخ للامير عمرو بن معدي كرب بل للبطريق نفسه رغبة في زيادة الاستيثار من سلامة المدينة بعد الصلح

(٣) في الاصل البترك وهي الكلمة العامية اليوم . واحياناً ترد في كتب العرب « البطريق »

عمر بن الخطاب فانه هو الذي بقدر وحده على كبح جماح هذا الجيش بعد عقد الصلح اذا رام الجيش انتقاماً او اغتناماً

وكان الامير صادقاً في هذه النصيحة وان كان قد قصد بها تعجيل الصلح لمنفعة قومه . فشكره ايليا وكرر توديعه وانصرف قاصداً اسوار المدينة ومعه رجل من رجال الامير ليوصله اليها وكان ايليا وهو سائر يثقل نوح خيمة ضرار ويتنهد كلما التفت اليها كما تنهد آدم وتأنت الى الفردوس عند خروجه منه

الا ان ترك آدم فردوسه كان بكرهه وترك ايليا فردوسه كان بطوعه اتباعاً لصوت ضميره وكبريائه والغريب ان ايليا لم يعاوده اليأس القديم بعد يأسه من هذا الحب الذي كان بني عليه كل آماله في الحياة . فكان ما شاهده في هذه الحرب من آثار القتل والعذاب والشقاء البشري والعناء قد اذكراه ان الحياة ليست بلعبة يتلغى بها بل هي واجب عظيم يجب القيام به باحسن ما يكون ومعالجة كل ما يعترضه من المصائب والمتاعب والمصائب . ولذلك صار همه مصروفاً الى نفع بني وطنه المحصورين لتخفيف شيء من مصائبهم ومنع الفتك فيهم اذا فتح العرب مدينتهم . وبذلك وجدت نفسه شاغلاً يشغلها عن نفسها

وقد اذن حراس اسوار المدينة لايليا بالدخول اليها ولكنهم اخذوه توّاً الى البطريك . وهذا ما كان ايليا يطلبه . فاختلى ايليا بالبطريك ساعتين تقريباً وفي اثناء ذلك كانت استير في خيمة ضرار تنتظر ايليا

الفصل السابع عشر

مخبرات الصلح

البطريك وابرعينة . كلمة الشهادة بين الاثنين . اتباع البطريك نصيحة ايليا . كتاب ابي عبيدة الى عمر وكان اهل المدينة يومئذ في ضجر وملل من تأخر المدد عنهم وطول حصرهم . وكانهم يشسوا من المدد بعد طول الحصار اربعة اشهر فاجتمع وجوههم عند البطريك وقالوا له « يا ابانا قد دار علينا حصار هؤلاء العرب ، ورجونا ان يأتينا مدد من قبل الملك ولا شك انه اشتغل عنا بنفسه . وانهم اشبه منا للقتال وانهم من يوم نزلوا علينا لم نخاطبهم بكلمة واحدة ولم نجبهم احتقاراً منا لهم . والان قد عظم علينا الامر . وانا نريد منك ان تشرف على

ان يكون العنصر الفاتح الجديد اقل استبداداً وأكثر انصافاً للامة المغلوبة من العنصر الفاتح القديم . لا ريب في ان ايليا لم يكن يعتبر الدين جامعة قوية بل هو يضع فوقها الجامعة البشرية اي جامعة « العدالة المطلقة والانصاف المطلق » ولكن من يضمن له انه لا يكون في هذا الاستبدال كالمستعين من الرمضاء بالنار وكلما انتقل من نير الى نير

وقد بقي ايليا يفكر ساعة في موضوعه الجديد وبعد ان برّد هواه المساء جبهته التي كانت متقدمة بهذه الافكار قرأه على السفردون ان يشاهد استير ولا اباها . فانحرف عن خيمة ضرار وقصد خيمة الامير عمرو بن معدي كرب ليستأذن منه بالرحيل ويسأله رجلاً يرافقه الى خارج المعسكر . وكان غرضه من ذلك ايضاً زيادة التقرب من هذا الامير لعله يستعين به على شيء يفيد بني وطنه اذا وقعت المدينة في ايدي العرب

ولما وصل ايليا الى خيمة الامير عمرو بن معدي كرب وجده راجعاً من خيمة ابي عبيدة . ذلك ان ابا عبيدة كان قد جمع امراء الجيش ووجوه الجند ليستشيرهم في طول الحرب وما اصاب الجند من التعب والشدة للمطر والثلج والبرد (١) فاجمع رأيهم على انه لا سبيل لأخذ المدينة الا صلحاً او يبرز الروم من وراء الاسوار للقتال وجهاً لوجه . لاسيما وانه قد بلغهم ان الارطبون مقدم الجند الذي فرّ من اجنادين وجأ الى بيت المقدس في اثناء الحصار معارض في الصلح كل المعارضة . فلما علم الامير عمرو بن معدي كرب برغبة ايليا في الدخول الى المدينة استغرب ذلك وسأله بواسطة الترجمان . اين اصحابه . وقد عني بهم استير واباها . فارتعد ايليا لهذا السؤال . اولاً لانه ذكره امره وثانياً لانه تذكر ان استير ستبقى بعده هدفاً لميل ضرار وعمر بن معدي كرب وارميا

ولما ودّع ايليا الامير قال له الامير سنلتقي في المدينة بعد بضعة ايام . فابتسم ايليا وشكر للامير ما لقيه عنده من الكرامة وحسن الضيافة مدة الاسر . ثم سأله نصيحة لقومه يكون فيها فائدة للرفيقين . فاطرق الامير يفكر . ويظهر انه بدا له امر مهم ولذلك اشرق وجهه . فقال لايليا : لقد استنصحتني ايها الشاب وانا اصدقك النصيحة . ان هذا الجيش اذا فتح مدينتكم هذه سيكون شديد الوطأة عليها لانه عانى في هذه الحرب مشقة شديدة . وها قد مرت اربعة اشهر والقتل فيه كل يوم . ولو كان المدد سيصلكم لوصاكم في اثناء هذه المدة الطويلة . فخرّض قومك على الصلح اذا كنت نافذ الرأي عندهم وكنتم تحبون سلامة مدينتكم . ولكي تعلم صدق نصيحتي اوصيك ان لا تقبلوا بالصلح الا على يد خليفتنا

١ بيت المقدس قائمة فوق الجبال وعلوها عن سطح البحر ٩٧٠ متراً اي هي اعلى من دمشق الشام بمائة متر

همساً ايضاً . لا تغضب يا كبيره ايليا فاني فعلتُ ما فعلته بأمر استير نفسها . وعندى الآن لك حديث في غاية الاهمية فاسمعه منى وبعد ذلك اصنع ما تشاء
فنهض ايليا وخرج من الخيمة . ولما صار خارجاً صاح بارميا : ماذا انقول للشيخ سليمان
غداً يا ارميا بعد خطفك الفتاة من مزرعته . فاجاب ارميا لم اخطفها وانما هي التي طلبت
منى ان اذهب بها من المزرعة لتلتقي بابيها . ولكن دع عنك هذا فانه ليس في شيء من
الاهمية . اعرفت يا كبيره ايليا ابا هذه الفتاة

فاجاب ايليا نعم عرفته . فقال ارميا مظهر الاهتمام دائماً وهل عرفت ما بينه وبين
العرب . فقال ايليا لا لم سألُه عن ذلك بعد . فلعلمهم امروه كما اسروكما وكما اسروني .
فهزأ ارميا حينئذ رأسه وقال همساً : كلا كلا يا كبيره ايليا . فانه جاسوس جاسوس
فهنا خطأ ايليا خطوة الى الوراء لدهشته . وبقي مبهوتاً . ولما رأى ارميا ان كلامه
اثر في نفس ايليا تأثراً شديداً اردف بقوله : وهل علمت الآن اين ذهب الرجل حين
فارقكم ؟ انه ذهب الى القائد العام لانه طلب مع بدوي مقابلته . فلعلهُ يقصد سؤاله عن
بعض الامور . . يا كبيره ايليا . قد قيل لي انك انقذته على طريق بيت لحم . فانت اذا
انقذت جاسوساً على وطنك . وابنته استير الجميلة التي انقذتها انت مرة وانا انقذتها مرة
هي ابنة جاسوس . يا كبيره ايليا حقاً ما كنت اظن اننا ننزل الى هذه الدركة من
السفالة ونحب انت وانا ابنة جاسوس دنيء

فعند هذا الكلام انكشف غطاء كفيف عن عيني ايليا فذكر اقوال البطريك وقصة
استير تحت الارزة وذكر على الاخص استعانة ابي عبيدة بالشيخ ابي استير لمعرفته قبل اطلاق
سراحه وبارسال ابي عبيدة الساعة في طلبه فلم تبق لديه شبهة في ان الرجل جاسوس .
فما تحقق ذلك في نفسه طارت نفسه شعاعاً فترك ارميا بنزق واخذ يهيم على وجهه بين
الخيام كأنه يطلب منفذاً لياأسه وانكسار قلبه

استير ابنة جاسوس ؟ يا للهول . ذلك المثال البديع للجمال وأدب النفس قد خرج
من دم القبحس واللؤم ؟ يا للهول . اذاً اين يجد ايليا الطهارة والنقاء في العالم بعد اليوم ؟
وما الذي يسأله بعد ذلك عن هذه الخسارة التي فقد بها احلامه وآماله في هذه الحياة
ايليا خان وطنه وساعد الجواسيس عليه ؟ يا للهول . نعم انه لم يكن شديد التعصب
لوطنه ومملكته لان اليونان كانوا العنصر السائد المستبد فيها ولذلك قد يمكن ان يكون
هذا الفتح مساعداً للامة السورية المقلوبة على العنصر المستبد الغالب . ولكن من ضمن

ولم يكذب يخرج ابو استير من الخيمة حتى سمع صوت من الخارج يقول « السلام على اهل الايمان » فنهض ضرار وخولة على عجل وصاح ضرار بعد رد السلام اهلاً بفارس العرب . فدخل حينئذ رجل معقل سيفه وفي يده رمحه وكان كبير الهامة شافع الرأس تكفي هيئته للدلالة على نجابته وشجاعته . وكان وراءه رجل غريب الزي . فقال الفارس القادم لضرار : اُجاءكم اسيري يا ضرار . وكان ايليا قد هب على صوت الفارس وقام اجلالاً له . فلما رآه الفارس بش في وجهه والتفت الى الرجل الذي كان وراءه . فناطق حينئذ هذا الرجل باليونانية مخاطباً ايليا بقوله : ان فارس العرب عمرو بن معدي كرب قد ساء تركك خيمته ولقد اذن بما اذن به ابو عبيدة من اطلاق سراحك ولكنه يريد ان نقيم عنده لاني مكان آخر لسروره بمدينتك واخبارك . فاستاء ايليا في نفسه من هذا الاقتراح لانه يفصله عن استير وان كان قد سره كرم العربي ورحابة صدره فاجاب . هذا أحب شيء اليّ فساحظي في كل مساء بالثول في حضرة الامير واما في النهار فاني مضطر ان ازم اصدقاء لي في هذه الخيمة ما اقم في هذا المعسكر

فلما علم عمرو بن معدي كرب بجواب ايليا التفت ليري الاصدقاء الذين اشار اليهم الشاب فوقع نظره على استير . فلاحظ ضرار تلك النظرة لخوفه من عاقبتها اكثر من خوفه من عاقبة وداد ايليا

وكان ارميا حينئذ خارج الخيمة ينتصت ويتجسس فلما رأى فارس العرب يقاب نظره في استير قال في نفسه : لقد صرنا اربعة

اما عمرو بن معدي كرب فانه بعد ان اجال نظره في استير ملياً قال للترجمان : لماذا لا يصطحب اصدقاءه الى حيث يذهب . فغضب ضرار لهذا الجواب وظهر الغضب في وجهه . واما ايليا فانه لما فهم جواب الامير بلغه ان رفيقه غائب وابنته هذه الفتاة لا تستطيع مفارقة ابيا فيظهر ان الامير انقلب غرضه من اخذ ايليا الى اخذ استير ولذلك اجاب : ساعود غداً بعد عودة رفيقك فوالله يهمني ان نقص علي بقية قصة صاحبك ميكائيل

وكان الامير يعني « ميكائيل » الراهب ميخائيل استاذ ايليا

فلما انصرف الامير وترجمانه صار ايليا يفكر في ماذا يصنع للخروج باستير وابيه من المعسكر خصوصاً بعدما رآه من اهتمام ضرار وعمرو بن معدي كرب بها اهتماماً خاصاً . وبينما هو يتأمل في ذلك واذا بارميا قد دخل على حين فجأة ودنا من ايليا واسر اليه قوله : هل تريد يا كبيره ايليا ان احديثك على افراد . فحوّل ايليا وجهه عن ارميا دون ان يجابه . فقال ارميا

ولكن لم يبالوا بها لتعودهم مشاهدة التراجمة والعيون من اليهود وأحياناً من اذئاب الروم في معسكراتهم . وهذا أيضاً هو السبب في تجوال ارميا بين المضارب قبل ذلك دون ان يتعرض احد له

وحين وصول ايليا مع الشيخ الى خيمة ضرار كان ضرار قد عاد من ساحة القتال وجلس في باب الخيمة يطيل النظر الى استير واخته خولة نفحك من نظراته واستير مطرقة لتورّد وجنتها خجلاً وتذوب حياءً . فصاح الشيخ حين وصوله : استير ابن استير . فهبت استير الى باب الخيمة . ولكن ما وقع نظرها على الشخص الذي يرافق اباهما حتى صاحت صياحاً شديداً وتراجعت الى الوراء وقد انقلب لونها الفضي الوردي الى لون الزعفران وصارت ترتجف . فادرك ضرار بذكائه العربي الفطري سرّ استير في الحال فعبس وصار يقآب طرفه في ايليا . اما ايليا فكان يتقدم والابتسام على شفثيه ولكن الالم الشديد في قلبه . وكانت جبهته تنصب عرقاً مع شدة البرد ساعتئذٍ . فلما وصل الى استير نظر اليها نظرة هي وحدها كانت تعرف معناها . وقال : الحمد لله ابتها السيدة على انني وجدتك بخير وسلامة فاني خفت عليك من المعتوه الذي رحلت معه ولذلك ذهبت في طلبك فادركت استير ان ايليا يريد بهذا الكلام تبرة نفسه لديها عملاً بوصيتها له ان لا يتبعها . فحاولت الجواب فلم تستطع . ولكن عينها جاوبتا عنها بدمعتين كلؤلؤتين ترفقنا في حدقتيها

وفي هذه الدقيقة وصل ارميا لانه كان غائباً عن الخيمة فلما وقع نظر ارميا على ايليا من بعيد صآب على صدره ورجع القهقري قائلاً « كيريا لايسون كيريا لايسون اي شيطان جاء به الى هنا » ثم توارى لانه كان يخجل من مقابلة ايليا . اما ايليا فقد لمحّه ولكنه تركه وشأنه اثلاً ينفخ عليه باب جنونه فيفضح حبه

ولم يكد ايليا يجلس في الخيمة حتى دخل بدوي وسأل عن ضرار . ثم ابالغه ان الامير ابا عبيدة يطلب اليهودي يوسف . فاستاء ابو استير من هذه الدعوة في تلك الساعة امام ايليا . اما ايليا فانه لم يفهم شيئاً . فقام ابو استير وذهب اجابة للدعوة فبقى في الخيمة ايليا واستبروامها وضرار وخولة . وكان ضرار ينظر الى استير ويقول في نفسه ما اجمل بنات الروم . وخولة تنظر الى ايليا وتقول في نفسها ما اضعف رجال الروم . وهكذا كان كل واحد منهما يقبس امة باسرهما على فرد منها وهو الخطاء الذي كثيراً ما يقع الناس فيه

وكان غرض ارميا من صنع ما تقدم رغبته في ان يحول دون اطلاق سراح ايليا وابقاؤه بعيداً عن استير الى ان يتمكن من اخراجها من هذا المكان بالكيفية . ولكنه ما درى ان هذه الحيلة ستؤدي الى عكس غرضه . فانه لما فشا بين المسلمين ان اخا الامبراطور وقع اسيراً في قبضة بعض من رجال عمرو بن معدى كرب الذين ساروا لارتياذ الضواحي وراء القدس ووصل هذا الخبر الى الامير ابي عبيدة القائد العام امر ابو عبيدة في الحال بان يوثق اليه باليهودي يوسف ليتحقق منه هذا الامر . وكان هذا الاسم اسم ابي استير كما تقدم . فلما حضر الشيخ بين يدي ابي عبيدة صحبه ابو عبيدة الى خيمة عمرو بن معدى كرب واره ايليا ليعلم اهواخو الامبراطور حقيقة لعله يعرفه . ولكن ما وقع نظر الشيخ على ايليا حتى اسرع اليه صارخاً : هذا امبراطور لا اخو امبراطور . فانه امبراطور الشهامة والرفق والمروءة

ثم قص ابو استير على ابي عبيدة ما صنعه ايليا معه ومع ابنه على طريق بيت لحم . فدنا حينئذ ابو عبيدة الرجل الكريم المحب للكرام وقطع وثاق ايليا بيده واطلق سراحه وقد جرى كل ذلك دون ان يدري به ارميا واستير . فكأن ارميا نفع ايليا من حيث قصد مضركه . وذلك مصداق لقول من قال « من حفر حفرة لأخيه وقع فيها » اما ايليا فانه لما وقع نظره على ابي حبيبته خفق قلبه خفقاً شديداً وكان اول سؤال وجهه اليه بعد انطلاق سراحه هو هذا — هل وجدت السيدة استير . فوضع الشيخ يده في يده واجاب : هلم بنا اليها

فيا ايها القاري العزيز . هل اضعت يوماً قلباً لك على شاطئ البحر بين رماله وحجارته ثم وجدته محفوظاً في احدى اصدافه الجميلة كانه درّ فيها مكنون . هل كنت في احدى الليالي مسافراً في ظلمة ليلاء واحاطت بك العواصف والامطار والوحوش واللصوص وانسدت الطريق في وجهك ثم بغتة طلع لك القمر او الشمس تنير طريقك وتدفع عظامك وتوجهك من نفسك . هل كنت يوماً مريضاً مشرفاً على الهاوية وقد نصب ماء حياتك ورايت الموت بعينيك ثم انتفضت وعادت اليك قوتك وصحة شبابك الماضي — اذا كنت قد لقيت يوماً شيئاً من ذلك فانك تعرف مبلغ السرور الذي حاق بابليس حينما قال له الشيخ عن استير « هلم بنا اليها »

ولما وصل الشيخ وايليا الى خيمة ضرار حيث كانت استير كان قد امسى المساء واخذ العرب يعودون عن اسوار المدينة . وكانوا يطيلون النظر الى الاثنين في اثناء الطريق .

فلما دنا ارميا من هذه الخيمة الشائخة سمع فيها صوتاً يتكلم باللغة اليونانية فعجب من ذلك وتقدم متلصصاً فلما اطل على الخيمة ابصر في احدى زواياها ما اثار دهشته فرجع القهقري مستغرباً

ذلك انه ابصر في تلك الزاوية « ايليا » جالساً مشدود اليدين شداً خفيفاً وكان ايليا يحادث رجلاً آخر جالساً امامه لكن هيثنه كانت تدل على انه ليس بعربي وحينما تحقق ارميا وجود ايليا هناك ابتعد عن الخيمة وجلس يفكر ملياً . وبظهر انه قرر في نفسه شيئاً لانه اول ما ابصر رفيق ايليا قد خرج من الخيمة لحاجة له نهض مسرعاً اليه . ولما صار بجانبه خاطبه باليونانية قائلاً . هل انت عربي ايها الاخ فنظر اليه الرجل وقال اخبرني اولاً من انت لاخبرك من انا . فاجاب ارميا ما قصدتك لهذا وانما لاخبرك خبراً عظيماً . اتحب ذلك . فاجاب الرجل وقد بدا يتأمل في وجه ارميا . وما هو هذا الخبر . فقال ارميا باهتمام شديد . اما عرفت هذا الرجل المقيم في هذه الخيمة مشدود اليدين . فقال الرجل وقد بدا يهتم لحديث ارميا : لا ومن عساه يكون . فضحك ارميا وقال : انكم تقبضون على كنز ثمين بل على مفتاح المدينة دون ان تعلموا بذلك . فزاد اهتمام الرجل وقال ومن عساه يكون . فقال ارميا هذا الاسير ستفدون به عشرة الاف اسير منكم اذا شئتم . فصاح الرجل وقد فرغ صbre . الا نقول من هو . فدنا ارميا حينئذ من الرجل وانحنى على اذنه وهمس فيها قائلاً : هذا ثيودوروس اخو الامبراطور

فدهش الرجل ورجع القهقري عجباً . ثم سأل ارميا . ومن اين عرفته . فضحك المعتوه وقال وهل احد منا يجهر اخا الامبراطور . فاحرصوا عليه جيداً اذا شئتم فتح المدينة فانه ربما افتداه الامبراطور منكم بالمدينة كلها

فعاد الرجل نحو الخيمة التي كان ايليا فيها وهو يفكر كثيراً اما ارميا فانه عاد عنها نحو خيمة ضرار وصار يبذل جهده ليمنع استير واباها من الذهاب نحو خيمة ايليا والعادة ان علو المقام يجز دائماً زيادة الانعاب والانتقال . ولذلك ما انتشر بين تلك الخيام ان اخا الامير اسير في خيمة الامير عمرو بن معدي كرب حتى تهافت الناس من كل جانب لمشاهدته . وادى هذا الامر الى التشديد في حراسته والتضييق عليه اما ايليا فلم يكن يفهم شيئاً من ذلك الاكرام الجديد له والتأب عليه . حتى الترجمان نفسه الذي كان يقصده ويمحادثه في الخيمة صار لا يقترب منه الا باكرام خاص

فقطعت استير بالسيف الحبال التي كانت توثق يديه ورجليه فنفض ارميا وصار يتمطى كثر كان مقيداً واطلق من قيده

وبعد ما اُصلح ارميا شأنه وملابسه دنا من استير باهتمام وقال لها : لقد اطلقونا الآن فلهي بنا . فضحكت استير واجابت الى اين . فصاح ارميا كل الاماكن خير من هذا المسكن . هلمي يا اخوتي لنعيش بالبرية معاً كالرعاة . فعبس ابوها وهز رأسه وهو يقول في نفسه انه صار يجب عليه انقاذ الفتاة لا من ضرار فقط بل من ارميا المعنوه ايضاً . ومنذ هذا الحين عرف صعوبة موقف الرجل بين بعض الرجال اذا كان يصحب فتاة متناهية في الجمال

اما ضرار فانه لما علم بمطاب ارميا هز سيفه حتى دب الموت بافرنده وقال له : والله اذا ذكرت الرحيل مرة اخرى لاجعلك مرتعاً له . — فابتعد عنه ارميا دون ان ينهم كلامه وهو يدبر فيه عينين مذعورتين ويبحث بها في الارض عن حجارة او اخشاب يدفع بها عن نفسه اذا هاجمه صاحب السيف

اما الشيخ ابو استير فانه خلا بارميا واخبره ان امير العرب اسرهم ولا يأذن لهم بالرحيل . ولكنه اذن لارميا بذلك . وكان ارميا قد علم ان الشيخ هو ابو استير فقال له : انا مقيم معكم حيثما تقيمون

ومنذ هذا الحين صار ارميا يتجول في حي العرب بين الخيام لمشاهدة تلك المنازل البدوية الغريبة . وفي المساء يعود الى خيمة ضرار وينام في الليل على بابها واستير في داخلها مع ايها كانه حارس لها

وفي ذات يوم بينما كان يدور بين الخيام متجنباً المضارب التي فيها نساء واولاد واصوات القتال واردة من جهة بيت المقدس واذا به قد بلغ خيمة رفيعة العمدة عالية الاطواب . وكان حول هذه الخيمة خيام كثيرة تحيط بها على مسافة مختلفة . والناظر اليها يعرف لاول نظرة انها خيمة زعيم قومه . وفي الحقيقة انها كانت خيمة الفارس المغوار المشهور عمرو بن معدى كرب الزبيدي الذي ترك بوادي اليمن وجاء في رجاله لتفكرة جند الشام مع مالك ابن الاشتر النخعي في اواخر خلافة ابي بكر (١)

(١) وقد كتب ابو بكر يومئذ في هذا الشأن كتاباً الى خالد بن الوليد عاملاً في الشام لاذك العهد قال فيه قبل فسخ دمشق قد قدم اليك ابطال اليمن وابطال مكة وبكفك ابن معدى كرب الزبيدي ومالك ابن الاشتر، ويقال ان عدة هذه النجدة كانت تسعة الاف

وكان أول شيء فكرت فيه استير بعد اطلاق مراحها انقاذ ارميا الذي احسن معاملتها وأمر معها . فسأل ابوما ضراراً عنه فاخبره انه اسير عند رجل من البادية لم يقدر احد غيره على كبح جماحه . فسارت استير مع ابيها وضرار الى خيمة الرجل . فلما اطلوا عليها ابصروا في احدى زواياها رجلاً مطروحاً كالجنح الممدود وهو موثق اليدين والرجلين بحبال ثخينة . فلما سمع هذا الرجل صوت حركة وراء الخيمة انتفض انتفاضاً شديداً واخذ يصيح ملء فيه — يا قتلة الانبياء وآسري المرسلين . اهكذا تصنعون بي . كفى الارض ما فيها من الظلم فلا تزيدوا ظلماً جديداً فيها . انتظنون انها تفتح لكم بالاضطهاد والامر والقسوة . لا لا . فانكم اذا لم تعدلوا لم تسودوا . واذا كانت هذه فاتحة اعمالكم نفاة نهبها بلاء وعذاب . تأمرون الانبياء وتطرحونهم على الارض كالحلاب . تأمرون الفتيات الضعيفات وتسبثن اليهن . اخذوها اخذوها . وحرمني اياها . ايليا ايليا . اظن هذا عقاباً لي لانني خنتك . وهذه عاقبة الخائن دائماً . وانتم ايضا تخونوني فستكون عاقبتكم كذلك

ولما ترجم الشيخ ابو استير لضرار هذا الكلام ضحك منه حتى استلقى لانه علم من استير وايها ان الرجل معتوه . ثم دخل وحده على ارميا . فلما رآه ارميا هاج كالجل الثائر وصاح : انت كبيرهم . انت ظالمهم . ابن الفتاة . اما تخافون الله ويوم الحساب فدنا حينئذ ضرار منه وفي يده سيفه فلما رأى ارميا السيف قامت قيامته وصار يعوي عواء الكلاب والذئاب خوفاً من القتل . فعلم ضرار خطأه فدعى الشيخ ابا استير فدخل وحده . فقال الشيخ لارميا بعد ان اسكته ان ضراراً لا يقصد الا قطع وثاقه بالسيف . فلم يطعن ارميا بل عاد الى العواء والصراخ وصار يدافع ضراراً رفساً برجليه وبقفاً بفيه كأنه حسب البصاق حجارة مقلع تدفع عنه . وكان ضرار في اثناء ذلك يضحك ضحكاً شديداً . فلما رأى الشيخ خوف ارميا من ضرار اخذ السيف بيده ودنا من ارميا فعاد ارميا الى العواء والصراخ والرفس والبصق . فيظهر ان استير علمت وهي ترأب هذا المشهد من خارج الخيمة انه لا يحل هذه المشكلة غيرها فدخلت باسمه تجنل بجلال الجمال والدلال فلما وقع نظر ارميا على استير دهش وصاح متنهداً من اعماق قلبه قائلاً : من انقذك . هاها . ما اقوى النساء الجميلات . فانهن ينقذن انفسهن دائماً . اعطوها السيف اعطوها السيف . فاني لا ائتمن غيرها على روحي . يا عزيزتي اذكري اني خلصتك فخلصيني فاخذت استير السيف بيدها البيضاء الجميلة ودنت من ارميا وهو ممدد فصار ارميا يضحك لها .

فائدة لكم فيه . اما اذا اخذتم المدينة فتحاً بالسيف فانكم تغنمون كنوزهم واموالهم
 فنظر حينئذ ابو عبيدة الى ذلك الرجل وقال في نفسه ان البغض بين هذين الفريقين
 من اهل الكتاب — اليهود والنصارى — لا يزول ابداً . وكان ضرار ابن الازور عائداً
 حينئذ من ساحة القتال لحاجة له فناده الامير وقال — له : خذ هذا الرجل الى خيمتك
 واصلح حاله في هذا الشتاء . فسار الرجل والعجوز وراء ضرار الى خيمته
 وما كاد الثلاثة يصلون الى خيمة ضرار حتى سمعوا من الخيمة بكاء فقال ضرار لرفيقه
 اتعرف لغة الروم يا رجل فاجاب الرجل بالعربية وكان يعرفها كما تقدم . نعم اعرفها ايها
 النارس الممام فاي امر تريد . فقال ضرار عندي فتاة من الروم اسرتها منذ مدة على طريق
 مهد عيسى (١) مع رومي مجنون وهي لا تزال تبكي ليلاً ونهاراً . وقد احببتها اخي خولة
 وعزمت على ادخالها في الاسلام لتكون لي زوجاً ولكنها لا تستطيع مخاطبتها لان الفتاة لا
 تفهم لغتنا

فقال الرجل مفكراً ساء راها الساعة . ثم بدا يربطن بلفظه مع العجوز فاستوت العجوز
 حينئذ على حمارها وقد ابرقت عينها دهشة وسار الجميع بخطى واسعة الى الخيمة والعجوز
 لتناول نحوها

ولكن ما كاد الثلاثة يشرفون على الخيمة ويلقون نظرة الى داخلها حتى صاحت العجوز
 صيحة اتجفل لها النساء والاولاد الذين كانوا في الخيام القريبة . وهرع الرجل والعجوز نحو
 الفتاة الاسيرة في الخيمة يقبلانها وتقبلها باكين جميعاً

فعلم ضرار حينئذ ان هذه الفتاة نسبية للشيخ والعجوز
 اما القارىء فانه ولا شك علم ان الفتاة هي استير والرجل ابوها والعجوز امها
 اما ضرار فانه لما علم من الشيخ لبي استير ان الفتاة ابنته اسقط في يده لانه كان
 يطمع نفسه فيها . الا انه صار اكثر اكراماً للشيخ مما كان قبل علمه بذلك
 وقد قصت استير على ابيها وامها كل ما جرى لها وكيف انقذها شاب من مزرعة تحت
 جبل الزيتون ثم فرّت منها فاسرها العرب على بيت لحم . الا انها لم تذكر لها شيئاً مما حدث لها
 مع ايليا . وقد غصت بدمعها مراراً وهي تحكي لها قصتها من ذكرى ذلك الشاب الكريم
 الذي فارقه رغماً عنها

ومنذ هذا الحين اصبحت استير طليقة في حي العرب مع ابيها وامها

الفصل السادس عشر

بين استير وارميا وابيليا *

في اثناء الحصار

المجاسوس وابو عينة . حادثة مضحكة حدثت لارميا . حيلة لارميا لم تنتج . امبراطور لا اخو امبراطور فارس العرب عمرو بن معدى كرب وابيليا . حيلة لارميا نجحت نجاحاً عظيماً

فاقام ابو عبيدة نحو اربعة اشهر * على حصر بيت المقدس على هذا المنوال . وكان جنده لانكشافهم امام اسوار عدوهم يلاقون بلاءاً اشد من بلاء المحصورين ولم تغن عنهم درقهم شيئاً . وكان الوقت وقت مطر وبرد وثلج فعانى الفريقان من ذلك ما عانياه حتى سئما الحرب والقتال *

وفي ذات يوم بينما كان ابو عبيدة في مضربه ورجى القتال دائرة حول المدينة واذا برجل يقصده ويسأل الناس عنه . وكان وراءه عجوز على حمار . فلما وصل الى مضرب الامير انزل العجوز الى الارض وفرش لها رداءً لتجلس عليه ثم دخل على الامير فسلم وناوله كتاباً صغيراً كان مخبوءاً في ثيابه . فلما قرأه ابو عبيدة بغت وصاح به : انت يوسف . فقل الرجل نعم ايها الامير . فقال اجلس وقص علي ما تعلم فقد كتب الي في شأنك منذ اشهر ولماذا لم تغد علينا قبل الآن . فاجاب الرجل لانني لم اجد قبل الآن عذراً يمكّنتني من الخروج من المدينة للملاقاةكم لان الروم دروا بامري . فقال ابو عبيدة ضاحكاً وهل قبضوا عليك . فقص الرجل بدمعه وقال قبضوا علي وعلى ابنتي فاطلقوني واسمروا ابنتي في دير لهم . وامس زرت هذا الدير بامر بطريركم فعملت منه ان ابنتي فرغت من الدير ولم يوقف لها على اثر . فقال ابو عبيدة وكيف تركوك تخرج الآن من المدينة . فقال الرجل ان قائد الجند دعاني اليه بامر البطريك واشارته فاظهر لي اللطف والجمالة ثم عهد الي ان اجيئكم واظهر انني فائز منهم اليكم وبعد ذلك اخبركم بقوتهم وعزمهم على القتال وقرب وصول المدد اليهم حتى اوهن عزائمكم فتبدوا بطالب الصلح منهم . وبظهر لي ان غرضهم من ذلك هو الصلح لئلا يمس البطريك من ورود مدد الى المدينة من ملكهم

فاطرق ابو عبيدة يفكر ثم سأل : لقد مر على قناتنا لحد بضعة اشهر بدون جدوى فما ظنك لو حاربناهم شهرين ايضاً . فتأمل الرجل هنيهة ثم اجاب . هو لاء النصر لا يؤثر فيهم شيء مثل الضغط عليهم : فشد عليهم الوثاق ايها الامير ولا تقبل منهم الصلح اذ اية

وكان اهل بيت المقدس قد استخفوا بالعرب ونبأهم ولذلك كانوا يتعرضون لها في بادئ الامر * وكان اول من برز للقتال حمير ونبالة الين * فاخذ الروم يرشقونهم بالنشاب من عن الاسوار فتفتك بهم والنبالة ترشق الروم بالنبال . فلما رأى الروم ان النبال كانت تصيب رجالهم « فيتهاقون من سورهم كالغنم احترزوا منه (بعد اهلاك امره) وسنروا السور بالجحف والجلود وبما يرد النبل » * الا ان حامية المدينة كانت مع ذلك تجارب بجراة وشجاعة وبشاشة . وهكذا مر اليوم الاول من القتال على غير طائل

« ولا غربت الشمس رجع الناس وصلى المسلمون فرضهم واخذوا في اصلاح شانهم وعشائهم . فلما فرغوا من ذلك اوقدوا النيران واستكثروا منها لان الحطب كان عندهم كثيراً . فبقي قوم يصلون وقوم يقرؤون وقوم يتضرعون وقوم نائمون مما لحقهم من التعب والقتل » * وفي اليوم التالي برزوا للقتال ايضا وحامية المدينة يظهرون الفرح ويضحكون فر هذا اليوم كالיום الاول وهكذا الى اليوم العاشر * على غير طائل

وفي اليوم الحادي عشر اشرفت على بيت المقدس راية ابي عبيدة يحملها غلامه سالم ومن ورائها الفرسان وقد احدثوا باميرهم ابي عبيدة وخالد بن الوليد عن يمينه وعبد الرحمن بن ابي بكر عن يساره وجاءت النساء والاموال وضح الناس ضجة واحدة بالتهليل والتكبير فاجابتهم القبائل وارتجت المدينة لهذا الاستقبال الحافل * فضعفت قلوب المحصورين وقويت قلوب الحاصرين بهذا المدد العظيم الجديد . فذهب وجوه الجند والمدينة الى مقام البطريق قرب كنيسة القيامة (١) ليشاوروا في امرهم وبلغوه مقدم امير العرب . فلما سمع البطريق بهذا بغتة بغتة شديدة لانه حسب ان الامير الذي قدم هو الخليفة عمر بن الخطاب وكان يعلم ان الخليفة لا يقصد فتح بلد حتى يكون كل العرب وراءه . ولكنه لما علم ان الذي قدم هو ابو عبيدة عامل الشام سكن خاطر الناس وشجع قلوبهم بقرب وصول المدد اليهم فعادوا الى الحرب بالجراة اللازمة (٢)

١ في تاريخ الواقدي تارة 'الغامة' وطورا 'القامة' وآونة 'الغامة' وهو خطأ في النسخ ظاهر . وكنيسة القيامة اعظم كنائس القدس اذ فيها قبر المسيح وسميت كنيسة القيامة نسبة الى قيامة المسيح من القبر بعد صلبه

٢ الرواية التي رواها الواقدي هنا مخالفة للعقل بعيدة التصديق ولذلك لم نعبأ بها واوّلناها هنا هذا التناول

في بيت المقدس . فاجابت خولة اجل با صلى « ينصب الصراط ببيت المقدس ويوثق بجهنم نعوذ بالله منها الى بيت المقدس وتزف الجنة يوم القيامة مثل العروس الى بيت المقدس . وتزف الكعبة فيجاء بها الى بيت المقدس ويُقال لها : مرحباً بالزائرة والمزورة . ويزف الحجر الاسود الى بيت المقدس والحجر بومئذ اعظم من جبل ابي قبيس » (١) فقالت نعم ابنة فياض يا اخواني فما افضل بيت المقدس . فقالت خولة اجل يا نعم ولما فضائل اخرى ايضا « منها ان الله رفع نبيه الى السماء من بيت المقدس ورفع عيسى من بيت المقدس وبغاب المسيح الدجال على الارض كلها الا بيت المقدس والانبيااء كلهم من بيت المقدس والابدال كلهم من بيت المقدس واوصى آدم وموسى ويوسف وجميع انبياء بني اسرائيل ان يُدفنوا في بيت المقدس (٢)

وهكذا لم يكن للمسلمين والمسلمات من حديث في تلك الليلة غير التشوق لفنح بيت المقدس والتحدث بآثارها

فبعد مدة وردهم جواب ابي عبيدة « يا مرمم بالزحف وانه واصل في اثر الكتاب * فاشرفت وجوههم * » وقد باتوا تلك الليلة كأنهم ينتظرون قادمًا يقدم عليهم من شدة فرحهم بقتال اهل بيت المقدس وكل امير يريد ان يُفتح على يديه فيجتمع بالصلاة فيه والنظر الى آثار الانبياء . فلما اضاء الفجر اذن وصلت الناس صلاة الفجر فقراء يزيد لاصحابه « يا قوم ادخلوا الارض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا » * (الآية) ومن غرائب الاتفاق ان باقي امراء الجند قرءوا في جندهم هذه الآية ايضا فكأنهم كانوا على ميعاد واحد (٣) وبعد ذلك نادوا « النفير النفير يا خيل الله اركبي » * وبرزوا للقتال

اولادهم على ايديهم ويستقبلان المهزمين فيحرضهم على القتال عنهن وبعضهن كن يرددن التحيل بعمد يضرين وجوهها بها . وبما ان هذه الوقعة كانت مفتاح ابواب الشام فالفضل فيها يكون راجعاً للنساء العربيات الباسلات . وكان بعضهن يجارب في الجيش كخولة بنت الازور المذكورة آنفاً وعفيرة بنت غفار التي قال فيها الواقدي انها كانت من « انترجلات الباذلات » وهي التي حرّضت النساء على رد الرجال في هذه الوقعة كما تقدم . وروى الواقدي عن العباس بن سهل الساعدي الذي حضر هذه الوقعة انه قال يصف حملة المسلمين بومئذ على الروم بعد الهزيمة , ونظرت الى النساء وقد حملن معهم وقد رأيتهن يسابقن الرجال وبأيديهن العمدة بين ارجل الخيل ولقد رايت منهن امرأة وقد اقبلت الى علي عظيم وهو على فرسه فتعلقت به وما زالت حتى نكسته عن جواده وقتلته،

٣ الواقدي

٢ المقد الفريد

١ المقد الثريد وهو ايضا من آراء العوام يقول "يقال" انها جرت على السنتهم

الجزية واما السيف . فبلغ القس من وراءه ما قال الترجمان وكان فوق السور جمع غفير من الروم وراءهم والى المدينة وفائد الحامية والبطريك . فضحك بعضهم ثم عادوا اليه بالجواب انهم يختارون السيف لانه خير الحاكمين * فعاد يزيد بن ابي سفيان الى معسكر العرب واخبر الامراء بجوابهم . ثم قيل لهم « ما انتظاركم بهم . فقالوا ان الامير ابا عبيدة ما امرنا بالقتال ولا بجرب القوم بل بالنزول عليهم . ولكن نكتب الى امين الامة (يعني ابا عبيدة) فان امرنا بالزحف زحفنا . فكتب يزيد بن ابي سفيان الى ابي عبيدة يعلم بما كان من جواب القوم فما الذي تأمر » *

وفي ليلة ارسال هذا الكتاب كان بين خيام جند يزيد بن ابي سفيان خيمة غاصة بنساء العرب وهن تجتمعات حول فتاة غربية في نحو العشرين من العمر وكانت اسيرة في الخيمة وكان النساء يخاطبنها بالعربية وهي لا تفهم لفتن . فلما اعيان امرها قالت احداهن « وكانت هي خولة بنت الازور الفارسة المشهورة اخت ضرار بن الازور الفارس المعروف : هل نرين يا اخواني ان ابا عبيدة ينهانا عن قتال اهل بيت المقدس حرمة للمكان . والله انني لا اريد ان اكون اول المقاتلين والداخلين الى بلد الانبياء . فقالت خولة بنت ثعلبة الانصارية : هل نظرت قبل اليوم صخرة بيت المقدس يا خولة . فاجابت خولة وهل دخلنا بيت المقدس قبل اليوم . فقالت كهوب ابنة مالك بن عاصم وهل سمعت بصفتها . فاجابت خولة « كانت صخرة بيت المقدس في السماء اثني عشر ميلا وكان اهل اريحا يستظلون بظلمها واهل عمواس مثل ذلك . وكان عليها يافوثة حمراء تضيء لاهل البلقاء وكان يغزل في ضوئها اهل البلقاء » (١) فدهش النساء من ذلك وقالت لبنى ابنة جرير الحميرية . وهل اذا دخلنا المدينة غدا نرى المسجد ومربط البراق . فاجابت خولة مربط البراق تحت ركن المسجد (٢) اما المسجد فخرّب وسناخذ المدينة بحول الله وقوته ونعيد بناءه وان اُغاظ ذلك الروم واليهود . فلما لفظت خولة كلمة « اليهود » ظهرت البغته على وجه الفتاة كأنها كانت تفهم كلمة « يهود » العربية . ولكن النساء لم يلتفتن اليها

فساءت امرأة اخرى وهي سلى ابنة هاشم (٣) اصيحج يا خولة ان كل الناس سبعة ثون

١ « العقد الفريد . وغني عن البيان ان هذه الاقوال من آراء العوام وان وردت في العقد

٢ العقد الفريد

٣ النساء العربيات المذكورات هنا كن في جيش الشام وقد حضرن وقعة اليرموك المشهورة وكن فيها من اكبر اسباب نصر المسلمين وقوتهم لانهن رددن جيوشهم بعد انهزامه وذلك ان بعضهن كن يحملن

الفصل الخامس عشر

﴿ حصر بيت المقدس ﴾

افتراح الاسلام او الجزية او السيف قبل الشروع في القتال . استشارة ابي عبيدة في القتال .
حديث نساء العرب عن فضائل بيت المقدس . الزحف والشروع في القتال .
مقدم ابي عبيدة واضطراب المدينة

فلنترك ايليا الان اسيراً في خيام العرب ولنعد الى المدينة وحاصريها لنرى ماذا
حدث فيها

« اقام جند العرب على بيت المقدس ثلاثة ايام لا يبارزهم حرب ولا ينظرون رسولا
يا في اليهم ولا يكلمهم احد من اهلها . الا ان اهل بيت المقدس حصنوا اسوارها
بالمجانيق والطواق والسيوف والدرق والجواشن والزرذ الفاخر » * (١) « فلما كان اليوم
الرابع قال رجل من البادية لشرحبيط بن حسنة (٢) « ايها الامير . كائن هولاء القوم
صم فلا يسمعون او بكم فلا ينطقون او عمي فلا يبصرون . ازحفوا بنا اليهم . فلما كان
اليوم الخامس وقد صلى المسلمون صلاة الفجر كان اول من ركب من المسلمين من الامراء
لسؤال اهل بيت المقدس يزيد بن ابي سفيان (٣) فشهروا سلاحه وجعل يدنو من سور
المدينة وقد اخذ معه ترجمانا (يعرف اليونانية والعربية) ليبلغه عنهم ما يقولون . فوقف
بازاء السور يهتف يسمعون خطابه وهم صامتون وقال لترجمانه « قل لم امير العرب يقول
لكم ماذا تقولون في اجابة الدعوة الى الاسلام والحق وكلمة الاخلاص وهي كلمة لا اله الا
الله محمد رسول الله حتى يغفر لكم ربنا ما سلف من ذنوبكم وتحققون بها دماءكم . وان
ايتم ولم يجيبونا فصالحوا عن بلدكم كما صالح غيركم ممن هو اعظم منكم عدوة واشد منكم . وان
ايتم هاتين الحاتين حل بكم البوار وكان مصيركم الى النار » * فنقدم الترجمان اليهم وسالم
من المخاطب عنكم * فكلمه فمس عليه مدرع الشعر * وقال ماذا تريد . فاباهم الترجمان
ان امير العرب يدعومهم الى احدي هذه الخصال الثلاث : اما الدخول في الاسلام او اداء

(١) كل ما وضع في هذا الفصل بين قوسين ووراءها نجمة * فهو نص حرفي للواقدي

« ٢ » القائد الثاني في الترتيب المذكور في الصفحة ٢٢

« ٣ » القائد الاول في الترتيب المذكور انفا

فعرّ ياعزيزي عن فقدي بصدق وثبات عواطفني وانذب معي مسرّات البشر وآمالهم الحلوة التي يجتريها تيار الحياة بلا شفقة على الاحياء ولا مبالاة بعذاباتهم ليحملها الى هابية النسيان الهائلة « استير »

حاشية — ارجو منك ان تنثر من قبلي في كل يوم شيئاً من الزهر على قبر الراهب ميخائيل فليتصور القاري حالة ايليا بعد قراءته هذا الكتاب . اما نحن فنضرب صفحاتنا وصفها وبعد ان ثاب الى ايليا رشده كان اول ما طلبه فرساً مسرجاً . فلما درى بذلك الشيخ سليمان جاءه مستخبراً فاخبره ايليا ان ارميا اختطف الفتاة وذهب بها . فاطرق الشيخ سليمان ثم قال اذهب واخطف روحه . واذا لم تجده تحت الارزة ولا في الدير فابحث عنه في بيت لحم ومقارة الرعاة القريبة منها فانه يتردد كثيراً الى هناك :

فركب ايليا وسار ينشد ضائته . وكان اذا مرّ بالطرق التي وقف فيها مع استير اول امس يقف عليها مبهوتاً متذكراً . وما زال سائراً حتى اشرف على كوخ ارميا تحت الارزة فلم يجد فيه احداً . فقصد دير العذراء وسأل خدّمتها عن ارميا وفتاة معه فاجابوه انهم لم يروا احداً . وكان ايليا يرى من قمة الجبل حركات العرب حول سور المدينة فوقف متحيراً في ماذا يصنع . هل يهبط الى المدينة ويستأذن العرب في الدخول اليها للمقابلة ابني استير وامها وسؤلها عنها ام يذهب الى بيت لحم . لا سيما وانه كان خائفاً على الفتاة من جنون ارميا . ولكنه بينما كان يفكر في هذين الامرين واذا بشرزمة من فرسان العرب هاجمة على الجبل لارتياح ضواحي المدينة وطلب الزاد والميرة منها . فلما ابصرهم ايليا اصفر لونه وجمد على فرسه في مكانه . اما الفرسان فلما راوا ذلك الفارس على الجبل قصدوه جميعاً . فشاهدوا ايليا يهجمون عليه دون ان يفروا من وجوههم فراراً من جدار الفرار . فقبض عليه فرسان العرب وارسلوه اسيراً الى قائدهم لظنهم انه رسول او جاسوس . وهكذا اصبح ايليا المسكين في ممتين . ثم استير وم نفسه

للجميل . فغذراً عما صرّح لك به هنا . اسمع . انني اكاد اندم لطلبي منك ان تحيد من طريقي . وها انني اكاد امزق هذا الكتاب وابقى في المزرعة بجانبك الى ما شاء الله . . . ولكن صوت دمي وصوت ابي يصيحان دائماً في اذني . ويخيل لي انني ارى في هذا الظلام الدامس يد ابي تشير الى باب المزرعة تدلني على طريقي . فيا ايليا صفحاً وحلاً ولا تتبعني . وان تبعني فانك تقتل نفسك وتقتلني . ذلك انني لا استطيع ان اراك بعد الآن الا وانطرح بين يديك . ولكن ثق انني بعد هذا الانطراح اموت في لحظة واحدة . آه انك لم تعرف حب بنات اليهود ولا قوة نفوسهن . فنهيناً لك لانك لا تبلى بهذه النار الآكلة . فاختر الآن يا عزيزي بين حياتي بعيدة عنك وبين موتي معك . واذا مت انا فلا اسف عليّ لانني لست الافاة مسكينة خانها دهرها وربط نفسها بنفس لا سبيل لها للاقتران بها . اما انت فاحرص على حياتك لانها ثمينة لقومك . وكن في بلادنا التبسة رسول المبادئ والافكار المعتدلة التي بسطتها فانه متى سادت هذه المبادئ بين قومي وقومك لم يبق سبيل لشقاء نفسين كنفسينا

» يا عزيزي ايليا . لا اوصيك الا بشيء واحد وهو ان تذكرني ببشاشة وصرور امام المراه السعيدة التي ستكون شريكك في مستقبل حياتك . ومتى اناك طفل فوصيتي امام الله والناس وصية اطلبك بها في اليوم الاخير ان يكون اول ما تعلمه اياه النطق باسمي . . . بل اسمع يا عزيزي . . . سم باسم « استير » اول ابنة يزقك الله اياها . واذا وضعت ذلك نصب عينيك . . . فلا ريب عندي في ان الابنة تحب مثلي . ومن يعلم المستقبل يا عزيزي . . . فاني ربما اكون مت في ذلك الزمان . وحينئذ يكون الذّ واشهى شيء عند روعي الاتحاد بشيء منك والسكنى في جسم ابنتك

» يا عزيزي ايليا انساني ما استطعت . ولكن اذا كنت سائراً بين البساتين في مزرعتك ورايت يمامة قادمة ترفرف حولك فاعلم انها رسول من قبلي يحمل اليك تحيتي . واذا نفر من امامك في احد الحقول عصفور جميل وحلّق في الجو مغرداً فاعلم انه رقيب مني عليك ارسلته ليخبرني باخبارك . واذا داعبت الريح شعرك في مرورها عليك مطيبة فلا تنظن ان طيها ماخوذ من شذا الازهار بل هو مرسل معها اليك من استير عزيزتك . واذا رأت عينك يوماً فاعلم ان عيني تنظر اليك مع غيبتك . واذا طنت اذنك يوماً فاعلم انني اتحدث عنك وانا حي نفسي بذكرك

» وهذا وحده يدلك يا ايليا على انني لا انساك ابداً ما بقي لي من الحياة بقية .

شيثاً من العناء والعذاب الذي وجدته حين فراقى هذا المكان . فاني خرجت منه باكية .
وهوذا يدي ترتجف وانا اكتب لك . وكن مطمئناً من نحوى فاني لم اذهب وحدي بل ان
صاحبك الذي تسميه « ارميا » يصحبني . وسيوصلني الى حيث اشاء . الوداع الى الابد .
كن سعيداً بعدي يا ايليا وحباً غيري . اما انا فسادك ما عشت . لم اكن لاطن قبل
معرفتك انه يوجد بين البشر الغير الاسرائيليين قومٌ باخلاصك وافكارك . وثق يا ايليا ان
سلوكك معي اترقي اكثر من خطبتك نعم صرت اعلم اننا نحن البشر كلنا اخوان ولكن ما
الحيلة بالعادات والتقاليد . ربما كان لي قوة على خرقها لو استسلمت الى نفسي ولكني اذا خرقها
وجاريتك قلت ابي وامي . فان روح امي تجأت لي بالحلم يا ايليا وارجعني بكلمة واحدة
الى الطريق التي حدث عنها . وانا لا اخالف امي ولو جنيت على نفسي . ولا ريب عندي
انك بعد هذا القول ثنتي عليّ بدل ان تلومني . يا ايليا ان امهاتنا هن ارواحنا الحقيقية
التي خرجنا منها . وقد كوّنا وربنا بالدماء والدموع . فمهما صنعنا ومهما انكرنا ذواتنا
من اجلهن فاننا لا نفهمن الذين الذين لهن علينا . فضلاً عن ذلك يا ايليا فانك تعلم ان
المعتقدات المجبولة بلحم الانسان وعظامه لا تتغير بالوعظ والكلام . فان معتقدي يبقون قائماً
في وجه معتقدك الى الابد . فيكون تنغيص عيشك على يدي بدل مسرتك . فدعني اذ اوشاء في .
اعتبرني كحلم ذهبي مرّ في مخيلتك في احدى ليالي الصيف المضطربة التي يشتد فيها
اضطراب المنفردين . احسبني كعروس الجن التي تظهر لبعض البشر في بعض الليالي
لتعذبهم بالشوق والوجد . ولكن يا ايليا اغفر لي فاني لم ارد تعذيبك عمداً . والدليل على
ذلك انني شريكك في هذا العذاب . انظر الى هذا السطر فانك تجد فيه اثر دمعة نزلت
من عيني وانا اكتب اليك . وكفى ذلك برهاناً على صدق عواظي من نحوك . نعم
يا عزيزي ايليا انني صرت . . . اميل اليك كما ملت لي . . . واخجل ان اقول احبك لان
هذه الكلمة تحرق يدي وفي . . . ويخجل لي انني اذا سطرتها على الورق فانه يلتهب بها ايضاً .
ولكن يا عزيزي ما قيمة الحب والميل اذا كان الانسان يفتحي من اجلهما « الواجب » والضمير .
انه حينئذ يشتري راحة صغيرة بتعب كبير . ولذة خفيفة بالم شديد . فيا ايليا انت تحبني ولكن كن
متيقناً انك اذا تركتني وحدت من طريقي تحسن اليّ والى نفسك اضعاف حبك لي . فانه حينئذ
يجوز لضميرك ان يقول انك لم تكن لي عذاباً واضطهاداً ونقمة دائمة . واذا كانت المسيحية
هي ترك الاساءة كما قلت فبالله اذكر الان انك مسيحي . . . ايليا ايليا . انني اردت ان
اطلعلك على حقيقة نفسي في هذا الكتاب لتعلم انني لست بدون قلب ولا انا بجاحدة

فهز ايليا حينئذٍ رأسه وعجب من نفسه لاصفائه لكلام هذا المعتوه . فاجابه باستخفاف
ظاهر في وجهه : سنتباحث في هذا ايها النبي ارميا . ثم تركه وعاد الى منازل المزرعة
اما ارميا فانه تأمل فيه وهو عائد عنه وقال في نفسه : انك تضحك مني ولكني اقسم
بالله انني ساحرمك اياها

وكان الهدوء قد عاد الى المزرعة ودخل كل واحد الى غرفته للرقاد بقية الليل . وكذلك
ارميا دخل الى احدى الغرف لينام . ولكنه كان ينام بعين وبسر بالآخرى وهو يقول في
نفسه ضاحكاً فضحك المجاذيب « ان ايليا سيخسر الفتاة من ذات الباب الذي رجبها منه »

الفصل الرابع عشر

✽ الكتاب ✽

في ان عواطف المرأة قد تنقلب بغتة وتنبض دفعة واحدة

وفي صبيحة اليوم التالي استغرق ايليا في الرقاد ولم ينهض باكراً . الا انه وهو في
الفرش سمع ضوضاء شديدة وحركة اجتماع . فنهض من فراشه ليستنظر الخبر . فلم حينئذٍ
ما جمد دمه في عروقه وجعله يشب عن الارض ذراعاً . وهو ان استير قد فرت من المزرعة
في الليل وتركت له على مائدتها كتاباً بخط يدها . فصاح ايليا في الحال منادياً : ارميا .
ف قيل له انه لم يطلع عليه الصبح في المزرعة . فصاح ايليا حينئذٍ لقد فرت بها ابن اللثام .
ثم عمداً الى كتاب استير ففتح يده مرتجفة وقلب ملتهب وقرأ فيه ما يأتني

« يا صديقي ايليا

« ارجو منك ان تسامحني لتركي المزرعة بدون علمك . واشتق علي لانني في غاية
التعاسة . انني لم اعد اطيع الاقامة في المكان الذي نقيم فيه يا ايليا ولذلك افر منك .
فانسني ولا تذكرني بعد الآن . ولا تحاول كشف مكاني فانك لا تعلم به ابداً . ان بيني
وبينك هاوية عظيمة . فاذا قطعتم اليك صرت تعيسة لرفاقي دين ابائي واجداداي واذا
بقيت بجانبك بعيدة عنك كنت اشد تعاسة وعذاباً لانني اخاف ضعفي . فيا صديقي
ساعدني على نسيانك وبعدي عنك بنسياني وبعدي عني . وبجياة عينيك يا ايليا لا تخالف
ارادتي هذه . انا اعلم ما تعانیه لاتباعها ولكن كن على ثقة من ان كل عنائك لا يساوي

ولما سألت البنات استير عن سبب بكائها اجابتهن انه حلم مريع . ولكنها لم نقص
لهن شيئاً من هذا الحلم . وفي الحقيقة انه كان مؤثراً . فان استير لم تكذب ترقد حتى رأت
نفسها في كنيسة جاثية امام الصليب وهي تقول « انني اكفر يا سيدي عن جنابة
امتي » لكنها لم تلبث ان رأت امها العجوز المقعدة قد دخلت الى الكنيسة ركضاً لانها كانت
تفتش عنها . واذا بصرتها صاحت بها « أهكذا تتركينا يا استير . اهذه ثمرة اتعابنا فيك »
فانتهت استير مذعورة مرتعدة واندفعت تبكي بكاء شديداً دون ان تمالك نفسها كما يحدث
كثيراً للذين يرون احلاماً مؤلمة

وكانت حينئذ قد دخلت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل . وبينما كان الفتيات
يسكن روع استير في داخل الغرفة جاء ارميا وطلب الانفراد بابيليا . فخرج اليه ايليا عابساً .
فأخذه ارميا الى جانب في ساحة المزرعة وابتداء الحديث بقوله : يا كبيره ايليا على اية
شيء عزمت الآن . فدهش ايليا واجاب اي شيء تريد . فقال ارميا المعتوه انت تعلم
ان الصيد ان صاده . وانا وانت قد اصطدنا صيداً فلماذا تنفرد به انت وحدك . فحمق
ايليا وصاح به ما معنى كلامك هذا . فضحك ارميا ضحكة شديدة واجاب : انظرت
يا كبيره ايليا . انه لا يفضب الا المخطي . واما الذي يكون ذا حق مثلي فانه يكون هادئاً
دائماً . واسمع لافسرك كلامي . يا كبيره ايليا . ضع يدك على صدري فتعلم ان لي قلباً
مثل قلبك . وهو يتحرك ايضاً كما يتحرك قلبك . فانا احب كما انت تحب . واول ما وقع
نظري على هذه الفتاة الوثنية احببتها من صميم قلبي . وصرت ارى من واجباتي هدايتها
الى الايمان الحقيقي . ثم لما اصطدناها معاً على الطريق ليلة امس صار لي حق فيها . وانت
ايضاً لك فيها حق لا ينكر . فاذاً تريد الآن هل تبيعني حقك ام تشتري حقني

فعند هذا الكلام تحول غضب ايليا الى ضحك رغماً عنه ولكنه بقي يظهر الجذ فقال
ومن اخبرك انني احبها ثم ما هي طريقة هذا البيع والشراء
فقبه ارميا واجاب : اما حبك فقد عرفته . واما البيع والشراء فله ثلاث طرق .
الاولى ان تقترح على الفتاة فالذي يرغبها تكون له . والثانية ان ننظر في الدين فالذي
يغلب رفيقه تكون من نصيبه . والثالثة ان تكون الفتاة للذي يتنازل للثاني عن وظيفته .
فانا وظيفتي حراسة وراثه اورشليم على الجبل وانت وظيفتك رئاسة هذه المزرعة . فاما
ان تبقى في وظيفتك وتكون الفتاة لي او تأخذ وظيفتي على الجبل تاركاً المزرعة لي فتكون
الفتاة لك

وكانت عين ايليا آخر عين رقدت في المزرعة في تلك الليلة
الا ان عيناً اخرى من غير المزرعة كانت حينئذ في ظلمة الليلة ترصد المزرعة من
خارج وتحوم حولها كما يحوم النسر على الفريسة . ولذلك لم تمر نصف ساعة بعد منتصف الليل
حتى كان شيخ يتسلق جدار المزرعة ويهبط اليها
وكأن هذا الشيخ كان يطلب في المزرعة غرضاً معلوماً لانه لم يهبط الى ارضها حتى
سار متلصصاً نحو غرفة استير ووقف على نافذتها المشرفة على فناء المزرعة

وهناك بقي جامداً هامداً يصغي بكل جوانحه
لكن هذا الشيخ لم يكذب يستقر في مكانه وراء النافذة حتى علا من غرفة استير صراخ
وبكاء . فاجفل الشيخ وصار ينظر حوله خوفاً من ان يفاجئه احد . ثم اشتد البكاء مقروناً
بزفير وشهيق متصلين . فيظهر ان ايليا انتبه على صوت بكاء استير فهب من رقادته مهرولاً
وخرج من باب غرف المزرعة قاصداً نافذة استير الخارجية ليتنصت عليها . فما كاد يصل الى
النافذة حتى لمح الشيخ الاول الذي كان واقفاً هناك

وكانت زوبعة امس قد سكنت والريح هادئة والظلام دامس . فهجم ايليا بشجاعة
نحو الشيخ ولا سلاح في يده غير قبضته . ولما وصل اليه اخذ بيديه اخذاً شديداً وصاح
به . من انت (١) فضحك حينئذ الشيخ ضحكاً شديداً واجاب : اما عرفتي يا كبيره ايليا .
حينئذ عبس ايليا واجاب : وماذا تصنع هنا يا ارميا

اما ارميا وهو عين الشيخ المذكور فانه زاد ضحكاً واجاب : انا اصنع كما تصنع انت .
فغضب ايليا حينئذ وقال : يا ارميا ان نزولك الى المزرعة تحت جنح الدجى امر غير حسن .
ثم تركه ايليا ودخل فايقظ الشيخ سليمان واخبره ببكاء استير في الليل ووجود ارميا في المزرعة
اما الشيخ سليمان فلم يبال بهبوط ارميا الى المزرعة في تلك الليلة لان ايليا لم يوقفه على
سبب ذلك . ولهذا لم يهتم الا بامر استير . فذهب في الحال وبه بناته . وبعد ثلاث دقائق
اجتمعوا في غرفة استير يؤانسونها

اما استير فانها لما وقع نظرها على ايليا زاد بكاءها حتى كاد يُغمى عليها . وكان ارميا
من خارج يسمع صوتها . فقال في نفسه : اذا لم تكن ذلك الليلة فغداً

« ١ » قال روسو في كتابه « اميل » اذا تعرض لك في ظلام الليل الدامس شخص على حين فجأة
فاول ما يجب عليك دفاعاً عن نفسك ان تقبض عليه من جانب يديه وان تضغط عليه بكل قوتك وتسأله
من هو وماذا يريد ولا تتركه الا بعد طمأنينة نفسك

« الحق والعدالة والمحبة » مقام كل شيء . فيا استير ضعي يدي في يدك لتعيش بسلام في هذه الارض على هذا الدين الجديد الذي تحترم فيه كل الاديان . فانت تحترمين مذهبي كما احترم انا مذهبك وتترك الزمان يفعل فعله . واذا اقتضت الحال عرض مساً لئنا على البطريرك فلا اطلب منك شيئاً أكثر من ثقيل هذا الصليب الصغير امامه كما قبلته الان امامي »

هذا ما خاطب به ايليا استير لدى قبر الراهب ميخائيل . وكانت استير مصغية اليه اشد اصغاء في اثناء كلامه . وان القلم ليحجز عن وصف ما قام حينئذ في نفسها

الفصل الثالث عشر

✱ حلم استير ✱

في ان للجاذيب قلوباً تعرك ايضاً

ولما رجعت استير من سياحتها في المزرعة مع ايليا كانت صفراء اللون بعد الاحمرار مبهوته تفكر كثيراً وتنهّد كثيراً . وفي تلك الليلة لم تتناول طعاماً ولا نظقت بكلمة . وكان الشيخ سليمان يحب من هذه الحالة ولكن ايليا كان يراقبها مراقبة شديدة ليعلم ما وراءها لانه كان على ثقة من انها نتيجة حديثه معها

فكأن هذا الحديث هدم الحواجز التي كانت في نفسها فاشتغلت هذه النفس بالخرائب التي حصلت فيها . وهذا شأن الهدم اذا لم يُقرن بالبناء . وقلماً يُبنى على انقاض الاخرى المهدومة ولما هبط الظلام استأذنت استير في الدخول الى غرفتها للنوم طلباً للراحة . وقبل ان دخلت اليها ألقت في خلال كآبتها وانقباضها نظرة الى ايليا وابتمت له . فطار صواب ايليا لهذا الابتسام الملائكي وقال في نفسه لعله جواب ايجابي عما تقدّم

واتفق ان غرفة ايليا كانت بجانب غرفة استير . فلما مضى المزيغ الاول من الليل دخل ايليا الى غرفته ايضاً . وبعد ان خلع ملابسه وورقده في فراشه سمع ثقلاب استير في فراشها في غرفتها . فعلم انها لم ترقد بعد . فبقي ايليا ساهراً في فراشه لا يزور الكرى جفنيه حتى سكنت حركات استير وورقدت . وكان ذلك بعد منتصف الليل . فالوى ايليا حينئذ رأسه على وسادته وتنهّد تنهّداً من صميم قلبه ثم استسلم الى الكرى فطارت روحه الى عالم الاحلام للالتقي بروح استير التي سبقتها اليه

اغفر لكم فاذا لم تشائي الايمان بي فلا اقل من التألم لحادثي» — فيا استير مدي يدك
 بجراحة الى هاتين اليدين وخذي بها ولا يرو عنك امرها . هوذا انظري . منذ طفولتي
 اعتادت امي ان تعلق في عنقي صليبا صغيرا علقى اياما على الصليب الكبير القائم في الجلجلة
 والذي لا يزال حتى اليوم بختمه كما ختمته الملكة هيلانه ام قسطنطين * (١) فاليك هذا
 الصليب الصغير لئلا تزالين تخافين منه . خذيه في يدك . نعم هكذا . . انظري اليه
 بحنو لا بخشونة . . لماذا تبكين يا اختي . هل هذه الدموع للغيظ ام للحنان . اذا كانت
 للغيظ فرديه الي . وان كانت للحنان فبالله ضعيه على شفتيك . آه ما اشد حنان قلبك
 وارق عواطفك . . اسمحي لي الآن بعد وضعه على شفتيك ان اقبله انا ايضا . .
 وبذلك لا اقبله فقط بل اقبل ايضا شفتيك . استير استير اني الان في
 اشد حالات الهياج ولم اعد قادرا على ضبط نفسي . فانا اصبح على مسمع منك والله يسمع
 كلامي ويشهد علي : اني احبك احبك . . بحياتك لا تنفري واسمعي . . انني منذ وقع
 نظري على نظرك مرت في نفسي كهربائية نفسك . . قد كنت ملكت هذه الحياة الباردة
 الجافة وسئمت كل ما فيها لان كل ما فيها صغير دميم خشن دنيء اما الان بعد ان عرفتك
 فقد صرت اراها جميلة مثلك . نعم ما اطيب العيش وما ارغد الحياة معك . ان كل الاشياء فيها
 تستمد حينئذ بهاءها من بهائك . وكل الوانها تصبح حمراء زرقاء بيضاء بلون خدك وعينك
 وعنقك . واما لون شعرك فلا تستمد منه ايامي شيئا معك . فيا جميلتي ان الله ارسلك الي كما ارسلني
 اليك . فلا تركي الحواجز الصناعية التي يضعها البشر تحول بيني وبينك . يا استير . لا تنظري اني
 قد مت لك كل تلك المقدمة الطويلة لاحولك عن مذهبك . كلا يا اختي اني احترم
 مذهبك وكل مذهب يجد فيه صاحبه راحة وسلاما وحقا وفضيلة . وانما قصدت ان
 اعلمك احترام مذاهب غيرك . قصدت ان اريك انه من المضحك في الحياة ان ياء كل
 الروءساء الحصرم والمروءوسون يضرسون . فالرؤساء يضعون الترتيبات والنظامات التي
 تفرق بين البشر والبشر يتبعونهم مغمضي العيون كهميان يقادون الى حيث لا يعلمون .
 فما لنا ولم يا استير فاندعهم في اعمالهم ومصالحهم ولنعمل نحن ايضا ما فيه مصلحتنا . لنضع
 اديان البشر جانباً في مكان مقدس محترم ونجتمع على دين جديد يقبل كل الاديان
 الفاضلة ولا يرفض احدها . وهذا الدين هو دين العدالة التي نقدّم ذكرها والحق والمحبة
 والصنع للجميع (٢) . ونحن الصغار المروءوسون المظلومون بهذه الحياة في اشد حاجة الى اقامة

» ١ درايرون » ٢ هنا يظهر في كلام ايليا اثر تعليم الراهب كما ورد في ختام خطبته على المجمل

العالم . فهم الذين كانوا مهد الدين والوحدانية . هم الذين كانوا اول من بذروا في الارض مبادئ المساواة الاجتماعية والعدل والعبادة النقية المنزهة عن عبادة الامور الحسية . وتاريخهم تاريخ الصلة الاولى بين الله والناس . ولكن هذا الاعتراف يا استير يجب ان يكون كاملاً . وكما ان نعترف ايضاً بالسيئات بعد اعترافنا بالحسنات . فنقول ان شريعة قومك بعد التحول الجديد الذي طرأ عليها كما وصفته لك لم تعد بكافية للانسانية . لان ارتفاع الانسانية كان يستوجب شريعة ارق منها . ولذلك جاءت الشريعة المسيحية بآدابها النقية وقداستها السماوية . فنشي واجهي يا اختي اين تجددين في الكتب القديمة مبادئ كالمبادئ الانجيلية انظري يا عزيزتي ان المعطلين والوثنيين انفسهم يفتخرون باحترام امام هذه المبادئ بصرف النظر عن المسائل الدينية لانها ارق صورة للكمال في هذا العالم . وكثيرون من قومك العقلاء المنصفين يعترفون بذلك . واؤكد لك اني سمعت ذلك منهم باذني . ولا نقولي ان تلك المبادئ مستمدة من التوراة فان المتصفين (١) الذين يطلبون الحقيقة المجردة دون انتصار لحزب دون حزب يثبتون انها منقطعة عما قبلها انقطاعاً حقيقياً . ومتى ثبت هذا فقد ثبت الحق في جانب واضعها والمحقوقة في جانب الذين اضطهدوه من اجلها

فيا اختي استيري . فلنضع كل جدال ديني جانبا . لنترك المباحثات التي لا فائدة فيها لبشر بقول قاصرة محدودة كقولنا . انت يهودية وانا مسيحي . ولكن لا انت بمنعك دينك ان تعترفي بالحق ولا انا بمنعني ديني ان اعترف به . والا فان الاديان تكون اديان فساد لا اديان صلاح وصدق واخاء ومساواة . فانا اعجب بتاريخكم وبشعبكم وبمحكماتكم وبقوة نفوس امتمكم . ولكن اعجابي هذا سابق لصلب الصديق . واما ما بعده فاني آسف لانكم لم تجدوا في نفوسكم وحكم القديم للصدق والحق والعدل من القوة ما يمكنكم من الاعتراف بالخطأ الهائل الذي حدث على يدكم . فيا استير اخبريني . ابطاوعك قلبك اللطيف الرقيق بعد الآن ان تخافي من الصليب الذي هو رمز انتصار الحق وانكار الذات والآلام والمصائب الارضية . بالله قولي . ماذا طلبوا منك على الطريق لكي تظهر لي كل ذلك التفار والاباء من طلبهم . طلبوا منك ان ترسمي في الهواء على صدرك بآشارة يدهك شكلاً كشكل هذا الرمز . فلو رسمت هذا الشكل لما كان لذلك من معنى لديك سوى هذا « اني اذكر بهذه الاشارة ان الحق لا يداس في الارض بل ينتصر ابداً » ثم هل علمت معنى اليمين المدودتين اللتين خفت منهما في الدير ؟ معناها « يا اختي يا بنت دمي ولحي اني مت وانا

« ١ » في مجلته الفيلسوف رنان في كتابه تاريخ المسيح

كل امة او حكومة تريد الخروج عن جادة الحق . ولنتمسك بالعدالة المطلقة كما تقدم .
 فان التمسك بالعدالة المطلقة هو الذي يجيز الآن مثلاً لك ولقومك ان تحتجوا على ظلم
 المسيحيين لكم حتى لو كان في هذا الظلم مصلحة كل الامم المسيحية . ولكن هذا التمسك بالعدالة
 المطلقة يوجب يا اخي الاعتراف بالجناية الهائلة التي حصلت على الجلجلة . وبدونه يكون
 كل نظم رياء وكلاماً فارغاً ذاهباً في الهواء . فان الحق حق لا يتجزأ . وسواء في ذلك لدى
 العدالة المطلقة حق فرد او حق امة . فيا اخي فلنعترف بالجناية الهائلة التي حصلت .
 لنبحثُ كلنا معاً امام الصليب لانه رمز ابدى لا يفنى الى « الحق » الذي يجب ان لا
 يداس في العالم واذا داسه احد فانه ينتصر ابدًا . لنضع شفاهنا على نقط الدم التي جرت
 عليه لنمحوها بالقبلات والدموع . لنبكٍ بحزن وألم امام الذي تحمّل الآلام بصبر الهي
 بلا ضعف ولا شكوى . ولذلك قيل فيه « اذا كان موت سقراط موت رجل حكيم فموت
 يسوع كان موت اله » (١) وفي الحقيقة يا اخي اي بشر يستطيع تحمّل ما تحمله يسوع بقوة كقوته .
 اي انسان وصلت فيه الانسانية الى هذا الحد من الكمال الالهي . استير استير . هنا أرى يد الله
 ظاهرة كالشمس . هنا أرى الارض تتوارى مدهوشة لان اشياءها واشخاصها لا تستطيع ان تصل
 الى هذا الحد من الكمال . فاذا انكرنا هذا المثال الالهي الذي شاء الله اعطائه للارض الناقصة
 النعيسة زعزعنا الكرة الارضية كلها . لانه بنفس العقل الذي ينكر به هذا المثال ينكر
 كل ما في الارض من السماء . تنكر التوراة حينئذٍ ويقال عنها انها اساطير قديمة جمعت
 في ازمئة مختلفة بناءً على شريعة منسوبة لموسى مع ان موسى لم يكن له وجود في العالم كما
 يقول كثيرون من اكابر العلماء (٢) تنكر نبوءات اشعيا ودانيال وغيرها في مجيئ المسيح لانهم
 يقولون انها صُنفت تصنيفاً لعدم وجود رجلين باسم اشعيا ودانيال في الارض قط وان تلك
 النبوءات لبست الا هذرو وهذيان شيوخ كانوا مغتاضين من البابليين الذين اسروهم وسبواهم
 الى بابل ولذلك كانوا يعللون نفوسهم في احلامهم وضيقهم بمنقذ يعيد ممالكهم اليهم . تنكر
 ايضاً حينئذٍ كل ما في الارض من آثار العناية الالهية يا استير ونصير كلنا في ظلام ابدى .
 فما الداعي الى كل هذه الخسارة يا اخي . وماذا نرجى في مقابلتها . لا شيء . اذا فلنعترف
 بقدرة الله على كل شيء . فلنعترف بافعاله الظاهرة في مخلوقاته . فلنعترف كل فريق منا
 بفضائل ومزايا الفريق الآخر . انني يا اخي احب قومك حباً شديداً واعرف فضلهم على

(٢) اسم موسى في

(١) قول لمجان جاك روسو في كتابه اميل

الانسكلوبيذبة الفرنسية

وقيصر كل الكراهة ويطلبون الى الله ان يخلع عنهم نيره ومع ذلك لم يأتوا من تسليم واحد منهم للصلب بحجة انه يقاوم قيصر مع انه هو القائل لمن استنتاه في طاعة قيصر «اعطوا ما لله لله وما لقيصر لقيصر»

وماذا فعل ابن الانسان يا اخي عند ما رأى كل هذا الافتراء والظلم والرياء . اسمعي ماذا فعل . انه لم يغضب ولم يحقد . وفي ليلة صلبه جمع تلامذته وودعهم وغسل اقدامهم وفي جملتها قدما جاحده وعدوه يهوذا الذي اسلمه . ولما قبضوا عليه للصاب لطموه على خده وبصقوا في وجهه ووقفوا حوله يعرضونه للناس ويستهزئون به . ومع كل ذلك بقي ساكناً هادئاً ثم اخذوه خارج المدينة وهناك صلبوه بين لصين فسمروا يديه ورجليه واقتسموا ثيابه واجتمعوا حوله يضحكون منه . وكان قد تركه كل الناس حتى تلامذته الا النساء يا اخي فانهن مثال الرقة والحنان ومعرفة الجميل . ومع هذا وهذا بقي المصلوب يا اخي ساكناً هادئاً . وهل تعلمين يا اخي اول كلمة قالها على الصليب بعد ذلك ؟ هي هذه مخاطباً الخالق « يا ابنا غفر لهم لانهم لا يعلمون ماذا يصنعون » يا اخي انظري الى دموعي . فلقد مضت على هذه الحادثة اكثر من ستائة سنة وقراءتها اكثر من ستائة مرة ومع ذلك فاني ابكي لدى ذكرها لك الآن بكاءً بفتت كبدي . وبما ارق قلبك يا اخي واشرف عواطفك . انني اجثو الآن باحترام لدى هذه الدموع التي اراها نازلة من عينيك لانها دليل على طهارة الانسانية في داخلك . نعم يا اخي ان كل انسان فيه ذرة من طينة الانسانية الطاهرة يتألم لهذه الحادثة التي انتصر فيها الباطل وخذل الحق بصرف النظر عن كل مسألة دينية . والانسان الذي يتألم لها لا يتألم فقط شفقة على عذاب الصديق بل لمصلحة نفسه ايضاً . اننا في الارض يا اخي كننا عرضة لاعتداء الظالمين والاشرار والمفترين . فواجب علينا ان يكون لنا مبداء يحميننا من الظلم والافتراء لنتمسك به في ظلمات هذه الحياة تمسك الغريق بخشبة في البحر . وهذا المبداء هو (العدالة) — العدالة المطلقة لكل انسان كبيراً او صغيراً قوياً او ضعيفاً مؤمناً او وثيقاً اذ بفقدان العدالة المطلقة تفقد الحياة اساسها واثمن ما فيها . وكل واحد من الناس يصير حينئذ في خوف على نفسه لئلا يتجهله التقادير المظلوم الذي لا بد من ظلمه لمصلحة طائفة او امة او دولة . وهذا ما يسمونه « بمصلحة الدولة » (١) وبهذا المبداء يا اخي صلب الصديق اذ قال قومك في جمعهم يوم قرروا صلبه «خير ان يموت واحد من ان تموت الامة » فيا اخي فلننبذ هذه القاعدة القبيحة التي تحتج بها

مغمض العينين لئلا يرى الشر والنساء * ومع ذلك فانه كان يأ تي في السر أكثر ضروب الشر . وإذا كانت جبهته تدمى أحياناً من لطمه جداراً في طريقه * لمشييه مطبق العينين فان كثيرين من الناس كانت قلوبهم دامية من اساء آتة وقسوة قلبه وسوء معاملته . وهكذا الصائم ايضاً فانه كان اذا صام عدّ عمله فضيلة وان كان ينقض بافعاله ومعاملاته كل اصول الفضائل . وهكذا حافظ السبت وهلمّ جرّاً

فإذا فعل ابن الانسان يا اختي لدى هذه الامور الجافة الباردة . هل اعترض على الدين . كلا . انه قال « ما جئت لآنقض بل لأكمل » وانما نفسه اللطيفة كانت لاتستطيع قبول هذا الخروج عن الشرائع الالهية الابدية . لذلك نادى ان العشّار الغريب المنبوذ افضل من الكاهن الفريسي اذا هو استقبل الله بقلب نقي . والسامري المضطهد المحتقر افضل من اليهودي اذا هو اغاث غريباً جريحاً على طريق اريحا ولم يغنه اليهودي . وبذلك وضع اساس الاخاء والمحبة بين جميع اجناس البشر على الاطلاق هادماً الحواجز الاجتماعية الموضوعة بينهم وجاعلاً مقياس الفضل والصلاح ومحبة القريب صنع الخير المجرّد لاي انسان كان . ولما قالت له المرأة السامرية على بثر شكيم (نابلس) ان اليهود يقولون ان الصلاة لا تجوز الا في اوروشليم صاح بهائلاً : « ابتها المرأة قد جاءت الساعة التي فيها يُعبد الله في كل مكان بالحق والروح » اي ان كل انسان يجب ان يكون كاهن نفسه . وعبادته يجب ان تكون في كل مكان « بالحق والروح » اي بطهارة القلب دون شعوزة لربح المال ودون ظواهر مادية محسوسة . فيا اختي ان هذه العبارة وحدها هدمت العالم القديم لتنشئ عالماً جديداً . ووا اسفاه ليت العالم الجديد يبتقي متمسكاً بها

فمن ذلك يا اختي استير نفهمين السبب العظيم الذي من اجله ثار قومك على ابن الانسان . فانّ البشر لا يؤلمهم شيء مثل التعرض لمصالحهم وكبريائهم للاضرار بها . وهم اول ما يشعرون بالضرر والا لم يستتروا بالدين وينادون بان تلك المبادئ التي تضرّ مصالحهم تضرّ الدين وتهدمه . وهذا ما جرى يومئذ . فانه لما قويت سلطة ابن الانسان على الشعب وراعى الكهنة والفريسيون ان تلك المبادئ الجديدة ستهدم مبادئهم ومصالحهم اذا استمروا ساكتين عنها قاموا يفترون على صاحبها بخيانة الملة والامة والتجديف على الدين . ولكي يتمكنوا من بلوغ اربهم منه كذبوا عليه لدى والي الرومان ييلاطس بانه يقول انه « ملك اليهود وهم لا يريدون ملكاً غير قيصر » فيا اختي هل رأيت في زمانك قط ظملاً كهذا الظلم ورياء كهذا الرياء . ان قومك كانوا يكرهون الرومان

فهمت استير ان تجاوب ايليا فصاح ايليا : دعيني اكل اولاً وبعد ذلك نقولين ما تشائين . فيا استير لو صليوك — لا سمح الله — في دير العذراء فإذا كان يقول اهلك وقومك . انظري انني لا ابحت هنا في مسألتنا من وجه ديني قطعياً بل انني اضع الدين والتوراة والانجيل جانباً واسالك كفتاة رقيقة القلب تبغض الشر والقسوة والظلم . فاجيبيني . ايه ذنب جناه المصلوب الذي سفك دمه اجدادك اسمعي ولا تقطعي حديثي فانني اعرف اعتراضاتك . انك تقولين انه خان وطنك وجدف على دينك ورام هدم هيكلك . ولكن كل هذا لا ابالي به ولا يلتفت اليه اليوم احد . وانما يجب ان نسأل من كان الحق والمحق في تلك الحادثة الهائلة . فصاحب الحق وحده هو الذي يجب ان يعطى الحق بقطع النظر عن كل شيء .

واسمعي من كان صاحب الحق في هذه الحادثة — ما ذا كان يقول المصلوب ؟ — اليك خلاصة مطالبه يا اختي بصرف النظر عن المسألة الدينية فانني لا انظر معك هنا الآن الا في ناسوته نظراً بشرياً

جاء ابن الانسان يا اختي من دم يهودي . فنظر قومه وشعبه شاردين عن كتابهم . ان كتابكم التوراة يا اختي منعم بمبادئ العدالة والرفق والصدق والمساواة والحكمة . ولكن هذه المبادئ كانت لا تمتدى الكتاب . اي انه لم يكن منها شيء في النفوس . فالكهنة الأقوا في الامة طبقة ممتازة لها السيادة والقوة والثروة والجاه . وكان الشعب تحتهم يثنون من الفقر والذل والضيق وهو ينظر شزراً الى الاغنياء والعظماء لان غناهم وعظمتهم مخالفان لمبادئ المساواة الاجتماعية المعلنة في التوراة . وكان هذا الخلل الاجتماعي لم يكن كافياً وحده لعذاب الشعب المسكين فجاء مقرونًا بخلل ديني ايضاً . فوضعوا ان العبادة الحقيقية لا تكون الا في هيكل اورشليم . اي انهم جعلوا بين نفوس البشر وبين خالقها تعالى حاجزاً عظيماً لا يرفعه الا الكهنة خدمة ذلك الهيكل . ولا عجب في ذلك لان دخل الهيكل كان المورد العظيم لرزقهم وثروتهم . ثم استطردوا من تقيد الدين بالمكان الى تقيده بالجنس . فقالوا ان كل الامم كلاب ولا انسانية الا في شعب اسرائيل . ولذلك كانوا يعتبرون باقي الناس نجسين لا يجوز لليهود معاشرتهم ولا الاحسان اليهم . وبما ان العبادة قد تقيدت بالمكان والجنس لزم ان يخرج هذا القيد قيوداً اخرى ومن هنا بدأوا يدخلون على دين موسى ما ليس منه شيء . فاصبحت الظواهر الدينية الذي يسهل العمل بها مقدمة على البواطن لصعوبة العمل بها . فصار مثلاً الفريسي يمشي في الشوارع

كاسلك المشور . اولادنا يكون وآباؤنا يحزنون وبناتنا يلبس السواد لانك نصرت الاعداء علينا . ولا نكاد نجد لدى هذه الامم القاسية ملجأ نأوى اليه براحة وسلام مع عيالنا ولا حجرًا نضع عليه رؤوسنا . اسمع كيف يتهمون علينا ويضحكون منا . يقولون انك اقمت اسرائيلاً جديداً بدل اسرائيل القديم . ولكن هل انت قاس الى هذا الحد للعامل القديم بعد اقامتك الجديد . لماذا لم ترشد القديم الى هذا الجديد اذا كانوا صادقين في ما يقولون . وبناء على هذا اردت اليك يا ايها النبي ايليا الكريم سهام برهانك قائلة : لا يمكن ان يكون الله هو الذي هداكم لانه لا يمكن ان يضانا

اما ايليا فلما سمع هذا الكلام اثر فيه اشد تاثير وخيل له انه يسمع صوت امة باسرها ينادي هذا النداء . فلم انه يستحيل عليه بعد كل ما بذله من الجهد ان يقنع الفتاة من طريق الكتب والدين ما دام كل واحد يرى الامور بعين تختلف عن عين الآخر . فترك ايليا الكتب والدين جانباً ورام البحث من وجه آخر . وقد قال في نفسه ان استير اذا تحركت احشاؤها وتاثر من هذا الوجه فانها تكون كأنها صعدت اول درجة من درجات الايمان ولذلك قال للفتاة وهي في اشد اضطراب

يا اختي استيري انني اندب معك حالة قومك . وآسف للاضطهاد الجائر الذي يصيبهم من عدوان الناس وبغضهم . وكوفي على ثقة من ان المسيحيين الذين يصنعون هذا يخرجون عن حدود المسيحية لان المسيحية انما هي حب الاعداء ومباركة المبغضين . ولكن اشتراكي هذا معك لا يعني يا اختي من تذكرك بامرٍ جدير بالذكر في هذا الموضوع . وهو ان الذي داس الحق في زمانه لا توتر كثيرًا في النفوس شكواه من دوس الناس حقه . وانضرب لذلك مثلاً

لنقترض ان العامة في ليلة عيد الميلاد في بيت لحم وجدت فتاة يهودية تدعى استير فثارت تصوراتها وطلبت اما تنصير الفتاة او قتلها لانها خالفت اوامر الحكومة بالدخول الى بيت المقدس . فارسلت الفتاة الى دير على جبل الزيتون لاعتناها بيجود دينها . فرفضت ذلك رفضاً قطعياً وفضلت الموت على ترك دين آباؤها . فقام اولو الامر وصلبوا على خشبة واهانوها وقتلوا . ثم بعد الوف سنين صارت اوروشليم الى اليهود وقام محل الدير المسيحي في جبل الزيتون معبد يهودي كان اليهود يصلبون فيه الفتيات المسيحيات اللواتي ياببن مجود دياتهن . فاي تاثير يكون في النفوس لكلام المسيحيين اذا كانوا يقولون يومئذ ان اليهود برايرة لانهم يصلبون الفتيات المسيحيات . الا يرد حينئذ اليهود عليهم بقولهم اننا تعلمنا هذه البريرة منكم

لك ان نقول بجي ملك السلام . ماذا تجيب عن هذا
 فنجب ايليا في نفسه من اخراج استير الموضوع عن محوره الاول ومهاجمتها له بدل
 الدفاع . فتأمل هنيهة ثم اجاب : اذا انت لست باسرائيلية يا اخي ؟ فصاحت استير
 وقد تركت البكاء كيف ذلك . فقال ايليا لاني لو كنت اسرائيلية لكنت تؤمنين
 بالله تعالى خالق هذا الكون ومدبره . فصاحت استير كلبوة مجرحت : بلا شك انا او من
 بالهنا واله آبائنا واجدادنا . فقال ايليا حينئذ : فكيف تؤمنين بوجود الله يا اخي ولا
 تؤمنين باعماله . اتظنين انه يقوم شي في الارض ويعم الدنيا كلها بدون ارادته . دعينا
 من النظر في الكتب فان كل فريق منا يؤولها تأويلاً ينطبق على مذهبه ومصالحته ولننظر
 في الاشياء بمقولنا فقط . الا يجب ان تعتبري انتصار المسيحية في الارض وتغلبها على
 الاديان القديمة وعقول ملايين البشر دليلاً على انها من افعال الله تعالى . فهذا برهان
 واقعي بسيط على ان تاويلي للنوراة اصح من تاويلك . ولا ينقض هذا البرهان الا القول
 بان الله لا يدير شؤون الكون بل ليس هو بوجود اصلاً وهذا الامر اجلك عن ان نقولي
 به او تفكري فيه . يا اخي كلنا عباد الله ولا تسقط شجرة في نظام الكون ومسير الدنيا
 بدون ارادته . ومتى اعتقدنا هذا الاعتقاد ثبت لنا ان انهدام اوروشليم القديمة وقيام
 اوروشلينا الجديدة كان بارادة الله وفعله لانه رأى ذلك افضل لنظام الدنيا . فيجب علينا
 اذا ان اسلم لارادة الله ونعترف بافعاله . ولا نعارض في احكامه
 فعند هذا الكلام تحول ضعف استير الى قوة وغيط فنظرت الى ايليا بعينين ثائرتين
 وصاحت :

يا كبيره ايليا لا نهتدونا بالهنا وربنا فانه لم يسقطنا الا لينهضنا . اسمع قول هوشع
 النبي في اصحابه الثالث « لان بني اسرائيل سيقعدون اياماً كثيرة بلا ملك وبلا رئيس
 وبلا ذبيحة وبلا تمثال وبلا افود وترافيم . وبعد ذلك يعود بنو اسرائيل ويطلبون الرب
 المهم وداود ملكهم ويفزعون الى الرب والى وجوده في آخر الآيام » ونحن الآن بلا ملك
 لان مملكتنا زالت وبلا ذبيحة لان هيكلنا قد هدم ولكن ستعيد مملكتنا وهيكلنا طبقاً
 لوعدهنا . نعم ان الله يستحيل ان يترك شعبه . واذا تركه حينئذ فما ذلك الا لتأديبه .
 وقد كفانا يا الهنا هذا التاديب الهائل . لقد اخذوا بلادنا وسلبونا ارثنا واقتسموا كل مالنا .
 حتى انت نفسك صاروا يدعونك المهم لا الهنا . وبذلك اصبحنا غرباء ضعفاء في الارض
 التي عاهدت نفسك على اعطائنا اياها لنا ولاولادنا . انظر اليها اننا منشثون في جميع اقطارها

نعتدّ به «الم يكن يسوع هكذا يا اخي» ثم انه يقول «لبس مبغضني تعظم عليّ فاخترني منه بل انت انسان عديلي . الفى . وصديقي الذي معه كانت تحلو لنا العشرة » فلماذا يا اخي صنع قومك هكذا مع صديقه وصديقه . اسمعي ايضاً نبوءة النبي داود في مزموه الثاني والعشرين « احاطت بي » (عذراً فلا اذكر هنا الكلمة يا اخي لثلاث نسوك) جماعة من الاشرار اكتشفني . ثقبوا يدي ورجلي . اُحصي كل عظامي . وهم ينظرون ويتفرّسون في . يقسمون ثيابي بينهم وعلى لباسي يقترعون « - افاتم كل هذا يا اخي بصلب شيلون . وكيف نستطيع انكار مجيئه بدون مناقضة التوراة كتابك وكانت استبرئني في اثناء هذا الكلام وتعضّ شفثها من شدة تأثرها . فلما فرغ ايليامن كلامه صاحت من صميم قلبها : يا كبيره ايليا لقد ظلمتني . فانك انت تقول كل شيء وانا لا اقدر ان اقول كل شيء . وهذا سبب شدة تأثري وبكائي . فانا اکتني اذا بشيء واحد . انكم تظنون ان نبوءات التوراة تنطبق على يسوع الناصري ولكن رجال ديننا يقولون انها لا تنطبق عليه . وحسي ان اذكر لك نبوءة واحدة دليلها في الآن . ان رئيسنا وملكنا داود قال في مزموه الثاني والسبعين متنبأ عن زمن المسيح « بشرق في ايامه الصديق وكثرة السلامة الى ان يضحل القمر » اي الى نهاية العالم . فهل الصديق هو المنصر في العالم الآن . واين هذه السلامة الموعودة . انظر فاني انا ابكي امامك الآن واضطرب كريحة في مهب الريح . ثم ان يوثيل النبي يقول في اصحاحه الثاني « ويكون بعد ذلك . اي بعد سعادة اسرائيل بمسيحه . اني اسكب روحي على كل بشر » فهل روح الله الآن في اولئك الذين يضطهدون ويظلمون ويملاون الدنيا بالشور . وقال ميخا في اصحاحه الرابع مشيراً الى المسيح « يقضي بين شعوب كثيرين . ينصف لامم قوية بعيدة فيطبعون سيوفهم سكاكاً ورماحهم مناجل . لا ترفع امة على امة سيفاً ولا يتعلمون الحرب فيما بعد » فيا صديقي ايليا هل جرى شيء من هذا الى الآن لنقول بمجيء المسيح . انظر ان السيف والثار ياكلان العباد والبلاد في كل الجهات . وهوذا اوروشليم نفسها محصورة الان بنطاق من الرماح والسيوف . وقال اشعيا في الاصحاح الستين والخامس والستين مخاطباً اوروشليم بعد مجيئ مسيحها « لا يُسمع بعد ظلم في ارضك . ولا خراب او سحق في تخومك . بل تسمين اسوارك خلاصاً وابوابك تسبيحاً - الذئب والحمل يرعيان معاً والاسد يا كل التبن كالبقرة . اما الحية فالتراب طعامها . لا يؤذون ولا يهلكون في كل جبل قدسي » - فيا اخي ايليا هل تمّ هذا كله . هل ساد السلام في الارض بين البشر والحيوانات كما تنبأ اشعيا ليحوز

بالمسيح يا كيريه ايليا ولكنني اؤمن بالمسيح الحقيقي الذي لم يأت بعد ولا بد ان ياتي
فظهر ايليا حينئذ ضاحكاً الى تينك الشفتين الورديتين اللتين كان يخرج منها هذا
التجديف على الاسم الذي يندبه بدمه . وقال في نفسه : لو خرج هذا التجديف من شفتين
غير هاتين الشفتين لعرضتهما وقطعتها باسناني . لانني اذا كنت ابحث في الكائنات
والفلسفات بحثاً عقلياً مجرداً عن كل تقليد فاني اضع دائماً فوق كل بحث وكل علم اسم
الذي مس يوماً باصبعه الالهية صورة الكمال السماوية فكان مثلاً لها في هذه الحياة
المملوءة بالصغائر والنقاص والشور

فبعد ان فكر ايليا هنيهة اجاب : يا ابنتها السيدة انت امراييلية ام لا . فقالت استير
نعم امراييلية . فقال الا تعتقدين بصحة التوراة . فاجابت استير بلا شك اعتقد بها . فقال
ايليا . فالتوراة كتابك المقدس يشهد ان المسيح قد اتي

فهمت استير ان تجاوبه فابتدرها ايليا بقوله . دعيني اأكل أولاً وبعد ذلك قل لي ما
تشائين . اسمعي يا استير . هل قرأت الاصحاح التاسع والاربعين من سفر التكوين .
اسمعي ماذا يتنبأ يعقوب لابنه يهوذا . قال « يهوذا اياك يحمدا اخوتك . يدك على قفا
اعدائك . يسجد لك بنو ابيك — لا يزول قضيب من يهوذا ومشترع من بين رجله حتى
يا تي شيلون » اي المسيح لان هذا احد اسمائه . فيا استير ان قضيب الملك قد زال من
يهوذا وتفرقت مملكته ايدي سبا . وهذا يدل على ان « شيلون » قد اتي

فهمت استير ان تجاوبه ثانية فصاح ايليا : دعيني اأكل أولاً . ما قولك يا استير نبوة
اشعيا في اصحاحه السابع . اسمعي ماذا يقول « يعطيكم السيد نفسه آية . ها العذراء تحبل وتلد
ابناً وتدعو اسمه عمانوئيل (الذي تفسيره الله معنا) فيا استير ان العذراء قد حبلت وولدت في
بيت لحم الصبي المنتظر طبقاً لقول ميخا النبي في الاصحاح الخامس حيث يقول « اما انت يا بيت لحم
فانت صغيرة ان تكوني بين الوف يهوذا فنك يخرج لي الذي يكون متسلطاً على اسرائيل . ومخارجه
منذ القديم منذ ايام الازل » فيا اخي استير هل من شهادة افصح واباغ من هذه الشهادات
وكانت استير قد بدأت ترتعد من غضبها وتأثرها خصوصاً لان ايليا لم يكن يترك
لها سبيلاً للجواب . فتأثر ايليا اشد تأثر لذلك فقال : يا اخي سكتي روعك ولا تخافي من
الحقيقة اذا لمستها اصبعك . ولا يسوءك تأثرك الآن اذ ما هذا العناء بالقياس على العذاب
الذي لقيه غيرك . اسمعي ماذا قال اشعيا في الاصحاح الثالث والخمسين عن عذاب « شيلون »
« محتقر ومخذول من الناس . رجل اوجاع ومختبر الحزن وكسّ راعته وجوهنا . محتقر فلم

فاننا لا نعلمها . وحسبنا ان نكون صالحين طاهري القلوب مسلمين امورنا الى الله تعالى فنعيش كلنا في الارض اخوانا في اخوانها اختلفت مذاهبنا . — هذا ايها السيدة هو الراهب الذي اجفلت من ذكر اسمه . افكنت ترفضين مباحثته كما رفضت مباحثتي لو كان حياً وكانت استير مصغية الى ايليا اشد اصغاء . فلما فرغ من كلامه قالت : اذا لم يكن هذا الراهب مسيحياً ؟

فقهه ايليا فقهه تكاد تسمع من المزرعة واجاب : بل كان مسيحياً يا اخي لان هذه هي المسيحية الحقيقية فسكنت استير هنيئة ثم اجابت : حقاً هذه اول مرة اسمع بها مثل هذا الكلام عن مسيحي . ولكن كيف كان ايمانه به ...

وقد نظقت استير بهذا الكلام على غيروي نظرياً . فترك ايليا حينئذ الضحك وصار يفكر بجدي واهتمام في الجواب الذي يجيبها به . ذلك لانها انما قصدت بسوءها السوء الـ عن ايمان الراهب ميخائيل بالمسيح . والبحث في ذلك معها صعب لعدة اسباب منها رغبته في ان تكون مسيحية والا فلا يمكنه الاقتران بها وهذا يقتضي مباحثتها في ذلك بحثاً دينياً لا بحثاً عقلياً . فشرع اولاً في البحث الديني فاجاب : يا سيدي نسا لينني سوء الآ غريباً اذ كيف يكون الانسان مسيحياً ولا يؤمن بالمسيح

وكانت استير قد تحسست من كلام ايليا الذي قال لها فيه انه يحتمل ان تكون مرسله اليه من العناية الالهية لهدايته . فجمعت قواها كلها لمباحثته في امر كانت قد سمعت كثيراً من المباحثات فيه لعلها تهديه . ويا للغرابة . ان هذه هي اول مرة بدأت بها تميل الى ايليا . ولكن لالا . لا غرابة في ذلك لان هذه هي اول مرة بدأت بها تهدم الحاجز الاجتماعي الذي كان بينها وبينه . ومضى انهدم هذا الحاجز مسّت نفسها بنفسه بحكم الطبع فتناخيان بأمن وسلام

اما نفس ايليا فانها لم تكن محتاجة هذا الهدم ليحصل التأخي بينها وبين نفس استير لان هذا التأخي حصل لها من النظرة الاولى

فلما سمعت استير جواب ايليا ابتسمت وقالت : وانت يا كبيره ايليا اصدقني . اتؤمن به ايضاً . فاجاب ايليا برزاة : بلا شك ايها السيدة . واني آسف لانك لاتؤمنين انت به ايضاً . فابتسمت استير واجابت . هل تغضب اذا جهرت بكل رأيي كما يغضب ابناء مذهبك او تريد ان اسكت . فقال لالا تكلي يا سيدي . فقالت استير انني اؤمن

اللاتاني رمن اجند ابك في دير العذراء . ولكنك تحطئين بهذا القياس . فان العامة اناس لا رأي لهم غير ما تلقنوه وهم لا يفكرون بعقولهم بل بعقول غيرهم . والراهبات وغيرهن من المنقطعين الى الله في الاديرة وغيرها لا يلامون اذا تمسكوا بمعتقدهم تمسكهم بالحقيقة المطلقة لانهم لو لم يكونوا يعتبرون انه الحقيقة المطلقة لما انقطعوا اليه عن كل ملاذ الدنيا . اما نحن باقي البشر الذين لنا عقول نعقل بها وعلينا ان نعيش مع عناصر مختلفة في الارض فان حالنا غير حال اولئك . فاننا انما نحن تلامذة البحث والتنقيب والاخذ والرد . ثم ابسم ايليا وقال . فاجبني معي يا ابنتا السيدة ولا تخافيني اذ ما ادراك انك لم ترسلي من السماء لهدائي . ما ادراك ان العناية الالهية لم ترسلك الي لا عطائي ما ينقصني الى الان فابسمت استبر لهذا الكلام اللطيف وظنت ان ايليا يريد به الجهة الدينية . وفي الحقيقة انه كان يريد به الجهة القلبية اذ ما كان ينقصه معلوم مما تقدم

ثم ان ايليا اردف كلامه السابق بقوله : ومصادقا لقولي ابنتا السيدة الكريمة اذكر لك شيئا عن صاحب هذا القبر الكريم الذي اجفلت منه لمجرد معرفتك انه راهب . هل سمعت يا سيدتي ببادي . واخلاق الراهب ميخائيل . هذا الراهب صرف كهولته في جمع المال من اهل المال ولكنه توفي ولا فليس في صندوقه لانه كان يوزعها كلها على الفقراء والمساكين . وكان عنده جميع الفقراء على السواء مسيحيين ويهودا ونجوسا لانهم كلهم عيال الله كما كان يقول . هذا الراهب اضطهده بعض الناس حسدا وبغضا واساءوا اليه وقطعوا رزقه ولكنه كان يباركهم الى آخر نسمة من حياته . وفي ساعة موته اشار الي فدنوت منه فقال لي وهو يجود بنفسه : اذا سافرت الى بلادي يوما رايت احدا منهم فقل لهم انه يقرئك السلام ويطلب ان تصادوا من اجله . هذا الراهب طرد من سلك الرهبانية لانه خطب خطبة لام فيها الحكومة ورجال الدين لاضطهادهم اليهود في سوريا وفلسطين . وكان كلما مر في طريقه يهودي فاذا كان فقيرا يحسن اليه بشيء من المال واذا كان غير فقير استوفقه وحادثه وآتاه وذلك على سبيل الاحتجاج على اضطهاد الحكومة لبني جنسه . وقد قلت لك انه كان « يحسن » الى الفقير والصحيح كما كان يقول انه كان يني له « الدين » الذي عليه . هذا الراهب عاش في هذه المزرعة عشرين سنة وليس بين الناس هنا وفي القدس واحد يقول انه اساء اليه بشيء ما طول حياته حتى ولا الكهنة الذين كانوا في خلاف معه . هذا الراهب اذا جادل الناس بعضهم بعضا امامه في الدين كان يعبس ويقطع حديثهم بقوله : فلنبحث يا اولادي في ما نعلمه ونفهمه من شؤون السماء اما شؤون الارض

وبعد وصول ارميا الى ايليا واستير لزمها ولم يعد بفارقها . وكان كثير المراقبة لاستير على الخصوص . فلاحظ منه ايليا هذه المرة ما لم يلاحظه من قبل . فاستاء في نفسه وعاد بالفتاة الى المزرعة

وبقيت استير كئيبه حزينة طول النهار فحاول الشيخ سليمان كثيراً ان يزيل كآبتها فلم يقدر فاحال عليها ايليا قائلاً : هل انت جساد لا تتحرك . فكيف نترك هذه الفتاة تذوب كآبة لفراق اهلها ولا تحاول تعزيتها
فوا اسفاه ان الشيخ سليمان لم يكن يدري ايضاً ما كان في نفس ايليا

محبة المسيح وصلبه

وفي ذلك المساء قبل غروب الشمس بساعتين عرض ايليا على الفتاة ان يذهب بها ليربها الحقول والبساتين في المزرعة . فرضيت الفتاة بذلك وذهبا يتنقلان بين تلك الطبيعة الجميلة التي زادت عناية يد الانسان ثماراً وجمالاً
وما زالا سائرين حتى بلغا قبر الراهب ميخائيل . وكان ايليا قد نثر الزهر في الصباح على القبر حسب العادة . وكان حول القبر عدة مقاعد من حجر فجلس على احدها وجلست الفتاة بعيدة عنه . وبعد ان جلست سالت ايليا عن صاحب ذلك القبر . فلما سمعت امم « راهب » اجفلت ونهضت . فاستاء ايليا في نفسه لهذه الاهانة لاستاذه ولكنه اظهر الابتسام والضحك فقال . اجلسي اجلسي يا اخوتي لتحدث في موضوع نفورك . وارجو ان نسمحي لي بذلك فان هذا الامر قام في نفسي منذ رأيتك على الطريق تمنعين عن انقاذ نفسك وايبك بعلامة ترميها على صدرك

فنهنا جزعت استير جزعاً شديداً وصنع الاصفرار وجهها من شدة الجزع . فثارت نفس ايليا لذلك وصاح : يا اخوتي اقم لك بخالق السماء والارض الحكم والهنا اني لا اقصد الاساءة اليك او الى معتقدك بشيء . فاني من الذين يحرّمون الضغط حتى على ضمير النملة اذا كان لها ضمير . فعلام هذا الجزع والخوف من لا شيء

فدمعت عينا استير واجابت باضطراب شديد . لا اريد ان اباحث احداً في هذه المواضيع فاني رأيت اسلوبكم في البحث اول امس في طريق بيت لحم وامس في الدير فهنا ابتمس ايليا واجاب . اسمعي ايها الفتاة الكريمة لازيل سوء ظنك واهانتك بكنيتين . انك تقيسبني ايها السيدة على العوام الذين شاهدناهم في طريق بيت لحم وعلى الراهبات

بلاطفها ويتناولن طعام الصباح معها . وكانت هذه اول مرة يري فيها ايليا استير وجهها لوجه على ضوء النهار

فراى ايليا استير فتاة في نحو العشرين من العمر وكانت بقدر رشيقي طويل كأنه غصن بان وجهه ممتلئ ناصع البياض كالثلج تخالط بياضه حمرة الصحة والعافية كأنما اجتمع فيه كل ما في الورد من اللون الزاهر . وفوق وجهها التفاحي الجميل شعر ابنوسي يولف سواده الفاحم مع ذلك البياض وتلك الحمرة منظرًا عجيبًا . اما العينان فقد انفردتا بلون رابع وهو اللون الازرق الصافي صفاء بديعاً وهو ما يندر تحت الشعر الاسود . فكان هذا الرأس الملائكي الجميل آلى خالفه على نفسه ان يجمع فيه كل بياض الزنبق وحمرة الورد وسواد المسك وزرقة السماء باشد جمالها ومعانيها ليكون مثلاً للجمال الذي يمكن ان تدركه عين بشرية

فلما شاهد ايليا في ذلك الصباح وجه استير على نور الشمس سجد قلبه في صدره لصانع هذا الحسن . وادار نظره الى السماء من النافذة ليرى ايها اعمق واجمل زرقة عيني استير ام زرقتها وبعد الطعام طلبت استير محادثة ايليا فهرع الشاب اليها وخرج معها الى الحقول . فلما رآها الشيخ سليمان سائرين قال : لقد آن ان يكون لايليا شمس تبدد همومه الدائمة . فاطن ان استير ستكون من بنات المزرعة بعد الآن

ولما انفردت استير بايليا ابتدأت الكلام قائلة : ماذا نصنع الآن يا كبيره ايليا هل اذهب الى المدينة ام ياتي ابي الى هنا لاخذي . فتتهد ايليا واجاب . يظهر ايتها السيدة انك غير مسرورة بالاقامة هنا . ولكن ما الحيلة انك لا تقدرين على الذهاب الى المدينة لان جيوش العرب تحصرها كما ذكرت لك وابوك لا يقدر ان ياتي اليها لانه لا يستطيع ترك امك وحدها

فاغرورقت هنا عينا استير بالدمع لدى ذكر امها وتنهت بكآبة وحزن . فكاد قلب ايليا يتفطر لعنائها . وبعد السكوت برهة قالت استير والى كم يطول حصار المدينة . فاجاب ايليا لا اعلم فعلينا ان نتظر منتعي هذه الحادثة

وفي هذا الحين التفت ايليا نحو المزرعة فابصر ارميا راکضاً نحوه . ولما وصل اليها حياها ببشاشة واخبر ايليا ان اهل دير العذراء دروا في الصباح بفرار الفتاة فاضطربوا وكتبوا البطريك وارسلوا يسألون ارميا هل رآها فاجابهم ارميا انه ما رأى احداً

وفي الحقيقة ان جواب ارميا لم كان ان شاباً يدعى ايليا في مزرعة الشيخ سليمان هو الذي اختطفها

الزوايا بداخل الكوخ . فعاد ايليا عن الباب متنهداً . وبقي الاثنان بعد ذلك ساكتين ولكن «الهوى» في قلبه و«الهواء» في الخارج على اغصان الارزة كانا يتكلمان ويثران زئيراً شديداً وبعد نصف ساعة سمع صوت حوافر جواد ينهب الارض نهباً فنهض ايليا لعله ان ارميا قد عاد من المزرعة . ولكنه عجب من هذه السرعة . لانه لم يكن يدري ان ارميا سار في ذهابه بسرعة الجواد وعاد بسرعة الجواد لكي لا يترك استير مع ايليا وقتاً طويلاً وكانت استير قد دقت قليلاً في داخل الكوخ فغيرت ملابسها بالملابس الجافة التي جاءها بها ارميا ثم ركب الجواد وهمت بالمسير . فقال ايليا لارميا خذ بقياد الفرس يا ارميا ومر سيراً سريعاً . فحك ارميا راسه واجاب . بل دعني اسير على مهل وراءه يا كبيره ايليا لانني تعب . فاخذ ايليا بقياد الفرس وسار امامه دون ان يدري بالسبب الذي من اجله طلب ارميا ان يكون وراءه . وهكذا سار الثلاثة بين العواصف والقواصف ايليا امام واستير في الوسط على ظهر الفرس وارميا وراءه . وكان ارميا لا يرفع نظره منها ولما وصلوا الى المزرعة كان الشيخ سليمان ينتظرهم فدنا وقبل راس ايليا سروراً بفعله ثم دفع استير الى بناته فاستقبلنها استقبال اخت وصديقة قديمة . وقد خصصن بها غرفة بجانب غرفتهن فنامت استير بقية الليل نوماً هيناً بعد ان عجبت كثيراً من هؤلاء المسيحيين

الفصل الثاني عشر

﴿ بين مسيحي ويهودية ﴾

وفي فجر اليوم التالي قبل ان نتعارف الوجوه تقريباً كان على قبر الراهب ميخائيل الكائن في وسط المزرعة كما تقدم شخص جالس يتأمل والبرد قارس والريح شديدة . وكان هذا الشخص ايليا لانه لم يبق بقية ذلك الليل . وكان يقول وهو جالس على القبر : يا استاذي ميخائيل . ان خطبتك على الجبل كانت حداً فاصلاً وطوراً جديداً في حياتي . وما انا الان قد وصلت الى طور جديد آخر . انني لم اكن افهم لذة الوجود وبهجة الدنيا ولذلك سئمتها وضجرت منها . اما الآن فصرت افهمها . انما ارجو من روحك الكريمة التي ترزقني في فضاء هذه المزرعة دائماً ان تمس قلب استير وتجعلها تشعر شعوري ولما طلع الصباح وانتبه اهل المزرعة عاد ايليا اليها فوجد بنات الشيخ سليمان عند استير

لينتظروا المسيح فيها ويكونوا اول من يستقبله من ابناء اسرائيل . وقد استأجروا في القدس منزلاً صغيراً بازاء الجدار الذي كان المسيحيون يلقون عليه فضلات منازلهم (١) وكان الثلاثة كثيراً ما يخرجون في ظلمة الليل سرّاً ويقفون هناك ويصاؤون باكين الصلاة التي يصليها بنو اسرائيل دائماً امام جدار هيكلهم القديم في اوروشليم وهي :

(يقول واحد) من اجل الهيكل المقدس العظيم (فيرد الجماعة) نقف بذلة وننوح
(" ") من اجل اسوار هذه المدينة الساقطة (" ") نقف بذلة وننوح
(" ") من اجل مملكتنا التي بادت (" ") نقف بذلة وننوح
(" ") من اجل رؤسائنا الذين ماتوا (" ") نقف بذلة وننوح
(" ") آه تحنن على صهيون (" ") واجمع شتات اورشليم
(" ") اعد سابق مجدك لصهيون (" ") وانظر مترجماً اليها الخ

وقد مرت عليهم ثلاثة اشهر على هذه الحال وفي كل يوم كان يذهب ابو استير لمشاهدة آثار المدينة ويحتلظ باهلها متزيّياً بزي اليونانيين والسوريين . اما استير فانها كانت تخرج احياناً من المدينة مع ايها وتجلس على رابية عالية لترى منها هل المسيح آت ام لا . وفي اكثر الاحيان كانت تلازم امها العجوز المقعدة في البيت وتخدمها . ففي ليلة أمس اشتت استير ان تشاهد عيد المسيحيين في بيت لحم ففضبت امها من ذلك ولكن اباهارضي باخذها الى بيت لحم فذهبا للتفرج فيها فخرى لهما ما جرى

فلما سمع ايليا هذه القصة صار يسأل نفسه هل هذه العائلة ساذجة الى هذا الحد حتى خاطرت بنفسها في القدس من اجل هذه المسالة ام هنالك امر آخر كتمته عنه استير او كتمه اهلها عنها ولم يظهروا لها منه غير المسالة الدينية : الا انه كان يظهر في كلام استير انها مخلصه في قولها كل الاخلاص ولذلك رجع ايليا السذاجة على السياسة

وبعد السكوت حيناً ابتدر ايليا الكلام فقال : فامك اذا الآن في المدينة يا اختي فلما سمعت استير كلمة « اخي » من فم الشاب حصل ارتياح في نفسها لازدياد طائفتها . انما نسألت في نفسها هل يجوز لمسيحي ان يدعوها اخته . ثم اجابت والدموع في عينيها لذكر امها : نعم يا كبيره ايليا وهي مقعدة لمرضاها

وكان استير بعد هذا الحديث رأت انها فعلت ما كان عليها ولذلك انزوت في احدى

١ هو بقية هيكل هيرودس الذي اقامه على هيكل سليمان ووراءه اليوم حي اليهود في القدس على ما في الخريطة التي امامنا وهو احد جوانب الحرم المشهور

لماذا تكون الوثنيات جميلات هكذا

وكان المطر لا يزال شديداً في الخارج وابليا لاجيء منه تحت الارزة لان استير لم تدعه ليدخل احتماً منه في الكوخ وابليا لا يمكن ان يدخل بدون اذنهما . فازداد استياء ابليا لاساءة الفتاة ظنهما به . ولكن مع ازدياد استيائه هذا ازداد حبه لها . اذ لا شيء يزيد الحب مثل التمتع والجفاء

ويظهر ان استير قد شعرت بخشونتها . لانها لم تلبث ان اخرجت راسها من باب الكوخ وتحت الحديث بقولها : هل الفجر بعيد يا كبيره ابليا

فتنهذ ابليا ودنا نحو الكوخ واجاب . اظن ابتها السيدة انه لم يبق من الليل سوى اربع ساعات . فقالت . ولما هذه المزرعة التي سندهب اليها . فاجاب هي لرجل كريم يدعي الشيخ سليمان وهو الذي ساءه خبر مجنك في هذا الدير . ثم قص عليها شيئاً مما جرى له معه فعجبت استير من ذلك في نفسها . لانها بناء على ما سمعته من قومها وما راته من هيجان العامة امس في طريق بيت لحم لم تكن تعهد ان يوجد بين المسيحيين رجلا نكاليا والشيخ سليمان يساعدان المظلوم وان كان من غير دينهما ولا يعرفان عنه شيئاً

وهذا واسفاه داء من ادواء البشر فان كل فريق منهم يخص قومه بالفضائل ودون سوام ثم دار الحديث بين ابليا والفتاة . وكان اول ما سألها عنه سبب وجودها مع ايها في بيت لحم في ليلة امس . فعلم منها ابليا قصتها وهي

كانت استير من عائلة امراييلة مقيمة في مصر . وقد شاع يومئذ في المملكة البيزنطية كلها ان النجسين قالوا ان السلطنة ستصير الى قوم مختونين * (١) فثارت تصورات بعض الاسرائيليين وانتشر بينهم ان المسيح اي المسيح الذي لا يزال اليهود ينظرونه فادم لاعادة ملكتهم والاستيلاء على العالم . وفي ذات يوم ورد على ابي استير كتاب من بلاد العرب مع رسول من ابناؤه جنسه فتأهب بعد هذا الكتاب للسفر الى فلسطين مع زوجته وابنته . وكانت زوجته في نحو السبعين من العمر وهي مقعدة لمرض عضال اصابها وكانت اقصى امانيتها ان تموت في اوروشليم وتطلق روحها في فضاءها بجانب هيكل سليمان . ولذلك فرحت فرحاً شديداً بسفرهم الى فلسطين . وقد شاركتها ابنتها استير في هذا الفرح لانهم قالوا لها ان المسيح سيظهر في ذلك العام في فلسطين . فجاؤا الى اوروشليم مختفين متكرين

١ لذلك يقول بعض ادباء العرب ان هذه النبوءة انطبقت عليهم . وهو من الغرابة بمكان . ولكن لعل هذه النبوءة لم تظهر الا بعد ظهور العرب

ولكن يظهر ان السماء رامت الانتقام من استير لانها اساءت الظن بايليا . فهبت على الجبل في تلك اللحظة زوبعة شديدة تمازجها رعود وبروق وتلج ومطر شديد كافواه القرب . وكانت استير بثياب النوم . فنجزع ايليا لهذا المصاب الجديد فخلع عنه رداءه شتوياً كان عليه والقاء على جسمها . الا ان ذلك لم يجدها نفعا فان المطر بلل جميع ثيابها والبرد قاص وجهها واطرافها والتعب اثني قوتها فسقطت على الارض ضعيفة واهية القوى . فنجزع ايليا جزعاً شديداً لذلك فدنا من استير وقال : ايها السيدة استندي الى ذراعي لاحمل عنك شيئاً من مشقة السير فنصل في وقت قريب . فترددت استير اولاً اذ كيف يجوز ان تمس يدها يد مسيحي . ولكنها رأت انها بدون ذلك لا تستطيع السير فنقضت وهي ترتعد من الخوف واسنانها تصطك من البرد . فوضعت ذراعها اليسرى في ذراع ايليا اليمنى اي اخذ ايليا جانب قلبها ثم سار بها . ف شعر ايليا حينئذ بسرعة نبض ذلك القلب اللطيف لخوفه وتعبه فازداد نبض قلبه ايضاً كأنما سري بين القلبين نوع من الكهرباء .

ولكن الفتاة لم تحط بخطوتين حتى سقطت لعدم استطاعتها الوقوف . فازداد قلق ايليا فدنا منها ثانية بوجل وقال : هل تسمحين لي ان احملك

فعند هذا السؤال نفرت استير بانفة وأشارت برأسها اشارة سلبية . وكان قلبها يقول حينئذ : الموت برداً اسهل من ان يخالط جسمي جسم رجل خصوصاً اذا كان مسيحياً

وفي هذه الدقيقة سمع على الطريق من جهة المزرعة صوت اقدام تعدو بسرعة شديدة يخاف ايليا ولكنه لما ظهر صاحب الصوت صاح به — ارميا ارميا اسرع الي . فاجاب ارميا كبيره ايليا . ماذا تصنع هنا . ولما وصل ارميا وشاهد استير فعم سر المسألة . فوقف مبهوئاً يتأمل . ولكن ايليا لم يطل وقفته بل انه صنع من بعض ثيابه وثياب ارميا ملفاً لف به جسم استير دون راسها ثم حملها كل واحد منهما من طرف . وكانت المسافة بينهم وبين المزرعة ساعة والمسافة بينهم وبين كوخ ارميا تحت الارزة عشر دقائق فقط ولذلك اسرعا بها الى هذا الكوخ لانقاء المطر والبرد

وعند وصولهم ادخلت اليه استير واغلق عليها الباب وبقي ايليا وارميا خارجاً يوقدان النار لتدفئة الفتاة وتجفيف ملابسها . وبعد حين كتب ايليا ورقة واعطاها الى ارميا ليوصلها الى المزرعة ويعود منها بملابس جافة وفرس للركوب

فسار ارميا وهو يتلفت الى الكوخ ليرى هل بقي ايليا خارجاً ام بدخل اليه . وفي طريقه كان يردد في نفسه قوله السابق لايليا تحت الارزة : يا لله ما اجملها . حقاً لا اعلم

فلما سمعت استير هذا الجواب اجفلت ووقفت . ثم تأملت في الهدوء الشامل حولها في ظلمة ذلك الليل في ذلك الجبل المقفر فخارت قواها وهلع قلبها لانها كانت تظن ان اباهما ينتظرها خارجاً . ولولا ذلك لما رضيت بالانفراد مع شاب في ذلك الليل . ثم تذكّرت ان ذلك المسيحي قال لها على النافذة انه قادم من قبل ايهاا فتجئ لها حينئذ انه احتال عليها بذلك لخراجها . فرجعت القهقري صائحة : انا عائدة الى الدير . فالصليب اهون من هذا فصعق ايليا لهذا الجواب واسرع وراء استير فجاءها من امامها وقال بادب وجد : يا ابنتها السيدة . انك لا تجهلين انني خاطرت ليلة امس بنفسي في سبيل انقاذك مع ابيك من ايدي العامة . فاي غرض كان لي حينئذ مع انني لم اعرفك من قبل . ولقد خاطرت بنفسي ايضا الليلة لانقاذك ولا غرض لي غير راحتك وراحة ضميري لاني عجزت امس عن انقاذك . فهل من العدل ان تجزيني على هذا الصنع بسوء الظن والاهانة الى هذا الحد فسكت استير حينئذ تفكر بنفسها وتساءل هل هذا المسيحي صادق في ما يقول . ثم اجابت . واين تذهب بي الآن . فاجاب ايليا الى مزرعة قريبة في سفح الجبل حيث تنتظر كثريرات من الفتيات مثلك وغداً بلافيك ابوك اليها . فقالت ولماذا لا نذهب الى المدينة . فاجاب ايليا لان جيوش العرب تحصرها فضلاً عن ان الابواب لا تفتح في الليل . فتنهدت الفتاة وسكتت . ولكنهما بقيتا ترتعد من انفرادهما باللقى في ذلك المكان

وكان القمر في تلك الساعة ملتجئاً بالغيوم السوداء المنذرة بالمطر والريح تمهب باردة برداً يدل على قرب مطر مثليج . ولكن كان القمر كان له غرض في الارض في تلك البرهة فاطل من وراء الغيوم ينظر بعينه البيضاء الواسعة الى الجبل والشخصين الواقفين عليه . وكان وجهه استير مستقبلاً القمر فلما وقع عليه اول شعاعه وراى ايليا بركة في عينيها سرت في جسمه كهربائية فتناه الغائبة التي احبها عشر سنوات متوالية . وكانت هذه اول مرة وقع فيها نظر ايليا على نظر استير وجهها لوجه . فذابت حشاشة ايليا لقسوة قلب استير وعدم فهمها عواطفه وعلم حينئذ ان اصعب شيء على القلوب الكريمة التي تستحق الحب الصادق لشرفها وصدقها وكرامتها هو ان تحب ويبقى المحبوب جاهلاً او نتجهاً حبها وكرامتها لا يثق بشيء لها حتى ولا باخلاصها لكن يظهر ان استير بعد ان فكرت ملياً اقتنعت بالذهاب مع الشاب لانه اهون الشربين . فقالت له وهل المزرعة بعيدة من هنا فاني اخشى المطر والبرد . فتنفس ايليا الصعداء حينئذ وقال نعم ابنتها السيدة ان المزرعة بعيدة ولكننا سنصل اليها في ساعة بعون الله ثم انه سار امامها يدلها على الطريق وسارت وراءه بخطى سريعة

باللغة العبرانية همساً — انا آتٍ من قبل ابيك ايها السيدة
وقد نطق ايليا بالعبرانية وذكر للفتاة اباها لكي يطمئن قلبها عند سماع كلامه ولا
يهولها منظره في ذلك الليل على حين فجأة
فلما سمعت استير لغتها واسم ابيها تركت البكاء بالحال واصفت . ثم دنت من النافذة
وقلها يخفق خفقاناً شديداً فوق نظرها على ايليا . عرفت من اول نظرة . فدنا ايليا وقلبه
يكاد يفجر صدره من شدة خفقانه وهمس قائلاً — ايها السيدة . انا منتظر هنا . فبعد
ساعتين بنام الجميع . فاخرجي بتائناً من باب الحديقة او من احدى النوافذ
فهنا تنفس استير الصعداء لتحقيقها الخلاص من امرها والانضمام الى ابيها . ولم تعد
تخشى من الديدن المدودتين لعلها ان رجلاً يجانباها . فبعد ساعتين تقريباً قرعت على
النافذة مرتين دلالة على استعدادها للخروج ثم خرجت لتسأل كانها طيف . وبعد خمس
دقائق ظهر شبحها في الحديقة

فهرع ايليا حينئذ مضطرباً ومسروراً معاً . فقال لها اتبعيني . ثم اتجه نحو جدار
الحديقة . فلما وصل اليه خالج ذهنه وذهن استير فكر واحد : وهو كيف تسلك استير
ذلك الجدار . فارتعدت لهذا الفكر فرائص الفتاة وبقي الفتي مبهوتاً . ذلك ان استير لا
يمكنها تسلك الجدار بدون مساعدة ايليا كحمله لها او انهاضها . وكيف يجوز ليهودية ان يمسها
مسيحي خصوصاً اذا كان ذلك في ظلة الليل على انفراد . الا ان ايليا انبته بسرعة الى حل
لهذا المشكل فانه شاهد على احد الاشجار في طريقه سلماً صغيراً . فركض مسرعاً الى السلم
فحمله وتسلك الجدار عليه دون ان يشعر احد من اهل الدير بخروجها منه

الفصل الحادي عشر

✱ الصليب اهون من هذا ✱

قصة استير

ولما خرج الاثنان من الحديقة كان قلب الفتاة يرنص مسرةً بالنجاة وقلب ايليا
يرنص اضطراباً لعاقبة صنعه هذا وفرحاً بانقاذ فتاته وراحة ضميره . لكن ما خطت استير
بضع خطوات حتى سألت ايليا بصوتها اللطيف : اين ابي
فتلجلج ايليا واجاب : سألقيه غداً ايها السيدة

قلبه نبضاً للجرأة والتهور اللذين ظهرا من الفتاة . وقال في نفسه انها لو فاهت بهذا الكلام امام احد من العامة لما بقيت حية زمناً طويلاً .

اما الراهبة فانها لما علمت ان الفتاة لم تكن وثنية بل امراييلية قالت بلطف مساوٍ للطفها الاول — يا اختي سواء كنت يهودية ام وثنية فان ضميري يوجب علي ان اسعى لهدايتك . ولكن لماذا لم تخبرينا من قبل بذلك . انني الآن عرفت سبب اغمائك حينما وقع نظرك في الصباح على صليب المخلص في الكنيسة . فيا بنية ارقدي الليلة بهدوء وسلام وغداً سنباحث في شأنك . الا تريد ان تاكلي شيئاً فانك لا تزالين صائمة منذ الصباح فبكت الفتاة وصاحت لا انام ولا آكل قبل ان ترفعوا هذا من هنا فانه لا يدعني استريح ابداً

ثم اشارت يدها الى زاوية فيها صليب صغير عليه السيد المسيح مصلوب وذلك دون ان تنظر نحوها

فلما سمعت الراهبة ذلك حمقت وكادت تستشيط غضباً لهذا الكلام الذي جرح صميم قلبها ولكنها كانت ظوية البال كثيرة الحلم فاجابت وقلها يقطر دماً من كلام الفتاة — يا اختي . هذا البيت بيتنا . ونظامنا ان نضع في كل غرفة فيه صليب مخلصنا . فلا نتحكمي فينا في بيتنا . لماذا تغلقين قلبك الى هذا الحد يا بنية . انظري الى المصلوب فهو يمد يديه نحوك . انظري الا يحيل لك انه يبتسم استقبالاً لك . انه حنون صفوح فلا تخافي ان يذكر لك جنابة آباءك . اسمعي اسمعي . فانه يخاطبك بلساني قائلاً : اذا كان التبن الذي يذثر في الريح العاصفة يعود ويجمع فملكته تعود وتجمع . لقد تشئت اورشليم القديمة وقامت مكانها باحر الله يا اختي اورشليم الجديدة . ونحن بنات اسرائيل الجديد نسقبل فيك الآن بنت اسرائيل القديم . فيا له من يوم جميل يوم تضعن ايديكن بايدينا لنمجد كلنا معاً اختنا الام العذراء التي اختارها الله ونفخ روحه في احشائها . نامي نامي يا بنية هذه الليلة علي تذكر هذه الآمال الجميلة وغداً سنباحث ملياً في امرك . وليكن الله معك

وهنا انقطع الصوت وسمع صوت الباب يغلق . ولكن ما اغلق الباب حتى علا صوت الفتاة بالنحيب والزفير وقد اشتد جزعها حينئذ لانها صارت يحس لها ان تترك اليدين الكريمتين الممدودتين اللتين ذكرتها الراهبة انما هما ممدودتان اليها . فكادت تجن من الخوف . فقصدت النافذة وهي تبكي وتطلب منفذاً لخواها وفتحها بعنف . فلطمت النافذة رءس ايليا فادتمته ولكن ايليا لم يبال حينئذ برأسه الدامي بل دنا من النافذة وقلبه يخفق خفقاناً شديداً اوقال

وبعد انقضاء دقيقة اخرى لم يسمع ايليا في اثنائها شيئاً انقل متسللاً منحنياً كلصوص الليل من نافذة الى نافذة وكانت كل النوافذ مغلقة لفصل الشتاء . وما زال سائراً حتى وصل الى آخر نافذة فسمع فيها صوتاً ضعيفاً كزفير وبكاء .

فنهنا جمد ايليا في مكانه وصار كله آذاناً تصغي . فبعد حين سمع في الغرفة باباً يُفتح وصوت اقدام . ثم سمع قائلاً يقول باللغة اليونانية

— يا اختي المحبوبة . خفي عنك فقد ازعجت ضميري بكائك وجزعك . ولذلك لم اقدر على الرقاد حتى الآن . فحياة اهلك اذا كان لك اهل ووطنك اذا كان لك وطن ان تريحي نفسك وتريحينا . انظري انا هنا كلنا اخواتك . وكل ما تحتاجين اليه يقضي في الحال . فنعيشين معنا بهناء وسرور لا ينقصك شيء ولا يزعجك شيء . ولا نطلب منك في مقابلة ذلك الا شيئاً واحداً

ثم سكوت الصوت فلم يجابه احد بل اشتدت صوت الزفير قليلاً . فاستاء نف ذلك الصوت الكلام قائلاً — ما بالك لا تجاوبين يا اختي . انا لم نطلب منك الا ما فيه خلاص نفسك . وهل مثلك تدنس نفسها بعبادة باكوس وجوبيثير وجينون وتترك الاله الواحد الذي لا اله الا هو الا تتجملين يا اختي من عبادة الاصنام والتماثيل الحجرية التي يكسرها اضعف انسان ييده

ولكن هذا الصوت لم يأت على هذا الكلام حتى اجاب صوت آخر صارخاً بجدة وبكاء — انا اعرف الله اكثر منكم

فصاح الصوت الاول بابتهاج قائلاً — شكراً لله شكراً لله . فلقد انار عقلك . وبأما احبلي اسم «الله» في شفيتك يا اختي المحبوبة . الآن ارحت بالي وعلمت ان النور قد بدأ يدخل الى نفسك . ولكن من اي ساعة بدأت تعرفين الله يا اختي المحبوبة

فاجاب ايضاً الصوت الثاني بنزق وحدة وبكاء — عرقته منذ ولادتي فهو الهى واله آباي واجدادى . هو الذي اخرجنا من مصر ووهبنا هذه الارض الميعاد وحمانا في خلال القرون والاجيال ولولانا لما عرفتموه . وهو لم يسمح لكم ان تستولوا على هذه الارض حيناً الا عقاباً لنا كما سمح بذلك للبابليين من قبل . ولكن كما حدث للبابليين سيحدث لكم ايضاً فيعيد الينا الهنا مملكتنا ويخزل اعداءنا

وكان ايليا يصغي الى المتخاطبتين بانبيه شديد لانه من بدء الحديث فهم ان الصوت الاول صوت احدى الراهبات ولعلها الرئيسة والصوت الثاني صوت استير حبيته . فازداد

نفسك . فماذا كنت تصنع ؟ اما كنت تقتل نفسك او تقتل ميجانك اذا لم تجد في وجهك غير هذا الوجه ؟ واذا سمعت ان احداً هجم على الهيكل لانقاذك الا تراه عادلاً ذا حق بذلك بل من واجباته ذلك لانه يرفع الاضطهاد عن ضمير بشري

وكان الشيخ يتكلم وابليا ينتفض من التأثر . فلما اتى الشيخ على كلامه ضاق الشاب ذرعاً وكاد يخنقه غيظه وانفعاله فوثب وخرج من الغرفة كالسهم الماروق . ثم اتجه نحو باب المزرعة وخرج منه عائداً الى جبل الزيتون وهو شارد الفكر لا يعي على شيء . ويظهر ان ضميره انبث بعد كلام الشيخ انبثاً شديداً ولذلك كان بعض اصابعه وهو سائر في طريقه ندماً على انه لم يأخذ على البطريرك عهداً ان يوصي الراهبات بان لا يتعرضن لمعتقد الفتاة وهكذا بقي ابليا في ذلك النهار بتيه في جبل الزيتون من مكان الى مكان حائماً حول الدير ومستقطباً نوافذه وجدران طالباً ارميا ليسأله ماذا صنع ومتساءلاً ماذا يصنع . ولما خيم الظلام اشتدّ وخز ضميره وجزعه لعناء حبيبته وخيل له انه يسمع بكاءها وصوتها يستغيث على ما ذكرته له تيوفانا . فجلس الشاب في الظلام والبرد الشديد على اكمة تجاه الدير . ولبت هناك شاخصاً في نوافذه المشرفة على الحديقة . ولكنه قبيل منتصف الليل بعد التفتيح طويلاً نهض على حين بغتة وتسأل نحو الدير فتسأل جدار الحديقة وهبط الى الداخل ونفسه في اشد حالات الاضطراب والانتقال

الفصل العاشر

﴿ انا اعرف الله ﴾

وفي تلك الدقيقة برز القمر من وراء الافق يعمم نوره الابيض اللطيف سطوح الدير فاستاء ابليا من ذلك لان النور فضاح . الا انه رأى في ظل الاشجار التي كانت مغروسة بجانب نوافذ الدير في الحديقة مخبئاً حسناً

فانسأل ابليا نحو تلك الاشجار واخذ يصني بكل جوانحه لعله يسمع شيئاً في داخل الدير . فلم تمض عليه دقيقة حتى ارتعدت فرائصه لاصوات هائلة بعيدة كانت واردة من جهة المدينة . فحشي ان يكون العرب هاجمين حينئذ على الدير . ولكن الحقيقة كانت ان جيشاً ثانياً وصل الى المدينة بعد الجيش الاول وكان صراخه هذا لارهاب اهل المدينة كما اوصاه ابو عبيدة

لأنك لم ننسَ ان الرهبان في مملكتنا كانوا في أكثر الاحيان اقوى من رؤسائهم لتحريكهم الشعب عليهم * وكما حالوا دون اصلاحات مهمة بهذا السبب الصغير * (١)
ثم سكت الشيخ . فقال ايليا بعد ان تأمل قليلاً . ولكن ماذا كنت تريد ان يصنع البطريك يا ابت . فهنا لم الشيخ الجدار بقبضته لظمة شديدة وصاح : كنت اريد ان يكون رئيس الشعب لا رؤوسه . قائده لا تابعه . فاننا نريد رؤساء يواجهون الشر والفساد وجهاً لوجه بلا خوف ولا رياء ويضربونه ضربة قاتلة بدل ستره واخفائه جنباً وضعفاً . اننا نريد رؤساء يربون الشعب تربية جديدة اساسها العدل والحق والصدق ومكافأة اصحاب الكفاءة الشخصية لكي يتقدم القادرون العادلون الصادقون النافعون وينزوي العاجزون والمتزلفون . ولا نقل ان الشعب يسخط ويغضب من الضغط عليه فان هذا ليس بضغط بل هو تدريب وتربية . واذا كان الطفل يغضب من ابويه لنا ديهما اياه في صغره فانه متى كبر وصار رجلاً عاقلاً يجتو باحترام امام ابويه شكراً لهما لانهما درباه على الرجولية ولم يتركاه طفلاً جاهلاً . فلو كنت مكان البطريك لقاومت العامة ونحست امر الشيخ والفتاة . فاذا وجدته جاسوساً عاقبته واطلقت فتاته واذا وجدته بريئاً اطلقتها معاً انتصاراً للعدالة والحق ولو قامت علي الدنيا كلها . اذ بدون هذا لا يتم اصلاح في الامة وكان الشيخ سليمان قد تحمس عند هذا الكلام تحمساً شديداً . فسكت هنيهة . ثم صاح ثانية : وهل تظن يا ايليا انك غير مشترك في الذنب الذي حصل . الا تعلم ان شاهد الشر شريك فيه اذا لم يبذل جهده لازالته . فهل صنعت حتى الآن شيئاً لخراج الفتاة من سجنها حيث نتعذب عذاباً شديداً . يا ايها الشاب ان ضميراً بشرياً يتألم الآن في دير العذراء لانهم يضغطون عليه . ان نفساً بشرية تطلب الآن الموت ولا تجده فراراً من تغيير معتقدها المحبول بلحمها وعظامها . ان صوتاً يستغيث الآن بالله ولا مغيث له . وانت من اسباب هذا كله . فضع نفسك يا ايليا مكان هذه النفس . افترض ان اليهود سجنوك في هيكل لم يجبروك على سجود دينك ومسيحك ويعلموك ان مبادئ المشنا والتلود والتوراة اسمى من مبادئ الانجيل لانها مصدره ويكرهوك على ترك المبدأ العاصي الذي تلتصق وتحمي به

(١) قال بابيت في الانسيكلوبيديا الفرنسية « ان الرهبان تكاثروا يومئذ في الاديرة كثرة متصلة حتى صار لهم على الشعب سلطة عظيمة فكانوا يتخذون هذه السلطة لزيادة جذبهم اليهم وذلك بجعله على النفس بالظواهر الدينية كالصور وغيرها ولذلك كانوا قادرين على تهيبه ضد الاساقفة والطاركة والموظفين حتى ضد الامبراطرة . وهذا ما جعل في الامبراطرة المصلحين منصراً الى اضعاف نفوذ الاكابر وخصوصاً الرهبان وتقوية السلطة المدنية الامبراطورية وتنقية الديانة »

فابتسم ايليا ابتسامة معناها انت مصيب في ظنك ثم اخذ يد الشيخ ودخل به الى منزله . وجلس يقص عليه كل ما جرى له وكان الشيخ سليمان في سن الستين تقريباً بلحية بيضاء منتشرة على صدره الواسع . وجسمه الكبير الظاهر عليه لوائح القوة والصحة يحمل رأساً كبيراً فيه عينان كبيرتان كسرت السنون حدتها . وكان لون وجهه الاسمر الذي لمحه حر الشمس والقوة التي تبدو منه مع شيخوخته في كل حركة من حركاته يدلان على ان هذا الرجل قد عارك الدهر في حياته عراكاً شديداً

ولما كان الشيخ يسمع قصة ايليا من حين قبض عليه العامة في بيت لحم الى حين مفارقتها تيوفانا امام الديركان تارة يضحك وطوراً يعبس وآونة يقوم ويقعد . ولما استوفى ايليا قصته بهت الشيخ وبقي مبهوئاً . وكان ايليا يقرأ حينئذ في هيئته وعينه دلالة التاءثر الشديد ويرى في نظره بروقاً ورعوداً . وبعد برهة وثب الشيخ سليمان وصار يتمشى بفضب في الغرفة . ثم صاح على حين بغنة : يا ولدي ايليا لقد اخطأت خطأ عظيماً فدهش ايليا واجاب وما ذنبي فاني قد بذلت جهدي لاقتناع البطريك باطلاق سراح الفتاة فرفض ذلك لان الشعب كان يطلب تعميدها

فهز الشيخ سليمان رأسه وصاح : هذه احدى آفاتنا يا ولدي . الشعب الشعب الشعب انهم يأتون كل ضروب الظلم والاضطهاد والرياء بحجة الشعب كما كان يقول اخونا ميخائيل . فاذا رام احد فهم اصول دينه بعقله لا بعقل غيره (١) صاحوا عليه صياحاً شديداً خوفاً على ايمان الشعب . اذا اعترض احد على الجزئيات الدينية التي ليست في شيء من جوهر الدين اقاموا القيامة عليه بحجة لزوم ذلك للشعب . اذا اتى احد على دين غير ديننا قاموا وقعدوا بحجة ان ذلك يضعف ايمان الشعب . اذا وقع في يدنا مثلاً فتاة ضعيفة وطلب الشعب تعميدها رغماً عنها جاروه على هواه واهانوا الانسانية في تلك الفتاة ارضاء للشعب . وعلى هذا القياس يا ولدي توثق ضروب الظلم والافتئات والشرور والفساد صيانة لاهام الشعب . ويكون اجمل رجل في الشعب اقدر من رئيسه واقرى سلطة منه في كرسيه لانه يحرك الشعب عليه كلما رام تحريكه . وهكذا يكون الشعب محسوباً عندهم عبارة عن ولد جاهل ابله يدارون جهله وشهواته واهامه ولو ادى ذلك الى الشر والفساد وخنق كل ذكاء ونباهة واصلاح في الامة . ومن هذا الضلال والضعف يا بني يخرج التأخر للامم

الفصل التاسع

✽ عقل الشيخ بنه ضمير الشاب ✽

عود الى استير

وانحدر ايليا من امام دير العذراء نحو المزرعة وهو يتفكر بثلاثة امور . الاول حصر العرب مدينة القدس والثاني سجن استير في الدير والثالث ما وجده من رقة البطريك وعقله خلافاً لما كان يعتقد

ولاريب ان ايليا كان شديد الاهتمام بحصر العرب مدينة القدس ولكنه كان قدالف انكسارات قومه امام جيوشهم . وكعارف للداء الذي كان يودي بالمملكة لم يكن يدعش منه كثيراً فضلاً عن ان تعدد حروب الفرس قبل ذلك عوّد الناس اعتبار الحرب امراً مألوفاً فيوم معهم ويوم عليهم . ولذلك كان كل اشتغال ايليا بحبيته استير المسجونة التي جاءته وهو في سجن من الحياة لتلقي في نفسه شيئاً من شعاع الامل والسرور

ولما وصل ايليا الى المزرعة هرعت اليه كلابها تهزّ اذنانها . وكانت المزرعة منبسطة في سفح الجبل بين آكام وسهول على مسافة عدة اميال . وكان فيها الكرمة والتين والزيتون والحبوب والبقول المختلفة . ويظهر لكل من تأمل الارض الجبلية القاحلة الجافة في النواحي ان صاحب المزرعة قد اتى ضروب المعجزات ليحعل تلك الارض صالحة للزراعة

وكان اهل المزرعة في ذلك اليوم في زينة وابتهاج لانه يوم عيد الميلاد كما تقدم فحياً ايليا الذين وجدهم في طريقه منهم وعابدهم ثم دخل

ولما وقع نظر الشيخ سليمان على وجه ايليا من بعيد صاح به . اهلاً وسهلاً بمعلمنا حاج بيت لحم . انني ارى في وجهك شيئاً جديداً

فاجاب ايليا . نعم يا ابت فقد وصل العرب الى المدينة

فعبس الشيخ سليمان وقال كنت انتظر هذا الامر بعد فتح دمشق فليكن الله معنا والا ذهبت مملكتنا بسوء تدبير رجالنا . ثم ابتسم الشيخ قليلاً متناسياً ذلك الحديث المزعم وقال : الا انني لا اظن هذا سبب خفة حركاتك وبرق عينيك في هذا الصباح فانك ذهبت كسولاً فاتراً ضعيفاً حسب عادتك في المدة الاخيرة وعدت نشيطاً فائراً قوياً . فاخبرني ما ذا جرى لك

ولو كان غيره في مكانه لافضى به هذا الامر الى تنبيه انانيته وادى به الى الاقتصار بهد ذلك على خدمة مصلحته الخصوصية ما دام لا شيء في الحياة يستحق ان يضحي له شيء من الذات . ولكن من احتقر الحياة والدنيا بنفس كنفس ايليا فانه يبدأ باحتقار المصلحة الخصوصية قبل المصلحة العمومية

ولذلك كان الشيخ سليمان كلما شاهد ايليا بحالة التأمل والانقباض بعد نشاطه السابق يقول مع باقي اهل المزرعة : ماذا اصاب صديقنا ايليا

واسفاه ان ايليا كان مريضاً مرضاً روحياً . ان ايليا كان ينقصه الزخام والعراك في الحياة لتتنبه همته بالمقاومة وتشتغل بتنازع البقاء والحركة الى العلاء بدل الاشتغال في نفسها بنفسها . ان ايليا كان ينقصه الغذاء القلبي الذي يربه محاسن الحياة ويزينها له . كان ينقصه ابتسامات كابتسامات الفتاة اليهودية التي رآها على طريق يافا منذ سنوات وكانت صورتها تتردد عليه في احلامه المضطربة

* * *

هذا هو تاريخ حياة ايليا قبل ان عرفناه وهكذا كانت حالة نفسه لما لقيناه في بيت لحم ليلة امس . فلنعد الان اليه بعد مفارقه ارميا وتيوفانا امام دير العذراء



المطالعة . فانه صار اميل الى الانفراد منه الى الاجتماع . ولم يعد يلذ له مرافقة الفلاحين في حقولهم ومساعدتهم على حراثتها بل كان يلذ له بالاكثر الاستلقاء بكسل على ظهره تحت شجرة والتأمل في الفضاء الذي امامه . وقبلما كان يرى ضاحكاً في هذا الطور بعد ان كان عصفور المزرعة وابتسامتها . اما صحته فتبعت افكاره ايضاً . فانه صار نحيلاً اصفر الوجه قليل الكلام كثير الضجر فكأن النار التي كانت تنقد في نفسه لمصارعته مع مبداء النكال الخيالي والحقيقة المحجة قد جففت ما كان فيها من ماء القوة والعافية . وهكذا تغير ايليا في بضع سنوات تغيراً كلياً

وكان كثيراً ما يقول في نفسه وهو سائر بين الحقول واشجار المزرعة : ما هذه الحياة الباردة والوجود المضجر . لماذا خلق الانسان في الارض وما هي الحكمة من خلقه جاهلاً قاصراً محدود العقل كما هو الآن . انني لما جئت من الناصرة الى المدينة لأدخل في الخدمة الدينية كنت اسعد مني الآن . لانني كنت قادماً وانا معتقد انني ساقبض بيدي على الحقيقة والراحة والسعادة . ولكن الخطبة على الجبل غيرت فكري . فطلبت بعدها الحقيقة والراحة في العمل والكتب . وها قد مرّ عليّ بضع سنوات وكلما تقدّمت ازدادت الحقيقة بعداً عني وازدادت عنها ولقد صرت ارى كل شيء في الحياة اسود ثقيلًا باردًا . فالبشر باجسادهم الضخمة الغليظة وعقولهم الجامدة وقلوبهم القاسية وافواههم واجوافهم المملوءة اقداراً مختلفة لا يختلفون كثيراً عن وحوش البرية . وكل ما في الارض من مناظر طبيعية والوان مختلفة واشكال منتظمة لا يساوي جماله جمال حلم واحد من الاحلام الوهمية . نعم لا انكر جمال صنع الخير كما وصفه استاذي الراهب ولكن ماذا يقدر شاب ضعيف مثلي في وسط اوقيانوس العالم المضطرب . هوذا اننا نضع الخير الآن في هذه المزرعة وكل اهلها آمنون على رزقهم وراحتهم ولكن الا يوجد بشر اشقياء تفسد خارج المزرعة . لا ريب في ذلك لان الارض كلها خارج هذه الدائرة في شقاء وعذاب ونزاع وخصام . فماذا تنفع حياتنا اذا كانت عاجزة عن ابطال كل ذلك . وما قيمة المعيشة التي يتنعم فيها عشرة ويشقى الوف . حقاً ان الحياة لا تسوى ما فيها من المم والعناء والتعب . والسعداء انفسهم لا يجدون فيها ما يروي غليلهم ويشفي نفوسهم . فالموت خير منها لانه راحة الراحات

وهكذا تدرّج ايليا في دركات الملل والياس في مدة قصيرة وصار يرى الخدمة الروحية والعملية عبثاً ولغواً لان الفائدة التي تخرج منها لا تساوي القوة التي تبذل فيها .

الى المزرعة لانه لم يجد راهباً فاضلاً كالآخ ميخائيل ليسلمه المزرعة ونفوس اهلها . الا ان اكثر اهل المزرعة استاءوا من ذلك وخصوصاً النساء فكان الشيخ سليمان يقول لهم : لكي يكون الكاهن فاضلاً ويستطيع القيام بواجباته يجب امران الاول ضمانه رزقه وحسن معيشته والثاني حسن اخلاقه وكمال استعداده النفسي ليتخذ وظيفته سبيلاً لنفع غيره لا نفع نفسه . ولا يفسد السلك الاكليريكي في بلاد الا بفساد هذين الشرطين . فحين نقدر على ضمانه الاول ولكن من بضمن لنا الثاني . فلديكم يا اولادي التوراة والانجيل ولكم عقول خلقها الله لتعقل فاقروا كتبكم في اجتماعاتكم وطهروا قلوبكم واحسنوا صنعكم فانه يقبل منكم هذه العبادة لان كل انسان يمكنه ان يكون كاهن نفسه طبقاً لدعوة الانجيل . - ولكن اهل المزرعة كانوا يسكتونه بهذا الجواب : وما الحيلة بالعماد والاكليل والوفاء

وفي ذات يوم الحثوا عليه في ذلك بالتماس ورجاء فقال الشيخ سليمان في نفسه لماذا لا نسيم لهم ايليا كاهناً . فانه جامع للشرطين المتقدمين

وكان ايليا لا يزال مشتغلاً بخدمة المزرعة بعقله وبده الا ان همته كانت قد ضعفت كثيراً . ففي ذات يوم قصده الشيخ سليمان في حرش من الصنوبر في المزرعة واخبره بالحاج اهل المزرعة في شأن الكاهن وانه يود لو يقبل هذه الوظيفة . فدهش ايليا اولاً . ثم اجاب بما خلاصته : كانت لي في صباي هذه الاحلام الجميلة . اما الآن فقد تغير فكري . نعم انني لا « اطفى شمعاً من الشموع الموقدة ولا ارفع اكليلاً من الاكليل » كما علمني استاذي الراهب ميخائيل الا ان نفسي صارت تطلب شيئاً فوق هذا . وهي اذا جثت مع جمهور الجاثين على تراب الخضوع للمواثيق البشرية والعادات الارضية فان روحها ترفرف فوق الجموع الجاثية - في أعالي لا تصل هذه الجموع اليها

فترك الشيخ سليمان ايليا بعد هذا الجواب ولم يعد يخاطبه بهذا الشأن ولا بحث فيه مع انه كان في نزاع دائم مع بعض الكهنة الذين كانوا يرومون الدخول الى المزرعة رغماً عنه وفي جملتهم اخو سكرتير البطريرك الراهب متى

ولكن ما هذه الاعالي التي ذكرها ايليا في جوابه وكانت سبباً في رفضه ان يكون كاهناً للمزرعة ؟ هي السم الجديد الذي دخل الى نفسه بعد خطبة استاذاه الراهب ميخائيل على الجبل واطلاعه على كتب ارسطو وافلاطون وبلينيوس . هو الانسانية الجديدة التي تكونت في باطنه بعد ان رفع الغطاء عن عينيه في هذه المطالعات المختلفة . وهذا هو السبب في الضعف الذي حدث في نفسه بعد بضعة اعوام من دخوله الى المزرعة وانكبابه على هذه

والزراعية (١) فاكب ايليا على درس هذه الكتب ثم استطرد منها الى مؤلفات
ارسطو في الطبيعة وفي النفس . فكان هو يفكر ويدرس ويطلع لاهل المزرعة واهل
المزرعة يعملون بايديهم بجدة ونشاط : فكملت بذلك الحركة التي يخرج منها الارتفاع والمدنية
وهي « الفكر والعمل » (٢)

وكان المصائب التي وقع فيها الراهب ميخائيل في كهولته قصرت اجله مع قوة بنيته .
فبعد بضعة اعوام رزح وعجز عن العمل والمشي . فلما رأى صاحب المزرعة ذلك هنأ رأسه
وقال : قد دنا اجل اخينا ميخائيل . ثم اردف ذلك بقوله : ان هذا الرجل قديس فانه لم
يمت حتى جاءنا بشخص نافع مثله يقوم مقامه . — ثم قصد الرجل ايليا وقال له قارعاً ظهره
بيده : تاهب يا بني خلافة اخينا ميخائيل فانك ستكون كاهننا ديناً وعلماً اي مرشد
معاوننا ونفوسنا معاً

وفي الواقع توفي الراهب ميخائيل بعد خمسة ايام خزنه عليه المزرعة كلها وكان ايليا
تليذه اشد حزنًا وبكاء . وقد اجتمع رائيهم على دفنه في وسط المزرعة بين الحقول والاشجار
فاقاموا له هناك قبراً بسيطاً . وكان ايليا في كل صباح ياتي بشيء من الزهر الطيب الرائحة
ويثره عليه باحترام وخشوع ويقبل بلاط القبر بدموع . وقد نقش ايليا على قبر استاذه
الراهب الشيخ هذه الكلمات « السلام على رسول الرفق والخير وحبيب الله والناس »
وقد فاتنا ان نقول ان ام ايليا توفيت في ذات العام الذي دخل فيه ابنها الى المزرعة
فدفنت في مقبرتها . ولكن حزن ايليا على الراهب مرشده لم يكن باخف من حزنه
على امه الحنون

وبعد وفاة الراهب ميخائيل رفض الشيخ سليمان قطعياً ادخال أحد من رجال الدين

(١) توفي بلبينوس في سنة ٧٩ للميلاد بمقدونات البركان يزوف في ايطاليا بينما كان يدرس
البركان وثوراته . وقد دفن البركان مدينتي يومباي وهركيلانوم بمقدونات في ذلك العام

(٢) هنا موضع نزاع بين الفلاسفة والباحثين . فالـ Realistes منهم يقولون (العمل العمل) فانه
افضل من كل شيء في هذه الحياة . ومنهم اميل زولا الذي كان داعية اهل في بلاده وله فيه روايته
المشهورة « العمل » فلما صدر هذا الكتاب تناول الفيلسوف تولستوي موضوعه وقال : العمل ؟ نعم لاريب
في انه مرقى البشر ونافع الناس . ولكن اي عمل ؟ فان صائعي الدبناميت والمدافع والمسكرات واصحاب
بيوت المقامرة والفساد كلهم يعملون بجدة ونشاط . فهل يحسن علمهم ؟ كلا . فمن ذلك نتج ان الفكر
مقدم على العمل . اذ على الانسان ان يفكر ليحسن اختيار عمله وانقائه . فالفكر اذاً قائد العمل واصحاب
الافكار Idéalistes انفع من اصحاب الاعمال Réalistes — وهذا نزاع قديم بين هذين المذهبين

الظلام . ومن غرائب الاتفاق ان الشمس اطلعت قرنفا في هذه اللحظة حين سكوت الراهب . فوثب الراهب وقال هلم هلم تشهد طلوع الشمس . تبارك الخالق تبارك الخالق . فنهض الفتى ايليا لنهوض الشيخ وهو مبهور مذهول . ولكن ايليا كان يمد نهوضه لا ينظر الى الشمس بل الى الفضاء وهو مبهور جامد النظر كمن لا ينظر الى شيء . وفي الواقع انه كان ينظر الى داخله لا الى خارجه . ذلك لانه كان ينظر الى الشمس الادبية الجديدة التي اطلعها الراهب الشيخ بخطبته هذه في داخل نفسه . وكان يخيل له بعد كل ما سمعه انه في حلم لا في يقظة . فان عالماً جديداً انفتح امام عينيه واتسعت دائرة فكره اتساعاً لا حد له . وفي هذه البرهة بلغ التأثر من الراهب مبلغه لدى منظر قرص الشمس البارز للخلقة يحيطها بنوره وحرارته المنعشة . فجنا على الارض جاراً الفتى معه ايضاً . وبعد ان سجد وقبل الثرى رفع يديه الى السماء صائحاً . من اعماق قلبه : اللهم شكراً للنور بعد الظلام . اللهم شكراً للحرارة بعد البرد . اللهم شكراً لعنايتك الكاملة الكريمة التي ترسل نعمها وخيراتها الى الصالحين والاشرار معاً لتعلم الانسان الاقتداء بها . اما الفتى ايليا فقد رفع يديه الى السماء كما رفعها الشيخ واشترك في هذه الصلاة ولكنه لم يكن حينئذ يصلي شكراً للشمس الطبيعية التي كان فرصها الجميل امامه بل كان يصلي شكراً للشمس التي طلعت في باطنه . وهكذا كان ذلك المنظر في غاية البهاء والجلال . فانه كان على قمة جبل الزيتون في صبيحة ذلك اليوم شيخ هادى مطمئن في آخر العمر يشكر الله لانه يدفى شيوخته الباردة بواقر نعمه . وفتى في اول عمره قلقاً مضطرباً يشكر الله لانه اثار نفسه واره طريقه في اول حياته

فيا ايها الفكر الحر المطلق الذي يقوده العلم وتسندة الفضيلة انك كالطبيعة العظيمة تخلق نوراً وتطلع شمساً

المرعة

وفي مساء ذلك اليوم نظر الراهب ميخائيل سائراً بالفتى ايليا الى المرعة التي ذكرها . وكانت قائمة وراء جبل الزيتون على مسافة عدة اميال فرحب صاحب المرعة الشيخ سايمان بالفتى لما توسمه في وجهه من الذكاء والنباهة . واستقبله كما يستقبل ابناً له واخبره انه سيكون وارث الراهب ميخائيل في « اوروشليم الجديدة » اي في مزرعته . وبما ان الرجل كان يعلم ان الزراعة لا تترقى الا بالاختبارات الزراعية والدروس الطبيعية جاءه بكتب بلينيوس العالم الطبيعي الروماني ليستخرج منها كل ما يختص بالشؤون النباتية

يُزَيِّن الدين الحقيقي بها ليصير مفهوماً من العوام لا يجب ان تكون مخففاً له . والجاني على الدين والانسانية في الارض انما هو ذلك الذي يوجد التضامن والتكافل بين تلك الظواهر وما تحتها من البواطن الصحيحة . وحينئذ لا يجب ان يلوم احداً غير نفسه . . لان العقل اذا احترم الحقيقة فهيهات ان يحترم لباسها . خصوصاً اذا كان هذا اللباس مما يمنع وصول نور الحقيقة الى الناس ويكون عثرة في سبيل خير الانسانية واتفاقها وتقدمها .

لقد فرغت الآن يا بني وأن ان اُريحك واستريح من هذا الكلام الطويل . ولكنني اذا اعدت في ذهني كل ما قلته لك ارى ان كلامي لا يزال ناقصاً امرأ مهملاً لا يحسن ان يُختم بدونه . وبعبارة اخرى اقول انه ناقص التاج الذي يجب ان يتوج به . اجل يا بني ان اول وآخر دعامة من دعائم الفلسفة والدين والفضيلة والادب والحكمة هي هذا التاج البديع وهو « الرفق والمحبة والصغ » للجميع . فديانة الرفق والمحبة : هذه هي الديانة التي سيجتمع عليها البشر في مستقبل الزمان . الرفق والمحبة لجميع مخلوقات الله حتى الحيوانات . الرفق والمحبة لجميع البشر حتى الوثنيين والاردياء والاشرار واللصوص في السجون . . لانه اذا كان يجب علينا احتقار ضلالم وشروهم فيجب علينا ايضاً محبة الانسانية فيهم والشفقة عليهم . يا بني اذكر ان سيدنا غسل ليلة تسليمه للصلب قدمي يهوذا الذي اسلمه مع معرفته انه عدوه ومسله وجاحده . اذكر انه قال للذين جاءوا اليه بالخاطئة « من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر » . وبعد هذه الذكرى اخبرني اذا كنت تجد في العالم احداً يسمح لك قلبك باخراجه من ناموس الرفق والمحبة

فيا ولدي العزيز ضع هذا الناموس نصب عينيك . احى فيه ومن اجله . اجعله القاعدة الكبرى لاعمالك وافكارك . اعتبر كل تعاليم تخالفه تعاليم باطلة اياً كان مصدرها . واعلم انه ليس في الهيئة الاجتماعية كلها شيء ارقى واعظم منه . واذا سلكت طريقه في حياتك كلها امكنك ان تموت في آخر العمر موتاً هنيئاً هادئاً لانك تكون قد قمت بواجباتك للانسانية في هذه الحياة وعشت انساناً كريماً محباً ومحبوباً

يا صديقي واخي الصغير . هذا ما اردت اطلعك عليه من تاريخ حياتي لعلك تجد فيه فائدة لنفسك . فاختر الآن ما يحلوك . واعلم ان ابواب مزرعتنا مفتوحة لشاب عامل نشيط مثلك اذا كنت تشرفنا بالانضمام الينا

طلوع الشمس

وهنا سكّت الراهب الشيخ بعد كلامه الطويل . وكان قد طلع الصباح وفرّ جيش

وعاديت اعدائي . يا بني ان القلوب الطيبة يجب ان لا تعرف العداء وان تتركه للقلوب
الرديئة . وعلى القلوب الطيبة ان تصلي دائماً الى الله من اجل القلوب الرديئة ليرحمها وينبذ الرداءة منها
والحق اقول لك يا بني انني بعد ان شبت وادبتي المصائب وعاشتت البشر زمناً
طويلاً علمني الاختبار . خبير الذي كنت اطلبه متشعب الطرق صعب من عدة وجوه .
ولذلك ندمت على اطلاق نفسي العنان في مقاومة رؤسائي ورفاقي دون ترق ولا امان .
نعم يجب علينا محاربة كل شيء في الارض لصنع الخير وقتل الشر ولكن يجب ان لا ننعما عن المصائب
والعثرات التي في طريق من نحاربهم . واول هذه المصائب شراهة نفوسهم التي تطلب
كل شيء لها تحت ستار الغيرية . نعم ان هذا ليس بعذر مقبول ولكن ما الحيلة بالنفس
الصغيرة المقيدة باهوائها ولا تستطيع الانطلاق منها ؟ لا حيلة في اطلاقها يا بني غير الصلاة
الى الله من اجلها ليفسها وينقيها ويطلقها . وثاني هذه المصائب رسوخ بعض المبادئ
والاراء والاهوام في نفوس العوام ولذلك يضطر الرؤساء رغماً عنهم الى مداراتها . واذا
لم يداروها لم يعدموا من قومهم ومرؤوسيههم من يقوم وينادي بكفرهم لخروجهم في زعمهم عن
الشريعة الدينية . لان كل متعصب لرايه لا يعدم ان يجد في من تحته او فوقه من هو
اكثر تعصباً منه . لا سيما وان المصالح والاهواء تتخذ في اكثر الاحيان هذه الامور
ذرائع تدنس نفسها بها . اذاً فلنغض الطرف قليلاً يا بني عن تلك المدارة لان اصحابها
قد يكونون مهذورين فيها . واذا لمناهم فليكن لومنا لم ببشاشة واعتدال وحلم لان تدبير
النفوس وظيفة صعبة لا يعرفها الا من عاناها . ولو كان بعضهم يسمعي الآن معك
لاستصفت منهم عن الحدة التي ظهرت رغماً عني في بدء كلامي لانني كنت متحمساً
لذكرى مصابي الماضية

يا بني لا تدع عقلك يضل كما ضل كثير من ابناء هذا العصر * لسئامتهم
الخلافات الدينية . فان فوق هذه الخلافات كلها حقيقة يجب ان تكون اساس كل هيئة
اجتماعية . وهي ان الحقائق الدينية راسخة في الارض الى الابد لانها عبارة عن نزوع
الانسان الى المنزل الاول ومصدره الاعلى . واي شيء غير الدين يضع اسمي آيات الفلسفة
والعلم والادب في افواه وقلوب السذج والمساكين . انت وانا مثلاً لا نسأل عن اديان
البشر لان في باطننا الديانة المطلقة النقية التي هي ديانة القلب ومحبة الله والناس والتسليم
اليه تعالى في كل شيء . ولكن هل يفهم العوام هذه الامور . هذا امر بعيد . ولكن
مع ذلك علينا ان نخذر من جعل هذا الامر يوماً داء قاتلاً . فان الظواهر الدينية التي

غير اذبحي لانه ظنني مجنوناً آوي الى الاحراش . فتكاثروا علي وقيدوني وانا اكاد اقتلهم واقتل نفسي . ولكن بعد برهة اخذ الفارس بلاطفي وبجاملني وسألني عن خبري فقصصت عليه قصتي من اولها الى آخرها وانا ابكي . فما سمع شيئاً منها حتى هجم علي فقطع وثاقي وصاغني واقبل علي بساكني التهمة . ومنذ هذه الساعة بدأت اصعد من الهاوية التي القاني البشر فيها . فان هذا الفارس كان قائد مائة وهو من هذه المدينة . وقد تطوع في الجيش لمقاتلة الفرس انتقاماً منهم لانهم حين استيلائهم على القدس وطنه قتلوا ابنه . فاخذني هذا الفارس وقدمني للإمبراطور وقصص علي قصتي . فنهز الإمبراطور رأسه وقال : هذا شأن السوربين فانهم متي حكموا في انفسهم كانوا اقرب الى الجور منهم الى العدل لكثرة تحاسدهم وتنافسهم ولعدم وجود جامعة قوية عادلة تساعد الجيد فيهم وتخذل الردي

فصحبت يا بني جيشنا في فتوحاته في بلاد الفرس جيراننا . ولم اكن راضياً عن هذه الحرب وان كنا فيها مدافعين لا مهاجمين لانني اكراه الحرب ايأ كان سببها حتى مع المجوس . ذلك لان الدم الذي يسيل فيها يا بني هو دم بشري مقدس سواء كان صاحبه مسيحياً او وثنيّاً ابيض او اسود يونانياً او سورياً او فارسياً . فاننا كلنا اخوة في الارض ومن الفظاعة ان يقتل الاخ اخاه . الا انني لا اكتمك اني كنت رغباً عني مسروراً لفرار كسرى برويز من وجه امبراطورنا من مدينة الى مدينة حتى من عاصمته فرار العصفور من وجه النسر * ذلك لانني كنت اعلمه معتدياً لانه هو الذي كان البادئ بها جمتنا . ومهما كان الانسان ميالاً للسلم والصنع والحلم فانه يطرب عند ما يري المعتدي مغلوباً مخذولاً على شرط ان لا يتجاوز الغالب حدود الدفاع ويجعل نفسه عادياً ظالماً

ولما انتهت الحرب اتى بي ذلك الفارس الكريم الى هذه المدينة . ووضع بين يدي مالا طائلاً وابتاح مزرعة وراء هذا الجبل وقال لي اصنع فيها ما صنعت في مزارعك القديمة . فاعدت في هذه المزرعة يا بني ما كنت اصنعه هناك تحت حماية هذا الشهم . فجمعنا فيها نحو مائة عائلة كباراً وصغاراً وصرنا نعيش على زراعة الارض بامن وسلام . ولم يكن بنهص عيشي شيء سوى تذكرى الشقاء الذي حل بين احبابي في بلادتي بعد سقوطي ورحيلي عنها . ولذلك كنت ارحل في كل سنتين مرة اليها وجيو بي مملوءة لمساعدة ابناء وطني . وانا الان اقيم تارة في المزرعة هنا وطوراً في بلادتي مسروراً بان الله اوجد لي في آخر عمري عساً آوي اليه واقدر على صنع الخير فيه بمساعدة انسان فاضل يستحق ان يسمى انساناً . ولقد سكنت نفسي وهدأت بعد ذلك الاضطراب فندمت على اني ابغضت البشر يوماً

بعض وتشعب المسيحية (١) فالإخلاص الإخلاص يا بني الطهارة الطهارة الخير الخير: هذه هي آلات العبادة الحقيقية. وبدونها لا تجدي العبادة شيئاً ولا يغني الاعتقاد باللاهوت شيئاً يا بني . لقد وصلت بك الى منتهى عملي . فان تلك التهمة اجبرت وا اسفاه على قواي لان اعدائي اغنموا هذه الفرصة وطردوني من سلك الرهبانية . فرحت يا بني في الدنيا هائماً على وجهي ابكي وانوح لاساءة الناس الظن بي واهانتهم لي وقطعهم رزقي . وبما كان يفتت كبدي فرار احبائي وابنائى القدماء مني . فكأنني اصيبت وحشاً ضارياً لا يقربني احد . وكان الفقراء والضعفاء الذين كنت اساعدهم من قبل اذا شهدوني قادمًا حادوا عن طريقي واختبئوا مني . يا ولدي وصغيري ان من لم يقع في زمانه في حالة كحالي لا يعرف مبلغ الشقاء الذي عانيته . وان فرائصي كلها لترتعد الآن لجرد ذكره . ماذا هوذا رجل باع نفسه من بني جنسه فننازل عن راحته ووقته وقواه ووقفها كلها عليهم . وصار يخدمهم بعينيه وكل نفسه مشاركاً لهم في السراء والضراء مدبراً لا قوايائهم مساعداً لضعفائهم مرشداً لاولادهم معزياً لمرضاهم — ومع كل ذلك يكون هذا جزاءه من الله والناس . يا بني لا اكتمك ان عقلي وايماني قد اضطربا في ذلك الزمن الهائل . فصرت اخشى من النظر الى السماء لئلا تبدر مني عاطفة او كلمة تورثني الندم في باقي حياتي . اما البشر فاذا وقع نظري على احدهم اتفاناً فاني كنت اراه وحشاً اسود ضارياً . ولولا بقية من روح سيدي في نفسي لهجمت عليه وعضضت عنقه لامتص دماؤه انتقاماً من الانسانية . اواه يا بني صفحاً عن هذه الافكار الوحشية التي كانت تتردد يومئذ في ذهني . فاني اؤكد لك انها لم تصبني اكثر من اسبوع واحد . فان الله لم يتخل عنى لانه كما قلت لك يكون دائماً مع المظلومين المضطهدين في هذه الحياة . ولذلك ارسل الي رجلاً انساني كل مصائبي

ففي ذلك العام يا بني هاجم امبراطورنا مملكة الفرس لاستخلاص الصليب المقدس منها وسحق قوتها لكي لا تعود الى مهاجمتنا مرة اخرى . فوصل الجيش الامبراطوري الى بلادنا الكلدانية ومر بها . ففي ذات يوم وانا ابكي من ظلم الناس تحت شجرة في الحرش حيث كنت انام مع حيوانات البر وآكل من البلوط لسد جوعي واذا بفارس طلع عليّ ومعه شرذمة من الجند . فخيل لي انه قادم بامر من الحكومة للتفتيش عليّ . فلما رايت به ثار دمي كله غضباً على البشر الذين يطاردوني حتى في وسط الاحراش فهجمت عليه كالذئب الكاسر وانا بجالة الجنون اصيح وازجر بلا وعي . فامر الفارس رجاله بالاحتياط للقبض عليّ من

١ لم تكن المسيحية يومئذ قد تشعبت التشعب المحاضر انما كان قد بدا فيها

لاهوت المسيح ويسبون ويشتمون . فيا ايها السماء الاور وشليمية الصافية التي ظلمت
 « الكلمة » ازماناً هل يوجد اللاهوت ليتسّر وراءه كل صغار الارض الذين لا يقدر
 على الارتفاع اليك بنفوسهم الالهية او الذين يرومون التسلط على الضمائر والعقول بحجة
 نفعها والغرض نفعهم الخصوصي . واسفاه يا بني هذه علتنا الكبرى وآفتنا الهائلة . نحن
 نتمسك بالالفاظ ونترك المعنى . نطلب القشور ولا نسأل عن اللبّاب . نقول لاهوت المسيح
 ولكن لا نعمل بوصايا المسيح التي هي اول شروط لاهوته . وهذا كذا لا يكون عندنا من
 المسيحية - واسفاه - الا ظواهرها . ويكون عملنا هذا مشجعاً لكل ذي فكر جامد يكثفي
 من الدين بالاعتقاد بهذه المادة بشفتيه وقلبه بعيد عنه وعنّها بعداً شديداً

كلام ثم كلا . اننا لا نبحث يا بني ولا نجادل قطعياً في اصل من اصول الدين ولا في
 فرع من فروعه . فان الباحث بعقله في الاديان لا يثبت هذا الاصل او ذاك الفرع كالباحث
 على صفحات الماء . ولذلك نحن نحترم كل اصل وكل فرع احتراماً مطلقاً ونسلم به . ونجنو
 بنشوع مع باقي اجزاء الانسانية على تراب الانضاع والخضوع امام المواد والاشياء التي
 جعلها البشر مذكرة باللانهاية . اننا لا نطفي شمعاً من الشموع الموقدة امام الايقونات
 والتماثيل ولا نرفع اكليلاً من الاكاييل الموضوعة عليها . اننا نحيز القداس بالخير والفطير
 معاً . والعماد رشاً او تغطيساً . والصوم وعدم الصوم . والاستخالة حقيقية او رمزية .
 ووحدة الرئاسة وتعددتها . والعصمة وعدم العصمة . والصلاة وقوفاً او سجوداً او قعوداً .
 والاعتراف وعدم الاعتراف . وتفسير كل واحد الكتاب المقدس بعقله او رجوعه فيه الى
 الرئاسة الدينية لاعتقاده ان لها وحدها حق تفسيره (١) . نعم نحن باصديقي وصغيري نجيز كل ذلك
 ولا ننكره ولكن على شرط واحد وهو ان فعل هذه الامور يُقرن دائماً باخلاص القلب
 اخلاصاً حقيقياً وطلب الخير والعبادة النقية طلباً مجزداً . ذلك انني اعتقد يا بني انه متى
 اريد طلب الخير والعبادة الحقيقية النقية فكل الطرق المؤدية اليها حسنة متى كان القلب
 مخلصاً نقياً . ولست ممن يضيقون عقولهم وقلوبهم الى حدّ ان يعتقدوا ان الله يقبل العبادة
 مثلاً بهذا الشكل ولا يقبلها بذاك . فان الذين يضعون هذه الأقوال يقصدون بها تآييد
 مصالح لا تآييد مبادئ اي مصالحهم السياسية والقومية او مصالح رئاستهم لرغبتهم في
 الاستئثار بالسطة والسيادة . وهذا هو السبب في تكفير الطوائف بعضها بعضاً بقيامها بعضها على

١ هذه الامور كلها من مواضع الخلاف بين الطوائف المسيحية

الدير كله مع ما حوله من القرى في اضطراب شديد بسبب هذه العظة . وثالث الرسل من الدير واليه بشاؤها

ولماذا كل هذه الضوضاء يا بني . هل علمت سببها ؟ سببها تهمة وفرية اخرى وهي ان الراهب ميخائيل جمعد في الكنيسة لاهوت المسيح

فيا بني لا تصدق هذا القول القبيح . فاني لست ساذجاً الى هذا الحد لا يبحث في امر يجب عليّ التسليم به او انسى راحة نفوس المؤمنين او اعطي من نفسي حجة عليّ للخصوم . بل كن على ثقة من اني لم ابحت بالعقل في هذه المادة ولا ابحت فيها ابدًا . فعي موضوعة عندي خارج دائرة البحث والعقل قطعياً . وهبني بحث فيها عقلياً فهل يقدر العقل ان يدرك كنهها . فما الفائدة اذاً في البحث فيها . ثم هل تظن كل من يبحث في لاهوت المسيح جاحداً له . كلا يا بني . فان هنالك من يقول باللاهوت ولكنه يقول بانفصاله عن الناسوت ولكل منهما مشيئة خاصة . ومنهم من يقول بروح الله وكلته وغير ذلك . فهل يكبر اصحاب هذه الآراء مع اعتقادهم باللاهوت تصريحاً وتليحاً . اما انا يا بني فاني اكنفي من مسألة اللاهوت بالتعاليم السامية التي تتعلق بها وتدلل عليها . وهذا سبب بلواي في هذه المرة . فاني بعد الخطبة التي ذكرتها لك جاءني بعض السامعين وقالوا : قلت ايها الاخ في خطبتك انه يجب علينا ان نحب جميع الناس لانهم اخوتنا ولذلك يجب ان لا نضطهد اليهود في سوريا وفلسطين . وقلت ان تكفيرنا بعضنا بعضاً من اجل معتقداتنا مخالف لروح الانجيل الذي يقول « لا تدينوا لكي لا تدانوا » فاذا نقول في رجل يمجّد لاهوت المسيح ولكنه يعمل بوصاياهم ورجل يعتقد به ولكنه لا يعمل بوصاياهم بل يعتبرها مبادئ جميلة لا تخرج عن دائرة الكتب . هل تبارك الاول ام الثاني . فكّرت هنيهة ثم اجبتهم ابارك الاول والثاني يا اولادي . لانني بباركتي الاول ابارك الفعل دون القول وبباركتي الثاني ابارك القول دون الفعل (١)

فهذا القول وحده كان كافياً يا بني لاتهامي بيجود سيدي . فيا لظلم البشر . يا لرغبهم في اتخاذ المعتقدات الدينية تروساً يسترون وراءها المحاربة من يريدون محاربتها . يقولون لاهوت المسيح ويخالفون اشرف ما في اللاهوت وهو فضيلة المحبة . يقولون لاهوت المسيح ويؤمنون ويقترون . لاهوت المسيح ويطغون ويشبهون . لاهوت المسيح ويطغون ويقترون .

١ - جمع فاتح غير مسلم يوماً بعض علماء الاسلام واستنهم في ايها افضل وطاعته اوجب « السلطان الكافر العادل » ام « السلطان المؤمن من الظالم » فافتي العلماء بافضلية وطاعة الكافر العادل

ليلة وأنا على سطح الدير انظر البدر بطلع تماماً من وراء الجبال البعيدة واشاهد بعضاً من رؤسائي ورفاقي يتمازحون ويتضحكون في حديقة الدير وهم يتغنون باناشيد روحية — استفرقت في بحار الناء مل والتفكير . واخذت اخاطب نفسي قائلاً لماذا ايتها النفس لانصنعين صنع هؤلاء . لماذا لا تكنتين بغدائهم ومشاكلهم واحوالهم . ماهذه النار الدائمة التي تحرقك فلا تدعك تستريحين ابداً . افرحي وكلي واشربي وانعمي بالرئاسة والكرامة والجاه مثل غيرك . انني آسف عليك وعلى جهدك . آسف لانك لتعذبين والاشرار يتنعمون . آسف لانك تسهرين وتقلقين وترزحين والاردياء ينامون ملء الجفون . تخفني عنك . واريحي نفسك . — يا بني . ولكنني سمعت تلك النفس التي كنت اهتمك عليها حينئذ بهذا القول كأنها تناديني في هدوء ذلك الليل ونقول : يا رفيقي الحيوان في باطن هذا الانسان . مالك رفعت راسك وانتهيت بعد طول رقادك . انني كنت اظنك قد مت وقضي عليك . الا فاعلم الآن انني لا اصغي اليك ابداً . نعم انت تتحكم في غيري فتجعل مهمهم الاول في هذه الارض الاكل والشرب واللذة اما انا فقد اسرتك وكجئت جاحك من زمن بعيد . وكن على ثقة من انني ساخنقك ولو خنقت نفسي . فانا في هذه الارض كذلك اليهودي الذي تمنع عن حمل صليب المسيح فبات يتيه في الارض ويمشي فيها الى الابد . نعم نعم الى الابد الى الابد انا اعمل . الى الابد الى الابد ساخدم بني جنسي . الى الابد ساصحني نفسي من اجل غيري . وهذه هي لذتي . نقول انني لا انفع شيئاً وان جهدي ذاهب ادراج الرياح بدليل تخريب البشر عملي مرتين . ولكن يا رفيقي الحيوان الجاهل انني لا ادع النعمة تكون افضل مني . فانك اذا خربت بيتها مرتين او عشر مرات فانها تعود الى بنائه بصبر اشد وجلد اقوى . فدعني اذا وشأنني . انني ابذر بذور الحقيقة والفضيلة والعمل ومحبة الله والناس في ارضنا الشرقية الخصيبة فاذا لم تنبت هذه البذور في حياتي فلا بد ان يأتني بعدي من يعتني بها ويفتقدها . وكن على ثقة من انه ليس تحت قبة السماء قوة قادرة على منعي من بذرها . لا تقل الاضطهاد والفقر والطعن والشتم والتهمة فاني ابارك هذه الامور واصحك منها لانها تزيدني قوة وتضاعف صبري وشوقي الى العمل . فعي كالخطب تلتقي على النار المتقدة في باطني فتزيدها اضطراباً . ولست اخاف الا من شيء وهو اجبارهم اياي على الخروج عن الحدود التي اريد الالتزام بها يا بني ومنذ تلك الليلة شعرت بقوة جديدة . وكان اليوم التالي يوم احد وكثيرون من اهل القرى قدموا الى كنيسة الدير للصلاة فيها . فصعدت الى كرسي الوعظ ووعظت عظة موضوعها « احبوا اعداءكم باركوا مبغضيك » ولكن لم ينقض ذلك اليوم حتى صار

والاخلاص اجعل اولئك التعماء والسعداء بشرًا هادئين راضين باشين مستبين امورهم الى
باريهم لا تبطرم نعمة ولا تسحقهم نقمة ولا غرض لم غير مساعدة بعضهم بعضاً على
عبور نهر هذه الحياة

يا بني . هنا وصلتُ الى ما لا يزال تذكاره مزعجاً لنفسي . ولكن لا بد من اتمام
حديثي . فبعد مدة انتشر خبر مزارعنا في البلاد كلها . فكان الفلاحون والناس يقدون
علينا من كل جانب للانضمام الينا . فكأن قرانا الهادئة اللطيفة ومعيشتنا الطبيعية الانجيلية
الاشتراكية كانت مغناطيساً يجذب النفوس اليها في وسط هذا العالم المضطرب . ولكن واسفاه يا بني
ان شيطان الحسد والطمع والبغض كان يترصدنا . وهذا من افجع مفاسد الحياة . فانه لا
يكفي الانسان ان يخلص في عمده ويفرغ جهده ويشق نفسه ليتقنه ويقوم بواجبانه بل عليه
ايضاً ان يفكر في ان يصرف عنه حسد الناس حين نجاحه والا اودي هذا الحسد به
وبعمله . وهذا ما حدث لنا . فانه لم يلبث ان انتشر عنا في المدن والقرى اخبار هائلة .
فقوم قالوا اننا كننا نوّلف جمعيات سرية غرضها محاربة الفرس لطرده اليونان من سوريا .
وقوم قالوا اننا اردنا ان نبرز « جمهورية افلاطون » من حيز القوة الى حيز الفعل فننشئ
هيئة اجتماعية لا تناف من العائلة ولا يعرف الاولاد انسابهم فيها (١) وبعضهم قالوا اننا نادينا
برفع سلطة الكنيسة وقررنا اتباع آريوس . يا بني انك لا تتصور ما كان من التأثير لهذه
التهم الهائلة على اناس سذج فضلاء مثل فلاحينا خصوصاً التهمة الثانية والثالثة . فقد
بقي النساء يبكين اسبوعين من تأثير التهمة الثانية . وقد صلينا مراراً الى الله ان يبرر عقول
بني عصرنا وينبذ من صدورهم ذلك الخبث الذي راموا محاربتنا به . اواه يا بني . ان بني
عصرنا كانوا ابرياء من ذلك الخبث وان كانوا شركاء فيه اذ لا ذنب لم غير تصديق تلك
الاشاعات . وانما كان مصدر الخبث حسد رفاقي وروءسائي الذين كانوا يفضون من مشروعي
لانه جعل رعيته تظالمهم بمثله وكثيرون منها هاجروا الينا . وهكذا اجبرني خبث البشر
مرة ثانية على ان اترك ما تعبتُ بينائه . فصدر اليّ امر رئيسي ان الزم الدير وان
اقنصر على الوعظ في الكنائس . فعدت الى الدير بنفس مسحوقه وظهر مقصوم وقلب متفطر .
ويا ايها السماء يا ظلمات الليل يا كواكب الفلك - انت وحدك كنت تشهدين علي ما قاسيته في
ذلك الزمن في ليالي المظلمة الطويلة . ولكن الله كان معي يا بني . وهو يكون دائماً مع جميع الذين
يضطهدهم البشر ظلماً وعدواناً . ولذلك شعرت بعد مدة بعودة الثقة والامل والقوة الى نفسي . وفي ذات

ففي هذه الساعة التي اخاطبكم بها كم من امٍ وابٍ واخٍ وبكرٍ يكون ويبدسون في العالم اما من ضيق رزقهم او فقد اعزائهم او اضطهاد الاشرار لهم او لامراض هائلة يقعون فيها اسوء تدبيرهم او لوراثتهم اياها من اهلهم او لوفوع الافساد عليهم . يا اولادي فلنصل الى الله من اجل هولاء النساء ولنحمدنه لان تعاستنا لا تُذكر بازاء تعاستهم لانها لم تنشأ الا عن الضجر وضيق الخلق . ثم اننا كنا يا بني نرفع ابدينا وعيوننا الى السماء ونصلي « ابانا » فقط . فلا نفرغ منها الا والامل قد عاد الى نفس الشيخ والام ضحكت ونسبت انزعاجها وتعياها والولد صار يضحك ويفرد كانه هزار في بستان .

ولما كنت اخرج من هذا الكوخ بعد تحويل الضعف والضجر فيه الى قوة وسرور كانت نفسي في حالة لا اقدر على وصفها لك . انما يكفي ان اقول لك انني كنت حينئذ سعيداً سعيداً اذا كان في هذه الارض سعادة . فكنت اذهب مشروح الصدر الى كوخ آخر وهناك اسمع فقهة الضحك والسرور من الباب . وبعد دخولي كنت اجد الام والجدّة والجدّة مثلاً حول موقد النار وامامهم طفل لم يلاعبونه ويداعبونه وهموم العالم في معز عنهم . فكنت ادخل ضاحكاً باشاً فاخذ الطفل بين ذراعي واجلس مخاطباً الطفل واهله بقولي : اسأل الله يا ولدي ان يبي لك ولاهلك هذه البشاشة وهذا السرور . فانها غنى النفس الحقيقي وثروتها العظمى وقوة هذه الحياة . اجل يا اولادي ان البشاشة قوة الهية اذا كانت ناشئة عن الرضى باحكام الله والتسليم الى ارادة الله . ولكن فلنذكر الذين يحزنون ويهتمون ويتعبون ولنفكر بهم ولنصل الى الله من اجلهم . ان الانسان الكريم في هذه الحياة ينجل ان يكون سعيداً بازاء تعاسة باقي الناس (١) فلنكن من الكرام يا اولادي . لنشكر الله لاعطائه ايانا قوة البشاشة والصبر والمسرّة . ولنسأله ان يقينا من طوارئ المستقبل ويقوتنا على احتمالها حين وقوعها علينا . اذ لا بدّ منها يوماً من الايام -- فبعد هذه الكلمات يا بني كنت ارى اولئك السعداء قد هدأت نفوسهم بعد خفتها وتفرقت عيونهم بدموع ذكراهم تعاستهم الماضية والآتية . ولم اكن لآسف على هذا لانني انما كنت اقصده . لان غرضي كان في كوخ التعيس تذكيره بشقاء الناس لتجف عليه تعاسته واثره انها سنة على الجميع . وفي كوخ السعيد ان اذكره بالتعاسة والمصائب لئلا يقسو قلبه وتبطره النعمة فيشرس ويخشن وينسى الله والناس . وهكذا كنت ييسير من العناية والتدريب

١ قال الحكميم الفرنسوي لابروبير Il y'a de la honte à être heureux وهو بالمعنى الذي ذكره هناك

إذا رامت ترك العطاء لانه ليس بمساعدة حقيقية لزمها إذا المساعدة الحقيقية . لان الذي لا يريد اعطاء الغريب خشبة ليبقى عائماً عليها في البحر بدل ان يفرق يلزمه ان يرسل اليه زورقاً ينشله وينقذه . والا فاداً تركه يفرق دون هذا ولا ذاك لم يكن انساناً

وعلى ذلك حملت معولاً يا بني بدل الفضة والذهب وسرت الى الاحراش والطرق والاكواخ . وكان كل من رآني بهذه الحالة يضحك ويطنني راهباً معتوهاً . ولما شاهدني من بعيد اصحابي الذين التفوا مرعوا اليّ كالعادة . فخرج الاطفال من اكواخهم لاستقبالني وهم يتسابقون اليّ . وزحف المرضى والشيخوخ والحجرة للملاقاة وتحرك الفقراء الجالسون في الطرق تحت السياجات ماشين نحوي . فصرت حينئذ ابكي لانني ما كنت احمل لم هذه المرة ما اعتدت حمله . ولما وصلوا اليّ وقفت والدموع في عينيّ . قلت لم : يا اخوتي وابنائي . ان خبث البشر قضى بحمرانكم من مساعدتكم الماضية . ولكن الله ارسلني اليكم بمساعدة جديدة . ان خبز البطالة خبز مالح مرّ يا اولادي . فعملوا الى العمل رجالاً ونساء واولاداً . ان العاجزين والشيخوخ يعملون في الاكواخ عمل النساء والنساء تنزل مع الرجال الاقوياء للعمل في الحقول . والله يبارك ثمرة اتباعنا جميعاً لانه اله الجدد والنشاط والعمل

ومنذ هذا الحين انصبنا على الفلاحة والزراعة . فقلعنا الصخور ومهدنا الآكام وعرفنا الحجارة وازلنا الاحراش وحرثنا الارض على مسافات بعيدة . فلم يلبث ان قام في وسط مزارعنا قرى صغيرة عديدة يعيش اهلها في وسط الطبيعة وهم يتغذون من نباتات الارض التي يزرعونها وألبان المواشي التي يربونها . وكانت امور هذه القرى يدبرها عدة من الشيخوخ معي اذ بعثت كل قرية شيخاً من قبلها يتوب عنها وينظر في حاجتها وتوزيع الارزاق والبذور عليها . وكان اكثر شغلي وشغلهم مصروفاً الى زيارة الاكواخ حيث كانت تقم فيها تلك الانسانية الصغيرة في احضان الطبيعة الجميلة تحت حماية الله . يا بني . وكنت ادخل هذه الاكواخ النظيفة المرتبة التي كانت تحرقها الشمس طول النهار فتطهرها من مواد العفن — براس شائع وسرور في القلب لا على الشفتين فقط . ذلك لانني داخل لاعطي لا لاخذ . ولم يكن عطائي يؤمّن فضة ولا ذهباً بل ما هو اثنى واجمل من الفضة والذهب . انني يا بني كنت اعطي اخلاص قلبي وصدق ضميري وصحة اشتراكي . فاذا دخلت وكان في الكوخ ولد يبكي او ام منزوعة لهوم منزلاً او شيخ عاجز مريض يئن من مرضه وعجزه فاني كنت ابكي لبكاؤهم واتوجه لانوجههم واقول لم : يا اولادي فلنشكر الله لان مصائبنا اصغر من مصائب غيرنا . انظروا الى العالم فيزداد بكاءكم ولكن لا على انفسكم بل على اهل .

سمعت هذه التهمة لأول مرة سقطت على الارض جاثياً باكياً وسالت الله ان يقويني على احتلالها ولا يعاقب اصحابها . وبعد التفكير ملياً وجدت ان الناس معذورون بتصدق هذه التهمة لقياسهم عملي على اعمال باقي الناس . فلم اعد اقدر ان اصنع شيئاً مما كنت اصنعه قبلاً . فعدلت عن جمع المال من الاغنياء للفقراء . ولم استاء من عدولي هذا لتركى فقط مساعدة المساكين الذين تعودوا مساعدتي بل ايضا لتخاض الاغنياء من سوط الحق الذي كنت اقرعهم به واجبرهم على وفاء ديونهم لبني جنسهم (١) يا بني ان البغض قديم بيننا وبين اهل المال . واساسه ليس في الانجيل فقط بل في قلب الانسان . لماذا نبغض الحاكم المستبد والظالم والمعتدي والاص والفاجر والشره والحسود . انما نبغضه لان غرضه الاول اشباع « انانيته » اي تسخير كل ما في الوجود « لانا » التي فيه . « فالانا » هذه هي عنده كل شيء في كل شيء . ومن طبع البشر ان لا يتحملوا « انا » كبيرة الا اذا كانت في مصلحتهم العمومية (٢)

فبعد تركي يا بني مساعدة اخواني الضعفاء والفقراء بجمع المال لم افتتح امامي باب آخر . وخيل لي حينئذ ان العناية الالهية هي التي اغلقت في وجهي ذلك الباب لتفتح لي هذا . فانتني رايت ان المساعدة التي كنت اقوم بها ليست مساعدة حقيقية . لان المساعدة الحقيقية تقوم بانثقال المحتاج من وهدهته وإيجاد عمل دائم له . واي فائدة في جمع المال لمن ينفقه في يومه ويبقى بعده محتاجاً ضعيفاً كما كان قبله . فخطر لي ان ابني بناء ارسخ من هذا واعظم . ولكن اياك يا بني بعد قولي هذا ان تقع في الخطاء العظيم الذي يقع فيه غيرك من اعتبار العطاء مضعفاً لقوي المعطي له ومعوذ الكسل والبطالة . لا لا . انبذ هذا القول نبذاً . فانه انما هو ستار خشن يقصد به تغطية انانية الانسان وقسوته وبخله . ومن حق الانسانية الضعيفة ان تطلب من الانسانية القوية عذراً للبخل والقسوة غير هذا العذر . لان هذه

(١) اليهودية تقضي على الاغنياء بتعشير اموالهم اي دفع عشر دخلهم للفقراء . والسجينة توجب دفعها كلها لصندوق الطائفة لانشاء اخوية اشتراكية جميع اعضائها متساوون في كل شيء . والاسلام يقضي بالزكاة وهو اصل من اصوله . قال ابو بكر مجيش خالد بن الوليد حين زحفه لمحاربة المرتدين من العرب « ان اجابوكم الى داعية الاسلام فساتلوم عن الزكاة فان اقرؤا فاقبلوا منهم وان ابوا فقاتلوم » « ابن الاثير »

(٢) ان البابا لاون الثالث عشر المتوفي في هذا العام كان مثل الراهب متجائلاً يحمل على الاغنياء الذين لا ينفدون الهيئة الاجتماعية بفنائهم . فقسم الاغنياء الى « غني طيب » و « غني ردي » وهي قصة واجبة از في كل طبقات البشر في كل زمان ومكان اناس كرام يستحقون نعمهم ويعرفون واجباتهم واناس لا يستحقونها ولا يعرفونها

الخدمة الروحية . فدخلت احد الاديرة في بلاد الكلدان ونسني نثلّاب شوقاً
للعمل ونفع الناس . وكنت قد رايت ما في الهيئة الاجتماعية من الفساد والظلم لاستئثار
فئة من الناس بكل خيرات الارض وقوى البشر فعزمت ان اكون سيفاً ذا حدين . فكنت
اذهب حافياً مكشوف الرأس بحالة يرثي لها الى منازل الاغنياء وقصور الكبراء وهناك
مثل يوحنا المعمدان كنت افرعهم بسوط التاديب واخذ منهم مالا لاخوتهم الفقراء .
وكان الذي يتمتع منهم عن اعطائي اناذي باسمه على السطوح انه ليس بمسيحي ولذلك كانوا
يعطوني خوفاً ورهبة لا سخاء . وكنت بعد جمع ما اجمعه كل يوم انطلق الى الاحراش
والطرق واكواخ المساكين وهناك اوزعه علي مستحقه وقلبي في غبطة وسعادة من صني هذا .
يا بني ان من لم يعط شيئاً في زمانه لا يعلم لذة العطاء . نعم انني كنت لما آخذ الشيء
اتلذذ باخذه لانني لا آخذه لنفسه ولكنني كنت اجد ان لذة العطاء اضعاف لذة الاخذ .
ذلك ان العطاء فعل من افعال العناية الالهية لانها مصدر كل عطاء فالذي يعطي يكون نائباً
عنها ورسولاً من قبلها . وهذا سبب لذته العظمى . ولذلك لا نجد في الكون كله شيئاً اجف
واثقل من قلوب الذين لم يتعودوا العطاء . ولنشفق على هؤلاء المساكين يا بني لان العناية
الالهية لم تجدهم اهلاً لان يكونوا من رسلها . وكنت عاهدت نفسي على ان لا اترك
الشمس تغيب على قطعة نقود في جيبي . فلما كنت اعود من سياحاتي اليومية في الاحراش
والطرق والاكواخ وجيبي فارغ كنت اشعر بلذة الذي قضى واجبه وفرغ جيبه ليلام قلبه .
ولكن لما كان يتي في جيبي ولو فلس واحد كنت اشعر انه نار يحرقني لانني كنت اعتبر
انني سرفت ما ليس لي . يا بني هنا احد مصادر الفساد ومنابع الشرور . فان اليوم الذي نرى
فيه نحن خدمة الله تعالى ان كل فلس يدخل في يدنا انما هو ملك الفقير لاملكننا ونعطيه اياه
بامانة وشرف بدل جمعه في صناديقنا فذلك اليوم يوم ملكوت الله المنتظر في عالمنا هذا .
لانا يومئذ نكون من حزب الضعفاء والفقراء لا هم لنا الاسعاد شعبنا بدل الزلف
للكبراء والاغنياء مشاركة لم في الاموال التي يستقرونها من دماء الامة

فلما مضت علي بضع سنوات في هذه الحالة تضجر الاغنياء مني وسخط رفاقي وروسائي
علي . وكان ضمير اولئك لانني كنت انقص عيشهم واذكرهم بالموت الذي نسوه في اندفاعهم
في هذه الدنيا وابته نفوس الصغار عليهم . وكان سخط هؤلاء لكرهتهم صنع الخير على غير
ابديهم . فلم يلبث ان انتشر بين الناس ان الراهب ميخائيل يجمع المال من الناس بحجة
الفقراء ويخبئه في الاحراش . ففي شيخوخته سيجتمع لديه ثروة عظيمة . يا بني انني لما

على قوة الفكر . فلما سالتني عن رأيي في دخولك الى اوروشليم القديمة اثرث الاضطراب في نفسي لانك ذكرتني مصارعاتي الباطنية بيني وبين عقلي . فاضطرتني الى الجهر لك بكل ما في ضميري بالرغم عني

ولقد اطلت عليك الكلام يا بني ولكن شجعتني على ذلك اصفاؤك الي بكليتك . اما الآن فقد فرغت تقريباً . فلك الخيار بعد كل ما ذكرته لك ان تكون من جنود اوروشليم القديمة او جنود اوروشليم الجديدة . انما بقي علي بعد كل ما ذكرته لك وما رايته في الصلاة أمس امام القبر وعلى باب الكنيسة ان اكمل هذه الملاحظات بما يوجب ضميري علي ذكره لتي مثلك تحدته نفسه بالانتظام في سلك الخدمة الدينية

قصة الشيخ الراهب

يا بني انك ولا ربب تحب ان تعرف شيئاً من تاريخ حياتي . فانك ترى انني شيخ بيضت السنون شعره ومن كان بسني هذا وهو يعتقد بما بسطته لك آتفاً فانه يدل بذلك على انه لقي في زمانه اضطهاداً شديداً من البشر . وهذا شأن المصائب يا بني فانها اعلى المدارس واسماها لانها هي التي تشجذ هم النفوس وتقطعها عن صفائر هذه الدنيا وتصرفها الى المعيشة الجدية التي يكون فيها للانسان غرض شريف عمومي يسمي اليه . ففي السن الذي انت فيه الآن تقريباً كنت مثلك يا بني وحيداً فريداً في هذه الحياة . بل انك انت الآن اسعد مني لما كنت في سنك اذ لك ام تضحك وتدفئك تحت جنحي حنانها . واما انا فقد كنت بلا ام ولا نسب ولا صديق . فكأنتي خرجت من الارض او نحت من صخورها . ولكن مع انفرادي هذا في الحياة يا بني لم اجبن ولم اشك لانني اعرف مراحم العناية الالهية التي لا تترك من يجعل نفسه اهلاً لمساعدتها وحمايتها . ولم اسب البشر الذين تركوني من كل صوب لان سذاجتي كانت ترى حينئذ اني لم اعمل بعد عملاً يستحق اهتمامهم والنفائهم . فاذا اهتمت فالذنب لي وحدي لا لهم . ولذلك عزمت علي ان اعمل ما يستوجب اهتمامهم بي ويرفعني من هودتي . ولكنني قلت في نفسي ماذا اعمل . هنا كنت في حيرة كحيرتك الآن . هل اجعل غرضي الوحيد نفسي فقط فاتاجر وازرع واصنع ام اجعل غرضي في الحياة محبة الناس ونفعهم فاضحي حياتي كلها من اجلهم . والاسفاه يا بني انني كنت اجهل يومئذ ما اعلمه الآن من ان للخير ابواباً عديدة . كنت اجهل ان الذي يخرج من الارض قبضة من الحنطة مثلاً او يصنع للناس آلة يحتاجون اليها انما ينفع الناس كما ينفعهم الذي ينقطع الى ارشادهم وتعليمهم . وهذا ما جعلني اختار

ولذلك قلت لك ان اصلاح الارض مسألة علمية لا مسألة دينية واوروشليم القديمة يجب ان تفسح مجالاً لاوروشليم الجديدة . فيا ايها الاحلام الذهنية والاوهام الخيالية اتكونين يوماً حقيقة مجسمة . يا ايها الانسانية التعمسة اتبلغين يوماً طور الكمال هذا ام تبقين الى الابد في اضطراب وبغض وفساد وحروب وشقاء كما انت الآن . ويا اورشليم الجديدة اتصنعين يوماً ما عجرت عنه اورشليم القديمة ١

الله يعلم ذلك يا بني ولا يعلم أحد غيره . ولذلك لا اذكر لك ما ذكرته كحقيقة مطلقة بل كرائي لي لك ان نبحث فيه ونرى فيه رأيك . فيا ولدي العزيز . كنا في هذه الارض عرضة للخطأ وهدف للضلال . وربما اثبت المستقبل بعد مليون سنة مثلاً او نصف مليون ان هذا القصر العلمي الذي رسمته معك الآن انما هو قصر في الهواء . وان الحقيقة الحقيقية هي ما نودي به في حقول الجليل على شواطئ بحيرة طبرية منذ ستمائة سنة من ان المعيشة في الطبيعة بلام ولا غم هي المعيشة الانسانية الحقيقية وان البعد عن صلـ المسال وافاعي الجاه والعالم هو الخبر المطلق . وهذا ما يصبو اليه قلبي كما ذكرت لك آنفاً وان كان عقلي متعلقاً بذلك . اجل يا صديقي ان هذه الصورة الجليلية لمي الصورة السماوية التي نقبض على نفسي بمقابض من حديد بالرغم عنها . وكل ما حاولت ان افول ان ذلك في من تأثير العادة والتربية ينادي منادي الطبيعة في داخلي هذا النداء الطويل : — كلا كلا . هذه هي الطريق المستقيمة . هذا هو سبيل السعادة الممكنة . اخرجوا اخرجوا الى الطبيعة يا ابناءها وعيشوا فيها بعيدين عن مفاصد الثروات والمدنيات . كونوا كطيور السماء وزنايق الحقل لا تهتم بشيء لانها تجدد في الطبيعة كل شيء . اهدموا القصور حيث تعشش الرذائل المختلفة . اخرجوا المدن حيث تسود الشرور . مزقوا الكتب وانبدوا العلوم والفنون فانه يكفيننا منها كلها علم النفس الذي يشعر به كل واحد منا . ولا نطمعوا في السعادة والراحة والكمال والاصلاح من طريق الدنيا فانها كالماء المالح كلما شرب منه الانسان ازداد عطشاً — وعلى هذا يجيء لي عند مماعي هذا الصوت الهائل ان العالم الآن خارج عن محوره شاذ عن طريقه فترتد فرائصي لذلك وامث بان افر منه الى البرية لاعيش هادئاً سعيداً مطمئناً . واعرف من ذلك الصوت السري الخارج من دمي السبب الذي من أجله كان واضعوا الشرائع الدينية يحرّمون على الانسان التمتع بالدنيا

فيا صديقي العزيز . هذان طرفان لا اتفاق بينهما الا في النهاية . احدهما يمثل اورشليم الجديدة والآخر يمثل اورشليم القديمة . ونفسي تتردد بينهما متألة منذ تحرّر عقلي وحصلت

والمرضى والعاجزين والمستشفيات المختلفة عامة في كل بلدة لا يواء الضعفاء وسد حاجاتهم
وأكابر الامم يتفاخرون بزيارتها وصنع الخير فيها . ارى كل شبر في الارض يُحْرَثُ ويُزْرَعُ
وينبتُ خيرات لسكان الارض ولذلك تُكسر السيوف والرماح والتروس وتُصب محاربت
ومعاول . ارى الضغائن والاحقاد بين عناصر البشر المختلفة تهمد وتحمد بهذا التداخل
العظيم بعضهم في بعض وثقة قهيم انهم انما كانوا يتحاربون على لا شيء . ارى الطب يطيل
عمر الانسان الى ما بعد المائتين (١) ويتغلب على الامراض والشيخوخة فاذا جاء الموت
كان نومًا لطيفًا هادئًا . ارى الرزق الذي يقتل عليه الناس اقتتال الحيوانات الضارية
قد رخص وخفّ فصار الرجل الواحد يحمل منه في علة في جيبه ما يكفيه ايامًا (٢)
ويأخذ من الهيئة الاجتماعية ثمنًا . ارى اجناس البشر في الشرق والغرب فرسًا ويونانيين
ورومانيين وسوربين وعربًا ومصريين ويهودًا وسلافيين ولوهباردين وفنلنديين ومغوليين واتراكًا
وهولنديين وقوطًا وفرنكيًا وهنودًا وصيديين (٣) وبرايرة مختلفة تُكرّر فيهم الانسانية على ممر القرون
والاجيال وتنتق من الحيوانية والجهالة والشهوات المفسدة فيمدون ايديهم بعضهم الى بعض
متصافحين متصالحين بعد طول الشقاق والنزاع ويبشرون في الارض بسلام وامن وسعة
وفضيلة تامة كأنهم اخوة في عائلة واحدة . — يا بني . هذا ما اراه في احلامي واوهامي منذ الان .

ولكن يظهر ان الافكار في انكلترا تغيرت في هذا العصر وقام الاحرار بناوئون هذا المبدأ منهم شارلس بولنس
وروثري وه . صوثيل وتريفيلين وهيريت وموراي وهموند وكلهم من مشاهير احرار الانكليز وقد
حصل هذا القول في انكلترا على اثر كتابات رسكين وكركيل وجورج البوت الذين اثروا على فكر الامة
فصرفوه عن مبداء الاستفراد individualisme الذي اشتهرت به انكلترا الى مبداء الاتحاد
والتعاون وتأليف الجمعيات ومن هنا قويت في انكلترا المبادئ والجمعيات الاشتراكية . وخلاصة نتيجتهم
ان ناموس (تنازع البقاء وبقاء الافضل) هو ناموس : ولوجي طبيعي لا يصلح ان يكون قاعدة هيئة اجتماعية
مختلفة المصالح والمشارب . فانه قد ثبت في المدينة الحاضرة انه ليس كل من ينهضون اقوياء وليس كل من
يسقطون ضعفاء . فكم من الاقوياء المستقيمين المدربين تذهب بهم عواصف البورصات والافلاس ونظام
التجارة المجدد دون ذنب جنوه . واحياء الهماد في لندن وباقي العواصم لا تتفلس مع الوقت وتموت تبعًا
لنظام بقاء الافضل بل انها تزداد اتساعًا . وعلى ذلك فالضعيف في مدينة كالمدنية الحاضرة يُفسد القوي بدل
ان يفرض لجأوته . وبناء على هذا يوجبون مداخله الحكومة لمنع الفساد . ولذلك كاد البرلمان الانكليزي
في العام الماضي يطل التزام احد مقالع الحجارة اي يناقض مبداء حرية العمل لان الملتزم عاند عمله بما اطال
اعتصامهم وفسد احوالهم . وقد انشأت جريدة الطان يومئذ لذلك مقالة افتتاحية للدلالة على اهمية هذه المداخله .
(١) راجع رأي مشنيكوف في الجامعة السنة الرابعة الصفحة ٣٣٩ « ٢ » هو الغذاء الكيماوي الذي
يقول برتلوانه سيكون في المستقبل حبوبًا في علب . . . « ٣ » اسماء اشهر العناصر البشرية التي كانت
موجودة يومئذ

بالاحسان اليهم فان هذه الكلمة المهيمنة « الاحسان » يجب ان تمتحى من قاموس البشر ويحلى محلها في هذا الباب كلمة « دين » لان جميع البشر يجب ان يكونوا متضامنين متكافلين . اذا فالاقوياء والاصحاء والاغنياء والكبراء مديونون للضعفاء والفقراء والمرضى والعاجزين ديناً اجتماعياً لان هؤلاء هم عملتهم واعوانهم في جميع مشروعاتهم ولولاهم لما استطاع اولئك ان يعملوا شيئاً . فنحن نطلب قوة عادلة تستوفي هذا الدين من الاقوياء للضعفاء . وفوق ذلك نضمن لهؤلاء رزقهم الذي تقدم ذكره لتهدأ زواجع الحياة وعواصفها المهلكة . ولكن ترى ما هي هذه القوة المطلوب منها ضمانه رزق الضعفاء في الارض وهم سواد الامم تقريباً . ومن اين الاعمال والاموال لاتمام ذلك في ملايين البشر العديدة . ايها الشاب انك لا تزال فتى صغيراً . ولكنك غداً ستشب وتكون رجلاً كبيراً . وكذلك العلم الذي خلقه الله حياة ونوراً للانسانية : ان العلم لا يزال في الارض طفلاً صغيراً يا بني . ولكن سيأتي يوم يسود فيه هذا الصغير الدنيا كلها . ان امبراطورنا يشغل اليوم بالعلم لانه يظن انه يمكنه به قلب المعدن الدنيء معدناً كريماً* اما نحن معاشر الناس الذين ننظر الى المستقبل وننتقل الى ما وراء الفضة والذهب فاننا ننظر من العلم ان يقلب الانسانية التعيسة انسانية سعيدة . وكأن غطاء المسقبل يكشف الآن عن عيني وارى الانسانية الاتية الجديدة . ارى الانسان يسير في البر والبحر والهواء بسرعة الطير ويحمل المصنوعات والمزروعات لام بعيدة . ارى البشر يتخاطبون من قارة الى قارة كأنهم في غرفة واحدة . ارى الشعب يرتقي باختراع الآلة الميكانيكية لان المصنوعات لا غنى لها عنه وعنهما فيصير شريكاً لصاحب العمل فيها وبذلك ترتقي طبقة وتملأ الهاوية التي بينه وبين سيده صاحب العمل (١) ارى العملة الضعفاء الفقراء يصيرون قادة الممالك بالانتخاب العمومي ونقديس الانسانية اي اعتبار كل فرد من البشر مساوياً لاي فرد كان في الحقوق والواجبات العمومية لدى الهيئة الاجتماعية . ارى الحكومات تحجل امام الله والناس من ترك الكبار على الصغار والاقوياء على الضعفاء بحجة ان البشر احرار يصنعون في معاملاتهم ما يريدون صنعه ولذلك توجب على نفسها المداخلة بين الفريقين لضمانه حقوقهما (٢) ارى ملاجئ الشيوخ

١ « راي برتلو ٢ » هذا هو المبدأ الذي يتنازع عليه الاحزاب في العالم . فالاحزاب القديمة تقول انه ليس للحكومة حق المداخلة بين العملة واصحاب الاعمال والاحزاب الجديدة تقول بل ذلك من واجباتها . والقول الاول قول انصار حرية العمل في العالم بناء على ناموس تنازع البناء وبقاء الافضل . اي ان الحكومات يجب ان تطلق حرية العمل للبشر وبذلك ينهض الاقوياء الذين في نهوضهم فائدة ويسقط الضعفاء الذين لا يقدر ان يبدوا شيئاً . وقد كانت انكلترا مصدر هذا المبدأ العلمي الذي ايدى دروين وسبنسر وولس .

طبقات البشر . ويدعو الى الفضيلة والصدق والرفق والمحبة والتواضع والاخاء . ولكن يا صديقي اي تأثير لهذه الالفاظ في النفوس اذا لم تعمل بها . انها تبقى الفاظاً فارغة من المعنى كالبنديق الفارغ . ويكون اصحابها الذين يقولون بها ولا يعملون بما يقولونه مؤمنين في الظاهر وثنيين في الباطن . وكثيرون منهم يزعمون انهم معذورون لاقتصارهم على القول دون الفعل . فانهم يقولون مثلاً : كيف نستطيع القيام بما يفرضه الدين علينا قبل ان نعدّ لنا لوازم حياتنا . كيف نكون امناء مع الفقر والحاجة . وصادقين مع الضغط والظلم . ومحبين صافحين مع الحقد والبغض . وهادئين مطمئنين مع زواجر الحياة التي تعبت بنا من كل جانب . افلا يجب على الاقل ضمانة معيشتنا اليومية لنا لنتمكن من التزام الحدود وقتل صلّ الطمع والحيوانية في داخلنا . فلتضمن لنا الهيئة الاجتماعية رزقنا اليومي وترى بعد ذلك هل يخفّ الشقاء والفساد في الارض ام لا

واسفاه يا بني . ان في هذا الكلام شيئاً كثيراً من الحقيقة كما فيه ايضاً شيء كثير من الباطل . فانه يجب علينا ان نطلب الفضيلة لذاتها بالرغم عن فقرنا وحاجتنا وضعفنا . والا فان الفضيلة لا تكون فضيلة ولا يكون لنا فضل فيها (١) . ولكن الباطل الذي في هذا الاعتراض لا ينبغي ان يستمر فيه من الحق : فانه على الهيئة الاجتماعية ان تهتم بكل واحد من الناس لتضمن رزق من لا رزق له وبذلك تكون عملة على تخفيف الشقاء والفساد . وهنا الخطاء العظيم الذي وقعت فيه الكنيسة . فانها ماذا تعلمنا اليوم (٢) ؟ تعلمنا ان الفقراء والجوع والعطاش والمرضى والمتعبين والضعفاء والمحتاجين يجب ان يكتفوا في هذه الحياة بالشكر على بلوهم لانهم اهل ملكوت الله . فكل المساعدة التي تقدم الكنيسة بها قاصرة على تقوية نفوسهم لتتحمل مصائبها . وليس هذا حقهم وحده . بل هم كبشر من مخلوقات الله لم هنالك حق آخر

أجل يا اخي الصغير ان هؤلاء البشر حق المساعدة والاسعاف على الهيئة الاجتماعية لانهم اخواننا في الانسانية . وهذا دين لم علينا . ولا نقل ان الكنيسة والهيئة توصيانا

(١) اجل تعريف للفضيلة تعريف برنارد دين دي سان بيز وهو : ان الفضيلة هي مغالبة الانسان نفسه لاجبارها على صنع الخير للغير لوجه الله لا من اجل مكافأة من الناس

(٢) قال الراهب الشيخ « اليوم » لان الكنيسة في صدر المسيحية اي في زمن الرسل لما كانت طائفة ضعيفة صغيرة كان كل اهتمامها مصروفاً الى العناية بالضعفاء والمحتاجين وكان كل واحد يبيع املاكه ويدفع ثمنها الى صندوق الطائفة ومنه يُنق على الجميع

ولما كنتُ في بلاد النبي العربي يا بني وقفتُ في ذات يوم خارج « المدينة » وكانت خيام جمهور من الحجاج مضروبة في الخلاء والنبيُّ يفتقد الحجاج ويلاطفهم ويزودهم رضاه وهم امامه خشع خضع احتراماً واکراماً . فسرّحت نظري في حالتهم البدوية الجميلة وأعجبتُ بالفطرة الانسانية التي يكون فيها البشر بلا هم ولا حزن غير الاهتمام بمقتدّم . فتذكّرت حينئذٍ منظراً آخر . تذكّرت سيدنا المسيح وتلامذته حول بحيرة طبريا في حقول الجليل الجميلة يتمشون بين الازهار وسنابل الخنطة وهم منقطعون عن هموم الدنيا . فاطبقت حينئذٍ عيني من لذة الذكرى لنتمتع كل حواسي بها . وصرت اقول في نفسي لدى هذين المنظرين : هذه هي فطرة الانسانية . هذه هي المعيشة الهادئة التي تنطبق على الحياة الروحية . ثم تساءلتُ : ايُّ افضل : ان تبقى الانسانية هكذا طفلة صغيرة تعيش في وسط الطبيعة والنباتات والازهار والاطيار وهي محافظة على اصول شرائعها الساذجة الاولى - ام تصير امة عظيمة فتبني المدن وتجمع الخيرات والثروات وتحيي الفنون والعلوم وتشيد الدول والممالك وان تركت تلك الشرائع الساذجة الجميلة . واسفاه اننا جرّنا ورأينا . رأينا ان الانسانية متى خرجت عن طور النظرة والطفولية صارت رجلاً خشناً يهتم بمعدته أكثر من نفسه . رأينا ان مبادئ الدين اذا غلبت بعد الانقلاب وصارت سائدة بعد ان كانت مسودة تسأحت بالقوة وعاملت من لم يكن منها كما كانوا يعاملونها لما كانت ضعيفة . ولذلك يا ابنتها الفطرة الضعيفة الصغيرة انما يتحرك قلبي حينئذٍ ايك . وافضالك على كل المدينيات الكبيرة والممالك الواسعة . لان هذه انما هي عبارة عن « كرش » واسع فيه اقدار الهضم مقدّمة على كل شيء .

يا بني . عذراً لتحمسي هذا . فاني صرفتُ شيخوختي في التفكير في هذا الموضوع . وقد وصلتُ الى آخر العمر وانا اعتقد اعتقاداً هدم آمالي كلها . وهذا الاعتقاد هو اننا في الهيئة الاجتماعية الحاضرة لا يمكن الاصلاح بواسطة الدين الا اذا كانت الانسانية تعود الى طفوليتها وفطرتها الاولى . فان الدنيا قد زحفت وتغيرت . وصار يلزمني جديد للانسانية الجديدة يا صديقي الصغير . لا تستغرب هذا الكلام الذي اقول لك وانا كاهن فاني تعودت ان اقول الحق ولو كان على نفسي واعز شيء عندي . ان الدين لم يقدر على اصلاح الفساد الاجتماعي الذي وصفته لك في مقدّمة الكلام . ولا يزال يباركه منذ مئات سنين بركة لا احب لك ان تشترك فيها . نعم انه يشجب الرذائل والشهوات . ويحقّر المال ويسميه الهاً مبالغاً في اذلاله وتنفير الناس منه لئلا يشركوا بالله . ويوجب المساواة بين جميع

يا بني . عفواً اذا وجدت في كلامي شيئاً من الحدة . اذ كيف تريد ان اكون هادئاً رزيناً حين تذكري هذه الامور كلها . انني كاهن ويحق لي ان استشيط غضباً لالقاء جوهرتنا في وحل العالم . وقد غضب يوماً سيدنا مع كثرة صبره وحمله تحمل السوط وطرد الباعة والصيارفة من الهيكل . فلي اسوة به اذا غضبت وارسلت سوط الكلام الى ظهور باعتنا وصيارفتنا ...

انك ربما تستغرب كلامي هذا يا ايها الفتي الساذج النقي لانك لم تعرف شيئاً من فساد العالم ولم تر قبل الآن بلداً غير الناصرة ووطن سيدنا . ولكن فاعلم الآن — ولا استغراب — ان كل الناس يعرفون هذه الحقائق التي ذكرتها لك ولا يجهلونها . وكمن مرة سمعت بعضهم يقول علي نعم رنين النقود في الكنيسة وباقي المظاهر اليهودية القديمة ان المسيح لوجاء الآن لما دخل علينا الا وهو حامل سوطاً . اجل يا بني . اتنا كلنا لا نجهل هذه الحقائق ولكن ما الحيلة . فاننا سائرون بالرغم عنا الى طور الهرم . وهذه سنة كونية لا تردّها الا سنة مثلها . وفعلها عام على كل المذاهب والاديان في كل زمان ومكان لاعلينا وحدنا اسمع يا بني لاخبرك خبراً مهماً . انك سمعت ولا شك شيئاً عن العرب . فهذه القبائل البدوية قام فيها رجل هام يدعوها الى ترك الاصنام وعبادة الله تعالى والامر بالمعروف والنهي عن المنكر وابتاء الزكاة وهو النبي العربي الذي شاع خبره . وقد تمكن هذا النبي من التغلب على القبائل المشركة بقوة السيف المؤيدة بقوة الاعتقاد والثقة من افضلية المبدأ فجمعها كلها تحت لوائه استعداداً لغزو العالم وفتحها بها . وقد كنت منذ مدة في تلك البلاد لاننا نحن النساطرة لنا حظوة عند النبي العربي ورجاله وقد عرف بضعة منا وحادثهم * فلما شاهدت النبي وسمعت ما سمعته عنه من الحلم والشجاعة والعدل والرفق والمساواة والعناية بالضعفاء قبل الاقوياء عرفت السر في تأييد العناية الالهية له في نهوضه . وسررت سرور الطفل لاني عاصرت زمناً عظيماً وعصرًا ذهبياً . اجل يا بني ان عصر الانبياء عصر ذهبي . لان الشرائع التي يضعونها تكون عذراء طاهرة لم توضع عليها يد غير اليد الكريمة التي وضعها . ولكن لا بد بعد واضعها ان ياتي المهسرون والموءولون والرواة والناقلون . وليس ذلك فقط بل ان الطبيعة نفسها تبدأ بفعلها الابدي . فان الليل والنهار يتعاقبان . والقرون والاجيال تمر . فالامم والمذاهب التي تكون اطفالاً في البداءة تشب وتثمر وتغدير احوالها فلا تعود تكفيها شرائعها الفطرية الاولى — وهذا ما حدث لنا وسيحدث لغيرنا بعدنا

الحقيقة هي عندي يا بني اثن من كل شيء . ولذلك انا اصريح لك بها
نعم انني لا اخشى عليك من اساءات الرؤساء وظلمهم فان نفسك القوية لا تبالي بهم
لانك لا تخدمهم وانما تخدم الله والناس تحت رئاستهم . وانما اخاف عليك شيئاً آخر
انظرت يا بني تينك الانسانيتين اللتين التقتا بعد الفراغ من القداس امام باب
الكنيسة . هناك راءيت ولا شك انسانية سعيدة وانسانية تعيسة . هناك بشر يلبسون
الحرير والدباج ويتحلون بالجواهر ويسكنون القصور ويشربون الخمر ويمحشون بطونهم حتى
حيواناتهم بكل ما في الارض من اطياب وملاذ . وهناك انسانية اخرى تعيسة شقية تطلب خبزاً
لتأكل فلا تجد فتنام على الطوى بلا اكل . وتطلب ملجأً تأوى اليه فلا تجد فترقد على
تراب الاسواق والشوارع تحت قبة السماء . وتسال ثوباً يقيها البرد ويستراجمها المزيلة
الصفراء من المرض والحاجة فلا تجد ايضاً فتعيش عارية الاجسام كالحيوانات . يا بني . هنا
اعيد عليك قولي السابق : انني لا اخاف عليك من اساءات الرؤساء وظلمهم اذا صرت
خادماً للارواح : وانما اخاف عليك من الله والناس ان تمدد يدك يوماً الى تلك الانسانية
السعيدة وتباركها فتبارك بذلك الظلم الاجتماعي الذي يسبب هذا الفساد
أجل يا بني . اننا عدنا الى الحالة التي حاربها المسيح منذ ثمانمائة سنة وبذل دمه لهدمها . انه
جاء ليعلمنا الرفق والمحبة والمساواة . ويجعل الجميع اخوة . مبطلاً قسمة الناس الى قسمين
اسياد وعبيد . كبار وصغار . اغنياء وفقراء . اقوياء وضعفاء : وهوذا نحن اليوم كما كان
اليهود لما صلبوه . — انه جاء لمحاربة الفريسيين الذين يعرضون اكمامهم ويشخون بانوفهم
ويحبون المتكثات الاولى في المجامع وان يناديهم الناس سيدي سيدي ويتخذون وظيفتهم
الكهنوتية آلة لكسب المال من الاغنياء والاقوياء مهملين الفقراء والضعفاء اذ لا يرجي
منهم نفع ولا ربح : وهوذا الفريسيون عائشون في هذا العصر ايضاً ولم ينقضوا
بانقراض اولئك . — انه جاء لمحاربة الدين الذي يدعم بالمصلحة والمادة وعبادة المحسوسات .
وصرع رجاله المرائين الذين يصمون بشفاهم صلاة لا تصدقها قلوبهم . ومقاومة جعل
الكنيسة ادارة واسعة فيرا رئاسة ضاغطة وكهنة خصوصيون يرتزقون من وظيفتهم لان كل
انسان يجب ان يكون كاهن نفسه . ومعارضة الذين يقيدون الله بالهياكل فلا يعتبرون الصلاة
في غيرها صلاة حقيقية : وها نحن يا بني نكاد نعود الى هذه كلها . ولو عاد الآن سيدنا
المسيح الذي لبسنا من حبناله هذا الثوب الاسود المتعب لاضطر ان يصلب نفسه على يدهم
مرة اخرى للدفاع عن المبادئ التي دافع عنها في المرة الاولى

ترددت أولاً عن تحمل هذه التبعة العظمى . ولكن دموعك واضطرابك غلبتني فجئت معك الى هنا على هذا الجبل المقدس الذي دوت في فضاءه تعاليم الهية لا ذكرك فيه ثمرة اختباراتي في هذه الحياة كما طلبت مني

يا بني انك تسألني بعد ما شاهدته في المدينة وفي القديس امام القبر المقدس هل نخرط في سلك الخدمة الدينية كما كنت تنوي ام تعدل عن ذلك الى خدمة اخرى . وما هي الخدمة التي تليق بك . فاجيبك انك اخطأت في تركك تلك الامور الجزئية تؤثر على عقلك . والارجح ان سبب خطئك توقعك من لبس الثوب الاسود الوصول الى الراحة والهناء والسعادة في هذه الارض . ولذلك اجفلت لما رايت الاسقف يلطم شماسه امام الناس والكاهن يبكي وينوح لانهم قطعوا رزقه وضغطوا على حريته . ولكن فاعلم يا بني انني لا احثك على ترك الثوب الاسود للفرار من الاذى والاهانة والضغط والاضطهاد . لان هذا الثوب ما خلق الا ليتحمل هذه كلها . فاذا كنت تشعر في نفسك بالقوة على تحملها والترفع عن الاهتمام لها فاقدم عليه . والا اذا كنت تطلب به الراحة والهناء فاتركه لانك تكون ضعيفاً يجب ان يخدمك الناس لا ان تخدم الناس

نعم يا بني . لا تدع فساد اعمال الروءساء يمنعنا من صنع الخير والقيام بواجباتنا في هذه الحياة . وهل الارض للروءساء لنتركها لم حالمنا يظهر لنا انهم عاديون عليها وعلينا . كلا . ان كل اساءاتهم وظلمهم وسوء تدبيرهم وعمام واضطهادهم وعدوانهم لا ينبغي ان تمنعنا من اتمام ما علينا للبشر الذين يعيشون معنا . فنحن نكون خدمة لله والناس حتى بالرغم عنهم . واذا اصابنا في حياتنا ابان الخدمة ما اصاب ذلك الشماس من رئيسه امام القبر فاننا نقبل اللطمة ونتعزى باننا اقرب الى المسيحية وكتابها من ذلك الرئيس الالاطم . وحينئذ يرى الله والناس اننا نحن الصغار المساكين انما نحن الروءساء الحقيقيون بالفعل اذ في نفوسنا قوة الرئاسة التي هي قوة المبادىء والعمل بها على حين انه لا يكون من الرئاسة لذلك الاسقف الرئيس وامثاله غير ملابسها المزخرفة . .

أجل يا بني . انني لا ارى في تلك الصغائر ما يمنعك من الخدمة لانني اهمل اساءات الناس واعتبرها كأنها غير موجودة . ولكنك هنا تسألني ولا شك : اذا انت تشير عليّ بالاقدام على الخدمة ونبذ الهواجس من نفسي ؟

يا ولدي العزيز . هنا وصلت الى موقف صعب انا فيه بين نارين . فمن جهة يعز عليّ ان اجهر بما في ضميري لانه مؤلم ومن جهة اخرى يعز عليّ ان اكذب واخادعك . ولكن

ولا اكلك عناه وانما اطلب رايك . فقل لي ماذا اصنع في هذه الحياة التي تركني الله فيها وحدي

فاغرورقت حينئذ عينا الشيخ ميخائيل بالدمع ففرغ كنف التي بيده تمهيباً اليه واجاب . هل تحب ان نشهد معاً بزوغ الشمس غداً يا بني . فاجاب ايليا نعم احب ذلك . فقال الراهب وانني غداً بعد الفجر الى جبل الزيتون وهناك نشهد بزوغ الشمس وتحدث على انفراد في الموضوع الذي طلبت رأيي فيه

الخطبة على الجبل

قصة الراهب الشيخ ميخائيل - طلوع الشمس على ايليا (١)

وفي فجر اليوم التالي بكر ايليا الى جبل الزيتون لانه لم ينم في الليل الا قليلاً . فوجد الراهب الشيخ ينظره تحت ارزة هناك . وكانت الشمس لا تزال بعيدة وجيش النجوم في السماء الصافية آخذ في الفرار امام عروس النور . وكان البرد قارصاً وريح الصباح نهباً شديدة على الارزة فتثنأً أغصانها لذلك انيناً شديداً فاشار الراهب الشيخ الى الفتى بجدة ورزاة ان يجلس بجانبه واذ جلس اخذ الشيخ يقول والطبيعة كلها في اواخر ذلك الليل مصغية مع الفتى الى كلامه اللطيف

. — يا بني : لا تزال الشمس بعيدة فانتحاث قليلاً قبل ان تشرق . فاننا لا نحتاج الى نورها لبث الحرارة في نفوسنا فان الروح الالهية التي اودعها الله في داخلنا كافية لذلك . ولقد سرت امس حرارة نفسك الى نفسي فأريت ان احادثك هذا الحديث بعد ما شهدته امس من اضطرابك وبكائك

يا بني . نعم انك لم تطلب مني فضة ولا ذهباً . ولم تكفني عناء . ولكن فاعلم انك طلبت مني ما هو عندي اهم من الفضة والذهب . لقد طلبت مني امرين عظيمين . الاول ان امد يدي الى ضميرك في باطن نفسك واديره الى حيث اشاء . والثاني ان احكم لك على هيئتنا ومعيشتنا الحاضرة الحكم الذي اراه

هذا ما يجب ان يدور عليه محور جوابي اذا اجبتك على سوءالك . ولذلك رأيتني

(١) وجدوا في وصية الراهب الشيخ ميخائيل انه كثر في محب للشرقين بهدي هذه الخطبة الى كل من كان منهم ذا فكر سليم ونية حسنة وعقل مطلق من قيود الجبن والتقليد يطلب الحقيقة المطلقة والنضيلة المجردة

والتيجان اللؤلؤية التي تكلل شعور السيدات في شبكة خصوصية * والروائح العطرية التي تفوح من تلك الملابس الجميلة والغضاضة البادية في الاجسام البضة النقية التي تحنها - كل ذلك كان يدل على امة سعيدة في الظاهر غنية متمتعة بالملاذ والاطياب . الا ان الفقراء الذين كانوا صفوفًا صفوفًا تجاه الكنيسة وحول بابها وجدرائها وهم بحالة يرثى لها من الشقاء والضعف والفقر كانت حالتهم تدلُّ ايليا التي الساذج على ان في تلك المدينة العامرة بغناها وابهرتها انسانيتين واحدة سعيدة وواحدة تعيسة . والمضحك انه ظن لسذاجته ان الاولى مسيحية والثانية غير مسيحية . لانها لو كانت مسيحية لشاركت اخوتها المسيحيين السعداء في خيرات الارض ونعمها وكانت مساوية لهم في المملكة

فبقي ايليا مفكرًا بعد كل هذه المناظر المختلفة يمضي بجانب الراهب ميخائيل الذي كان يفكر مثله ايضا . وكان يقول في نفسه وهو ماشٍ مفكرًا بضرب الاسقف الشماس . ماذا اصنع بعد ما رأيت ؟ هل ادخل تحت يد هذه السلطة التي لا تحجل من الاساءة اليّ واهاني حتى امام الناس مع اني في دخولي تحت يدها اتنازل لها عن اثن شيء عندي واعطيها أكثر مما تعطيني . هل ارضى لنفسي ان تكون في المستقبل في منزلة ذلك الكاهن المسكين الذي اهانوا ايمانه وقيدوا حريته من اجل شيء صغير . لا لا . اني احب الرهبانية . احب معيشتها الهادئة الاشتراكية . احب الاناشيد جماعات جماعات تحت سقوف الكنائس الكبرى والاديرة العميقة حيث تجواب الاصدااء فيها كأنّ الجو مأهول بملائكة تردد اصوات الشيد والصلاة مع المنشدين والمصّدين — ولكنني احب قبل كل شيء حريتي وشرف نفسي . فاني ربيت في الحقول بين الازهار والطيور حرًا مطلقًا مثلها . فاذا قيدت نفسي الآن هذا التقييد الذي يجعلني رمة هامدة حرمت نفسي اعظم نعم الله واكبر اللذات الروحية واعني بها الحرية . فاذا اصنع يا ترى . ماذا اصنع . اترك هذه ام اترك ذاك . واذا تركت الرهبانية فاذا اصنع في العالم . ومن اين اعيش . واين اذهب في معترك هذه الحياة

ولما علم الراهب ميخائيل باضطراب نفس ذلك التي في هذا الشأن اشفق عليه اشفاق من سبقه الى هذه الافكار في صباه . واذا سألته التي الارشاد والنصح تردّد الراهب وبقي ساكنًا . فبكي التي وقال انني وحيد فريد في الدنيا وقد جعلك الله في طريقي لتكون لي مرشدًا فلماذا تضنّ عليّ بشمرة اختبارك . اما انت انسان ومسيحي مثلي . انسيت قول الانجيل : من طلب منك فاعطه ومن سالك فلا تردّه . انني لا اطلب منك ذهبًا ولافضة

ازراركمه فاضطرب وابطأ . فغضب المطران ولطمه على وجهه بيده اليمنى الممدودة .
ويظهر ان الشمس الذي ذهب ليا في بالانجيل ابطأ ايضا واضطر الاسقف ان ينظر
قليلاً فلما جاءه بالانجيل لطم بيده اليسرى ذلك الشمس لئلا تغار من اليمنى وهو يقول له
باليونانية كاسد يزجر « دباولي » (١)

فلما رأى ايليا ذلك المشهد الغريب ارتعدت فرائصه وصبغ الدم وجهه حتى كاد يخنقه .
ثم نظر الى الاسقف ليرى هل يجترى بعد صنعه هذا على مس الانجيل بيده الضاربة فوجد
انه تناول بها الكتاب بكل قوة — ذلك الكتاب الذي يجرم عليه الصلاة بعد ذلك ان
لم يستغفر اخاه الشمس الذي اساء اليه — وصار يتلوه بصوت جهوري

اما الراهب ميخائيل فانه لما نظرتة نثر ايليا ابتسم ابتسامة هو وحده يعرف معناها
ولما انتهى القداس وخرج الناس نظر ايليا الى صفوف الرهبان الخارجين فوجدهم وقد
تفرقوا شتاتاً في فناء الكنيسة كأنهم اسرى واُطلق سراهم . وكانوا يضاحكون بعضهم
بعضاً وهم خارجون ويثبون وثباً كأنهم مبتهجون بانطلاقهم . من قيد النظام الذي
كان يجعلهم امام رؤسائهم كاصنام جامدة (٢) فزاد استغراب ايليا لانه كان يظن ان
ذلك الهدوء والرزانة والمعيشة الجدية والاحتشام خلفاء لهم في غيبة رؤسائهم وفي محضرم
نفرج ايليا من اول حفلة حضرها ونفسه الدينية قد جرحت جرحاً اليماً . وفي خروجه
استثوقه على الباب صراخ كاهن يبكي ويصيح عند مرور الاسقف . وبعد الاستخبار ظهر له
ان هذا الكاهن كان من القائلين بالطبعيتين والمشيئة الواحدة وقد اغضب البطريرك
صفرونيوس بشدة مقاومته فعاقيه البطريرك بان « ربطه » اي قضى عليه بالامتناع عن اقامة
القداديس والصلاة فوق المذبح . فتأمل ايليا في الكاهن وهو خارج ورثى لحاله لان ذلك
الضغط لا يقطع رزقة نقط بل يلقى عليه وعلى اسمه شبهة عدم الاستقامة في الايمان ويقيد حرته
وكان كثيرون من اكابر القدس قد حضروا هذه الحفلة . فاخذ ايليا والراهب ميخائيل
يتأملان في سيدات اورشليم الجميلات الخارجات من القداس وشبانها الذين كانوا في
الظرف واللفظ والكيامة اشبه بالسيدات . . . وكانت الاطالس والاثواب الحريرية

(١) ليست هذه القصة تصنيفاً من المؤلف بل رأها بعيني في قداس امام القبر المقدس كان القائم
به بطريرك مشهور بشدة الوطأة قبل بطريرك القدس الحاضر . ودباولي معناها شيطان . وكان البطريرك
يومئذ مقدس لاجد الملوك في يوم عيد

(٢) هكذا كان ايضا بعد صلاة البطريرك الذي تقدم ذكره في الحاشية السابقة

ذكروا امامه احدهما فانهم كانوا يصآبون استعاذة منه بالله . واما الآن بعد قراءة تاريخ حياتهم فقد ذهب بغضه لم لانه لم يرهم سوداً كما وصفوا له . بل انه اعجب بجرأتهم على الجهر بما اعتقدوه حقاً وذكر لم فضل العمل والصدق في الفكر والقول . ولكنه لم يقتنع بمذهبهم لان امه ارضعته مع اللبن حب كنيسة وامه الحنون التي سيندمج في سلك ابنائها بعد حين . ولذلك اطبق الكتاب بعد الفراغ منه وتنهياً قائلاً « لا تدبنوا لكي لا تدانوا » الا انه بقي في ذهن النبي برق من هذه المطالعة السرية وهو حب البحث وحرية القول والفكر وفي العام التالي اخذته امه الى القدس ليندمج في السلك الاكبريكي . فذهب اليها ابلياً بسرور وشوق كما يذهب الى الفردوس الارضي لو علم بمكانه . ودخلها كملك خالقاً ومخلقاً وقلبه يرقص طرباً لانه سيكون في المستقبل من اولئك الرجال الضعفاء الذين تحنى امامهم رؤوس القياصرة والملوك والكبراء ولا سلاح لم غير ثوبهم الاسود

ففي القدس لقيت ام ابلياً في كنيسة القيامة الراهب النسطوري الذي اعطاهم الكتاب الذي تقدم ذكره . فقدمت اليه ابنتها المحبوب واطلعت على نيتهما . وكان ذلك الراهب يدعى « ميخائيل » وهو شيخ في الخمسين من العمر اصله من بلاد الكلدان ولكنه يقيم في بيت المقدس . فلما وقع نظره على الفتى وآنس في وجهه الروح الملائكي الذي تقرأ النفوس الكبيرة آياته في عيون النفوس الكبيرة التي لا تزال صغيرة فرح ظهره بيده تخبياً وقال « فلتكن روح سيدنا المسيح معك يا بني . انني ارى نوراً الهياً في وجهك . ولولم ينقض عصر الانبياء لقلت انك ستكون النبي الذي تنتظره المسيحية »

فبكّت ام ابلياً من هذا القول المؤثر ولم يبق لديها شك في ان ابنتها فوق البشر تقريباً . ولا نكتهم القاري . انها فتشت في السر كشيخاً في التوراة والانجيل لتعلم هل هنالك نبوءات عن ظهور نبي جديد من الناصرة ام لا . ولولا نجي ابن الانسان منذ نحو ٦٢٨ عاماً فوربما كان حنانها الوالدي اطلق على صغيرها النبوءات الواردة في التوراة بشأن مجيئه

وكان الراهب ميخائيل قد اهتم بابلياً اهتماماً شديداً . فلزمه ابلياً وصار يزور الآثار المقدسة معه . وفي عيد الامبراطور في ذلك العام اقيم قداس حافل امام القبر فذهب ابلياً والراهب لحضور هذه الصلاة وكانت هذه اول مرة يحضرها ابلياً صلاة هيئة دينية كبيرة . وكان اسقف بيت لحم هو المتولي رئاسة القداس وحوله الكهنة والشماسة والرهبان صفوفاً صفوفاً وكلهم متجهون الى القبر المقدس وحولهم الجموع . فلما حان وقت تلاوة الانجيل مدت الاسقف يديه ليتناول الكتاب المقدس . فنقدم شماس ليفك

الناصري على ابواب الكنيسة يوزع الخبز على الفقراء مع انه يكاد يكون فقيراً مثلهم
 شعر حينئذٍ بعظمة الدين الحقيقي . فقال في نفسه ان هذا الطفل وامه اقرب الى الله من
 كل اصحاب تلك المجادلات والمشاحنات التي يدعون بها التقرب من الله . واعجب
 بصدق العواطف الدينية في الشرق وبساطتها بازاء القسطنطينية التي صارت فيها العواطف
 الدينية آلات للسياسة والرئاسة والريج . فقال حينئذٍ لا يلبا ما قاله مشيراً الى ان صنع الخير
 المجرد عن كل مصلحة خصوصية ونقاء العواطف وصدق الضمير وسذاجة القلب هذه هي المبادئ
 التي ستكون في المستقبل اساس اوروشليم الجديدة . والا فلا يكون هنالك اوروشليم . . .
 اما ام اييليا فانها لما بدأت تدفع ابنها في الطريق الاكليريكية صارت تجلب له
 الكتب لمطالعتها فكانت لا تلقى رجلاً من رجال الدين حتى تطلب منه كتاباً . وكان اييليا
 يقرأ كل ذلك بلذة وصبر عجيب . وكانت امه امية لا تحسن القراءة . ففي ذات يوم اقيمت
 في كنيسة الناصرة راهباً غربياً فطلبت منه كتاباً لابنها واخبرته انها ستدخله دير القدس :
 فقال لها الراهب ساعطيه كتاباً يعلمه ويجعله اكبر من اكبر بطريرك . ففرحت الام وقويت
 ثقتها بابنها . وكان عنوان الكتاب الذي اخذته من هذا الراهب الغريب « ثلاثة في المسيح »
 فدفعته الى ابنها دون ان تعلم بموضوعه . وكان ذلك الراهب نسطورياً وموضوع هذا الكتاب
 تعاليم نسطوريوس واوثيشيوس وآريوس الذين مذهبهم في المسيح اقلقت الكنيسة
 وضغمت المعتقدات فاضطر الامبراطرة ان يجمعوا المجامع للحكم فيها تسكيناً للاضطراب
 الذي حدث في المملكة

فلما وقع هذا الكتاب في يد اييليا لم ان يصبح بموضعه امام امه ولكنه كتم الامر الى
 ما بعد الاطلاع عليه . وكان اييليا يومئذ في التاسعة عشرة من العمر . وكان قد اصبح فتى
 قوي البنية رقيق العود طويل القامة ابيض اللون اسود العينين جميل الهيئة قليل الحركات
 كثير السكنات . وكان يلذ له الصعود الى الجبال التي فوق الناصرة لثباتها فيها . حتى انه لو كان
 رنان في عصره ونظره بناً مل من تلك الجبال في المناظر الشائقة التي تحت قدميه لظن ان
 الناصري عاد الى الارض مرة اخرى فولد من عذراء وشب حتى صار فتى وجلس على تلك
 الجبال التي كان يلذ له الجلوس عليها للتفكير بانقاذ العالم مرة اخرى

فقرأ اييليا هذا الكتاب واكثر كتبه الاخرى هناك في ذلك المكان البديع . وما
 فرغ من كتابه هذا حتى تغير رأيه في الثلاثة الذين تقدم ذكرهم . فانه كان قبل قراءة
 الكتاب يهبط اثنين منها بغض الشيطان لما قرأه وسمعه عنها حتى انه كان يرى الناس اذا

وبينا ايليا سائر نحو المزرعة يحسن بنا الآن ان نذكر شيئاً من تاريخ حياته فقد آن ذلك لا سيما وان ما يلي متعلق بما تقدم

كان ايليا ابن فلاح من الناصرة يكسب رزقه من حراثة الارض . فربي ايليا بين النباتات والازهار والحقول . وكانت امه قد نذرته للعدراء ورغبة منها في ان تحضه العدراء بعنايتها كانت في كل مساء يوم اءحد تاخذه الى البيت الذي قيل انه كان منزل العدراء في الناصرة والذي كان قد اقيم عليه كنيسة احتراماً له وهناك تجمله يفرق بين الفقراء المجتمعين حول الكنيسة ارغفة خبز تصنعها له امه خاصة لهذا اليوم . وكان كلما ناول الصغير ايليا احد الفقراء رغيفاً وهو يتسلم ضاحكاً بفمه الوردي كانت امه تقول للفقير « ادعُ لايليا » فيقول الفقير متحسماً بالدعاء لذلك الولد اللطيف « ان شاء الله سيصير بطريك القدس » فكان ايليا يفرح كفاً بكفر من فرحه والدموع تفرق في عيني الام من حناها وتأتثرها . وفي ذات يوم قدم الناصرة عالم عظيم من القسطنطينية ليزور الاماكن المقدسة . فلما شاهد ايليا يفرق ارغفته الاسبوعية وسمع دعاء الفقراء له اخذ العالم راس الصبي بين يديه وقال « نعم يا بني ستكون بطريك اوروشليم الجديدة » وكان الناس في فلسطين يتزاحمون على هذا العالم من كل صوب لانه كان منجماً عظيماً . وكان تلميذ اسطفانوس الاسكندري الذي كان يلقب « معلم المسكونة » * والذي اقامه الامبراطور في قصره في القسطنطينية مع اثني عشر عالماً من العلماء لتعليم الفلسفة والطب والموسيقى والهندسة وباقي فروع العلوم * (١) فلما سمعت ام ايليا نبوة العالم ونجيته زاد اعتقادها بعظمة مستقبل صغيرها . فصرفته عن الامور المعاشية الى الوظيفة الدينية التي تجتمع فيها اعظم الاشياء واشقيها . اي الرئاسة والخدمة

اما العالم القسطنطيني فانه لم يتناء تلك النبوة للصغير ايليا عبثاً . بل كان له منها غرض اسمي من الغرض الذي فهمته امه . فانه كما تقدم الكلام كان قادماً من القسطنطينية وكان لا يزال يدوي في اذنيه ما رآه وسمعه فيها من المجادلات الهيئية الفارغة والانقسامات السياسية وضوضاء المدينة البالغة حدود التهلك والافراط . فلما رأى ذلك الصغير

(١) رواه المسيو برنلو الكيماوي المشهور وزاد عليه ان الامبراطور هرقل كان من اكبر المشتغلين بالتنجيم والكيمياء التي يراد بها تحويل المعادن الى ذهب وقال ان لاسطفانوس هذا سبعة دروس كتبها للامبراطور ولا تزال محفوظة الى اليوم . والعرب يضعون اسم هرقل بين اسماء المشتغلين بالكيمياء

الفصل الثامن

✽ تاريخ حياة ايليا ✽

قبل المحوادث التي تقدمت

ولما رجعت تيوفانا القهقري الى الدير عند ذكر العرب جرت معها ايليا ييدها وهي تقول : هلم بنا الى الدير يا كبيره ايليا فاننا نخشى ان يقصد احد منهم هذا المكان . ولكن رئيسة الدير لما سمعت من تيوفانا خبر وصول العرب هزّت كنفها غير مبالية وقالت بتسليم ملائكي لدينا جيش اقوى من جيش الروم والعرب وهو حماية الله . ثم رفضت قبول ايليا وارميا رفضاً قطعياً وادخلت الى الدير تيوفانا وحدها

فبعد افعال باب الدير قال ايليا لارميا هل تذهب معي الى المزرعة يا كبيره ارميا ام تبقى هنا للتسعي كما ذكرت لك

فقال ارميا كنت في هذا الصباح في المزرعة فلست اعود اليها . وقد سمعت فيها ان الجميع كانوا ينظرونك لنتناول معهم طعام العيد في الصباح . ولكن بعيشك قل لي ماذا يصنع كبيره سليمان اذا وصل العرب الى مزرعته . فقال ايليا ساء ساء له عن ذلك الآن . اما انت فدبر شغلك كما اخبرتك

ثم ان ايليا ودّع ارميا واخذ في الانحدار عن الجبل لا من جهة المدينة بل من طريق وراء الجبل تؤدي الى مزرعة كانت قائمة في الجهة الشرقية

ثم عقد راية سادسة وسلمها الى عروة بن المهلهل بن زيد الخيل وضم اليه خمسة آلاف فارس وسيره وراءهم — فكان جملة من سترحه ابو عبيدة الى هذه المدينة خمسة وثلاثين الفا» وقصده بذلك اربابنا بنزول امير علينا في كل يوم . وهذه مقدمة جيشهم . وقد سمعت واحداً منهم يقول بعد وصولهم « ما نزلنا ببلد من بلاد الشام فرائينا اكثر زينة ولا احسن عدة من بيت المقدس وما نزلنا بقوم الا وتضعفوا لنا وداخلهم الهلع واخذتهم الهيبة الا اهل بيت المقدس فلا يكلمنا منهم احد ولا ينطقون غير ان حارسهم شديد وعدتهم كاملة » (١) فهنا ضحك الوالي ونظر الى الفائد فابتسم القائد افتخاراً بشهادة العدو ببنات جأش الجند والامة . فقال الوالي ليوحنا وماذا سمعت عن باقي مدن فلسطين . فقال الرسول ان جند العرب تفرقوا فيها وهاجموها من كل صوب . فيسان وطبرية واللد والرملة وبافا وقيسارية (قيصرية) وغزة ونابلس وعمواس وبيت جبرين واجنادين — بعضها وقع وبعضها سيقع في قبضتهم . فقال القائد . وهل سمعت شيئاً عن الشام . فقال الرسول ان ابا عبيده قصد حمص من دمشق بعد ارساله الجند الى فلسطين . فلما علم جيشنا بذلك ظن انه قادر على استرداد دمشق فزحف اليها فعاذ ابو عبيدة وخالد بجندهما ولاقياه في مرج الروم قرب دمشق فكانت الغلبة لجيش العرب ايضاً * ويقال ان قائد العرب ابا عبيدة سيقصدنا في وقت قريب

وما أتى الرسول على هذا الكلام حتى دخل راهب واخبر البطريك ان في الباب سيدة وشيخاً يستأذنان بالدخول . وكانت السيدة هي ام تيوفانا قدمت وهي تبكي خوفاً من العرب على ابنتها التي ذهبت لتوصل الفتاة الوثنية الى دير العذراء . واما الشيخ فهو ابو استير وقد جاء خائفاً على ابنه ايضاً ليلتمس من البطريك الاذن له بالذهاب الى الدير لافتقاد ابنه . فتضجر البطريك من مقابلتها وامر الراهب ان يبلغها ان العذراء تحمي ديرها وتسهر عليه . ثم اردف بقوله : ان العرب ليسوا كالفرس بل هم يعبدون الله مثلنا ولذلك يحترمون المنقطعين اليه تعالى (٢) فلا تخافوا منهم على الدير

«١» رواه الواقدي عن المسيب بن نجيبة الفزاري

(٢) لما ودع الخليفة ابو بكر جيش اسامه بن زيد حين زحفه الى الشام اوصاهم فقال (لا تخفوا ولا تغدروا ولا تغاموا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تعبروا نخلاً وتغرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً وسوف تمر باقوام قد فرغوا انفسهم في الصوامع فدعوم وما فرغوا انفسهم له) ابن الاثير

الامير صائب وموفق ان شاء الله . الا انني اخشى امراً . فقال الامير (— وما هو ايها الناصح النصح . فقال ان الروم لم تدب فيهم الحماسة وبنهضوا على مملكة الفرس نهضة واحدة الا لاخذ الفرس صليبهم من بيت المقدس واحراقهم كنيسة القيامة * فاخشى ان تثير حميتهم التي خمدت اذا اخذنا بيت المقدس فنكون كأننا اضرمنا النار بيدنا (— فقال علي (— والله اني لا ارى مناسبة بيننا وبين الفرس . فان الفرس يدخلون المدن هادمين مخربين منتقمين واما نحن فندخل مسلمين مصلحين . فقال الامير (— اجل ان الفرس هجموا على الشام ليهنق الروءساء والشعوب معاً اما نحن فندخل الشام للانصاف بين الشعب والرؤساء فدخلونا نعمة للشعب لا نقمة . ثم تناول الامير حينئذ رقاً وقلماً وكتب الى ابي عبيدة يقول * « باسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عمر بن الخطاب الى عامله بالشام ابي عبيدة . اما بعد فاني احمد الله الذي لا اله الا هو واصلي على نبيه . وقد ورد علي كتابك وفيه تستشيرني في اي ناحية نوجه اليها . وقد اشار ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسير الى بيت المقدس فان الله سبحانه وتعالى يفتحها على يدك والسلام عليك » فلما عاد الرسول بهذا الكتاب الى ابي عبيدة وجده في الجابية * فقرأه ابو عبيدة على المسلمين فهللوا وكبروا وفرحوا بسيرهم الى بيت المقدس * ثم « دعا ابو عبيدة يزيد بن ابي سفيان (ا) وعقد له راية على خمسة آلاف وامره ان يزحف الى بيت المقدس وفلسطين . وقال له . يا ابن ابي سفيان ما علمت الا ناصحاً . فاذا اشرفت على بلد ايلياء (اي بيت المقدس) فارفعوا اصواتكم بالتلهيل والتكبير . واسألو الله بجاه نبيه ومن سكنها من الانبياء والصالحين ان يسهل فتحها على ايدي المسلمين . فاخذ يزيد الراية وسار . ثم دعا ابو عبيدة شرحبيل بن حسنة الذي كان كاتب وحي نبيهم وعقد له راية وضم اليه خمسة آلاف فارس من اهل اليمن وقال له سر بمني معك حتى تقدم بيت المقدس وانزل بعسكرك عليها ولا تختلط بعسكر من تقدم قبلك . ثم دعا بالمرقال بن هاشم بن عتبة بن ابي وقاص وضم اليه خمسة آلاف فارس مع جمع من المسلمين وصرحه على اثر شرحبيل بن حسنة وقال له : انزل على حصنها وانت بم عزل عن اصحابك . ثم عقد راية رابعة فسلمها للمسيب بن نجبة الفزاري وامره ان يلحق باصحابه وضم اليه خمسة آلاف فارس من النخع وغيرهم من القبائل . وعقد راية خامسة وسلمها الى قيس بن هبيرة المرادي وضم اليه خمسة آلاف فارس وسيره وراءه .

(ا) حذفتنا هنا اسم خالد ابن الوليد لان الواقدي وغيره يقولون انه بقي مع ابي عبيدة ولم يرحل

ان ابا عبيدة يقصد دولتنا أكثر من دولة الفرس * لانه بعد اسقاطنا دولة الفرس يعلم انه اذا اسقط مملكتنا لاسمح الله استولى على الكرة الارضية كلها . وهذا ما سمعته من احد رجاله . ولذلك يريد الاستيلاء على مدينة القدس عاصمة المسيحية بعد استيلائه على دمشق عاصمة سوريا

وقد تحققت ان العرب سلموا من الاضطرابات والفتن الداخلية التي كانت تهددهم . وذلك بامر من : الاول شدة اميرهم عمر وحزمه وعدله . والثاني انصرافهم الى فتح الشام وفارس . وهذا ما كان من اكبر اسباب اتحادهم وقوتهم . لانهم لو اقاموا في بلادهم ولم يشتغلوا بمقاتلتنا لانصرفوا الى مقاتلة بعضهم بعضاً كما كانوا من قبل . وهذا من دهاء ابي بكر وعمر ابن الخطاب وسياسته *

فهز البطريق هنا رأسه وكان الوالي والقائد مصغيين كثيراً فاردف الرسول بقوله :
اما ما علمته عن زحفهم الينا فهذا (١)

بعد ان فتح ابو عبيدة دمشق واقام فيها شهراً يتمتع فيها مع جنده بمنظرها الجميلة ويستريح بعد عناء القتال جمع اليه امراء المسلمين وقال لهم « اشيروا عليّ بما اصنع واين اتوجه » فانفق رأيي المسلمين اما الى قيسارية (قيصريّة) واما الى بيت المقدس (٢) فقال معاذ بن جبل « اكتب الى امير المؤمنين فحيث امرك فسر واستعن بالله » فقال « اصبت الرأي يا معاذ » فكتب كتاباً الى الامير وارسل الكتاب مع عرجة بن ناصح النخعي . فلما قرأ اميرهم الكتاب جمع اليه اعوانه ومشيريه فاستشارهم في ذلك . فقال له علي بن ابي طالب « يا امير المؤمنين مر صاحبك ان يسير الى بيت المقدس فيجدقوا بها ويقاتلوا اهلها فهو خير الراي واكبره . واذا فتحت بيت المقدس فاصرف جيشه الى قيسارية فانها تفتح بعدها ان شاء الله تعالى . كذا اخبرني رسول الله » * فقال له الامير « صدقت يا ابا الحسن » * فاننا اذا ملكنا بيت المقدس خارت عزائم الجند والشعب وفتحها يعدل فتح القسطنطينية من هذا الوجه (— وكان عثمان بن عفان حاضراً فقال (— رأيي

(١) نعلم هنا على الوافدي في ما كتبه عن فتح بيت المقدس وان كان تاريخه بكاد يكون في أكثر اقسامه قصة عثرية . والتناقض في الروايات والنفاصل ظاهر بينه وبين باقي المؤرخين وفيها بين هو لا . ايضاً . وانما فضلنا عليه لانه أكثر تفصيلاً . والعبارات الموضوعة في هذا الفصل بين قوسين واضمنت دون ذكر مصدرها هي له

(٢) لعل الاصح اما حمص وحماة وانطاكية واما فلسطين وبيت المقدس لان قيسارية تابعة لفلسطين

رجالنا مع احتذائهم تسقط من البرد واصابعهم هم لا يصيبها اذى لالفة اجسامهم المشقة
وشظف العيش * فقال الوالي لا شك ان ذلك كان من اسباب قوتهم

وبينا هما يتناحيان واذا براهب قد دخل مسرعاً وقال للبطريك ان الرسول في الباب
فامر البطريك بادخاله على عجل . فادخل عليه بدوي بملابس العرب وهيئتهم . فسأله
البطريك باليونانية هل عرفت ما نريد معرفته يا يوحنا . فاجاب البدوي باليونانية ايضاً نعم
يامولاي . فقال البطريك اجلس وقص علينا كل اخبارك

ولا ريب ان القارئ قد ادرك ان هذا البدوي العربي الذي يتكلم باللغة اليونانية
واسمه يوحنا انما كان من الغسانيين وهم عرب الشام النصارى * الذين كانوا يعاونون الروم
على المسلمين والفرس في حروبهم معهم * وقد حاربوا في اليرموك في جيش الروم حرباً شديدة *
فجلس البدوي يوحنا على مقعد بعيد . وكان قد تزييا بزي البدو ليسهل له الاختلاط
بالعرب اخوانه بالنسب والجنس تسماً لاخبارهم . ثم اخذ يقول (١)

لما توفي نبي المسلمين وخلفه ابو بكر اتفد الخليفة وصية النبي في استعمال اسامة بن
زيد على جيش وارساله لفتح الشام * وكان العرب قد اخذت ترتد عن الدين الاسلامي
لموت النبي * فلما رات سير الجيش للشام هابوا الخلافة وقالوا * « لو لم يكن بهم قوة لما ارسلاوا
هذا الجيش . فكفوا عن كثير مما كانوا يريدون ان يفعلوه » (٢) فكان جيش الشام كان
عوناً شديداً للعرب في الداخل . وبعد اخضاع المرتدين من العرب ابلغ ابو بكر عدد هذا
الجيش الى ١٢٤ الف مقاتل * وقد قسمه الى جيشين . جيش لمقاتلة الفرس وجيش
لمقاتلتنا * ومن فرط دهائه اوصى الجيشين بان يلبثا دائماً احدهما على مقربة من الآخر لئلا
من الاتحاد في ساعة الخطر * وقد فتح جيشهم في الفرس بلاد بابل كلها ودعوا العراق العربي *
وكان قائدهم فيها خالد ابن الوليد الذي يلقبونه « سيف الله » * وهو الذي وثب بعد ذلك
بامر ابي بكر من العراق الى الشام ففتح غزة وكتب الى الامبراطور يطلب منه ان يسلم
اليه دمشق فاجابه الامبراطور بهذا الجواب « ملكك الفقير فعد اليه » * ولكن لما توفي ابو بكر
بعد ان استخلف عمر بن الخطاب عزل عمر خالداً وولى الشام اباعبيدة الملقب بامير الامة * ويظهر

(١) نعيد هنا القول ان هذه العلامة * تدل على ان ذلك القول وارد في التاريخ .
والعلامة (—) تدل على عكسه اي انه تصنيف لا اثر له في التاريخ . والقول الموضوع
بين قوسين هكذا « () او بين ضمتين » « ومعها نجمة * هو نص تاريخي بحرفه

(٢) ابن الاثير

تسكين هياج هذه الفتاة التعيسة اذا شاءت واذنت لي بالدخول لانني كنت من مساعدي
البطيريك على ذلك . فضحكت تيوفانا ضحكة معناها « لست ساذجة الى هذا الحد لا تسعى
لك في ذلك » ثم قالت . ولكن يا للاً سف ان دخول الرجال الى الدير ممنوع قطعياً .
ولكن ما انت تيوفانا على هذه الكلمات حتى سمع صوت بعيد ينادي نداءً شديداً .
فالتفت ايليا وتيوفانا فاذا برجل يعدو كالبرق من جهة الارزة وهو يخط الهواء بيديه ويصيح
بجنون - ايليا . ايليا . العرب العرب . . . لقد وصلوا الى المدينة
فصاحت تيوفانا : هذا ارميا ماذا جرى له . اما ايليا فهرع نحوه وسأله ما باللك .
فصاح ارميا وشعره منتشر على كتفيه ونار الجنون نثقت في عينيه : لقد وصل العرب . لقد
وصل العرب . فذعرت تيوفانا عند اسم العرب وصاحت بخوف متراجعة نحو باب الدير .
وفي هذه الاثناء كانت الضجة والجلبة حول اسوار اورشليم . وكانت جنود العرب
تهمت هتافاً طبق السماء « الله اكبر . الله اكبر . لا اله الا الله » وكثيرون من اهل المدينة
حول الاسوار * يشاهدون القبائل البدوية الهاجمة عليهم وبعضهم يضحكون وبعضهم
يتأملون - وما دروا ان كثيراً من الضحك عاقبته البكاء

الفصل السابع

✽ العرب ✽

في بيت المقدس

وفي تلك الساعة كان البطيريك والي المدينة وقائد الحامية فيها منفردين في احدى
قاعات المقام البطيريكى بجانب كنيسة القيامة في القدس . وكانت لوائح الغضب بادية في
وجه البطيريك وهو مطرق يفكر ويده تعبت بلحيته البيضاء الطويلة المنتشرة على صدره . وكان
الوالي وقائد الحامية يتحادثان همساً احتراماً له

وكان الوالي يقول للقائد هل اذا هاجمونا وعدتهم مائة الف يقدرون على اخذم يئتنا .
فاجاب القائد ان القدس لا تفتح ابداً الا صلحاً خصوصاً في هذا الفصل فصل الثلج والبرد
والمطر . فقال الوالي قد قيل لي ان العرب حفاة فلنطاولهم ما استطعنا فان البرد بهراء
اقدامهم فنسقط اصابعهم . فهز القائد راسه وقال اما هذا فلا سبيل اليه لان اصابع

الجذابة لان الفتاة اليهودية — الموجودة والخيالية — كانت قد ملكت زمام قلبه . والقلب النقي الذي يعرف الحب الحقيقي لا يسع اثنين . فرام سؤال تيوفانا عنها لعله انها هي التي انت بها الى هذا الدير . فساء لها هل ارسلا الفتاة الوثنية الى هذا الدير ايتها السيدة . فقالت تيوفانا وقد غضت من طرفها بدلال نعم ايها الاخ المحبوب بالرب وهل رأيتها قبل ان جئنا بها وكان سؤال تيوفانا هذا سوءاً جداً بان يصدر عن امرأة في شأن امرأة اخرى يسأل احد الرجال عنها . ولا ريب في انه كان فيه شيء من الحسد والاستفحاص . لان المرأة لا تقدر ان تسمع رجلاً يسأل عن امرأة اخرى باهتمام الا وتحب ان تعرف سبب ذلك السؤال وذلك الاهتمام . فاجابها ايليا انه هو الذي توسط لها لدى البطريرك ليحسنوا معاملتها ولا يسيئوا اليها . فضحكت تيوفانا وقالت فاذا انت تعرفها . ثم قالت متهمكة : فياليتك تستعمل معرفتك لها لاقناعها بترك العناد والشراسة . فحملك ايليا وقال وماذا صنعت : فضحكت تيوفانا في نفسها وقالت : لما وصلنا الى هذا المكان مع الشيخ والراهبتين صارت الفتاة تبكي ورفضت الدخول . فخرجت اليها الرئيسة ولاطفتها وادخلتها بعد ان اجبرتها على ترك الشيخ . فعاد الشيخ والراهبان اذ لا يسمح للرجال بالدخول الى الدير . وكان الشيخ يبكي ايضاً حين فراقه لها مع انهم قالوا انه غريب عنها . فلما دخلنا ذهبنا بها الرئيسة وحوّلها الراهبات بالشموع والزينات الى كنيسة الدير . وكانت الفتاة تظن انهن ذاهبات بها الى احدى الغرف . فلما دخلت باب الكنيسة كان اول ما وقع عليه نظرها رسم سيدنا المسيح مصلوباً على صليب صغير معلق في صدر المكان تجاه الباب . فصاحت صياحاً هائلاً وسقطت على الارض مغشياً عليها . فاسرعنا ونضمنا وجهها بالماء ونحن مسرورات باغمائها لظننا ان الشيطان الذي فيها قد صرع ومات اول ما وقع نظره على الصليب . ولكنها لما انتهت زاد بكاءها وزفيرها . وصارت احياناً تلطم نفسها وتعم ان تنطرح من النافذة كأنها تريد ان تنحر . وقد رفضت الاكل والشرب رفضاً قطعياً . فباسم الصليب الكريم ايها الاخ بالرب . اني ما رأيت في حياتي وثنية شرسة متعصبة كهذه الفتاة . وقد قالت لي الرئيسة انها تشك في اهتدائها ونزول السلام المسيحي والوداعة المسيحية عليها بعد ما ظهر من عنادها وشراستها

وقد ظنت تيوفانا انها بهذا الذم والتنديد تجعل الشاب يزدرى الفتاة وتبعد قلبه عنها وما درت انها بهذا الوصف الذي ألم قلب ايليا قد زادته تعلقاً بالفتاة وشفقة عليها . فاطرق يفكر ثم قال للسيدة جواباً على سؤالها الاول . نعم انني ابذل جهدي لمساعدة الرئيسة على

الراهبات فيه الى الله وهو اكرم اديار اورشليم لقيامه على جبل الزيتون المشهور في تاريخ المسيحية في عصر المسيح . وكان محظوراً على الرجال ايّا كانوا الدخول اليه قطعياً لاختصاصه بالنساء (١) فلما وصل ايليا الى الدير اخذ يقاب طرفه في جدرانها البيضاء الشاهقة ويسترق النظر من ثقب الباب الكبير . ثم قصد الحديقة الممتدة وراء الدير والمسورة بسور عال فصعد الى اكمة تقابلها من بعيد والتي نظره على نوافذ الدير الخارجية التي تطل على الحديقة فلم ير احداً . فتنهد ونزل عن الاكمة وصار يدور حول الدير وكان لسان حاله ينشد

امرث على الابواب من غير حاجة لعلني اراكم او ارى من يراكم

وبعد برهة سمع صرير قفل الباب فالتفت نحوه فابصر سيدة خارجة منه ووراءها مكارم معه حمار . فتأمل ايليا فيها جيداً ولكن اول ما وقع نظره عليها عرفها فخطا نحوها مسرعاً بهيئة جدية . وكانت السيدة قد عرفته ايضاً فوقفت له مبشمة . فلما وصل ايليا اليها قال سلام على السيدة الشريفة وكل عام وهي بخير وعافية . فقالت السيدة وكل عام وجنابك بخير ايها الرجل الكريم . ارجو ان لا تكون الغوغاء قد اساءت اليك ليلة امس في بيت لحم . فضحك ايليا وقال انني اول ما نظرتك ايتها السيدة الكريمة اسرعت لاهديك شكري على مساعدتك لي امس بواسطة ارميا فاني لولا هذه المساعدة لاصابني ما لا احب . فقالت السيدة وقد نظرت اليه بعينين براقتين لهما حديث سرّي اشكر مريم العذراء التي انقذتك من ايديهم فلا ريب في ان القاريء عرف السيده تيوفانا التي كانت في البيت الاحمر ليلة امس وعهد اليها البطريك ان توصل الفتاة اليهودية الى هذا الدير . وكانت تيوفانا في نحو الثلاثين من العمر وهو عمر النساء الكامل الذي تصبغ فيه السيدة سيدة تامة لامتلاكها عقلها وعواطفها ومعرفتها طرق السيادة على قلوب الرجال وعقولهم . وكان كل شيء في وجهها يدل على انها يونانية عريقة في اليونانية . فانها كانت حنطية اللون مذهبة من فعل شمس الشرق الكاوية . بعينين زرقاوين نافذتي السهام فيها الابتسام دائم . وشفتين رقيقتين ووراءها لؤلؤه الاسنان لا يخفي ابداً لا اشتراك الشفتين مع العينين في ذلك الابتسام المستمر . كأن النفس التي توحى اليها ذلك الارتياح الباطني نفس طفل لا تعرف المم والغم بل هي في ربيع ابدى . وتحت ذلك عنق لو نظره العربي لشبه اعناق الغزلان به بدل ان يشبهه باعناق الغزلان

والحق يقال ان ايليا لم ينتبه كثيراً الى هذا الجمال الفتان ولا الى تلك الابتسامات

(١) في جبل الزيتون اليوم في القدس دير للنساء على هذا المثال يسوونه " دير الاميرة "

فغضب ايليا من هذا الرأي الذي ارتآه رجل معتوه كارميا . فسأله . وهل اظهرت رأيك هذا لاحد قبل الآن . فقال ارميا نعم لواحد فقط . فقال ايليا مستغرباً . ومن هو . فقال ارميا : الله . فضحك ايليا بعد اهتمامه وقال انك تحسن صنعاً بابقائه بينك وبينه والاً اخذوك يا ارميا الى القسطنطينية والقوك للاسود لتبلغ بدمائك . فقال ارميا مزحجراً وهل مثلي يرهب الموت فانهم يقتلون جسدي واما نفسي فلا يقدرّون عليها . وحسي فخرّاً ان اموت في سبيل رفع شأن المملكة وانقاذها من الهلاك . فضحك ايليا وقال اؤكد لك يا صاحبي انه اذا اجتمع اهل الارض طراً نزع شأن المملكة من الطريق التي تذكرها فانهم ينجّبون سعيّاً ويضلون سبيلاً . وساطلحك في فرصة اخرى على الطريقة الحقيقية لرفع شأن المملكة . فاكتم مشروعك هذا لئلا يضرّك افشاؤه واصغ الى الآن لاحداثك في الامر الذي جئت اليك من اجله . فقال ارميا وهو غير راضٍ عن جواب ايليا . وما ذاك . فقال ايليا هل بلغك خبر الفتاة الوثنية التي وجدوها امس على طريق بيت لحم . فقال ارميا ضاحكاً . نعم نعم قد شاهدتها اليوم هنا في الجبل حين مجيئهم بها الى دير العذراء لادخالها فيه هدابة لها . وكان معها سيدة وشيخ وراهبان . ولكن يا الله ما اجملها . حقاً لا اعلم لماذا تكون الوثنيات جميلات هكذا . فقال له ايليا فاسمع الآن لاذكر لك ما اطلبه منك ثم دنا ايليا من ارميا وانحنى نحوه وصار يحادثه همساً حديثاً سرياً . فلم يكن يُسمع من حديثه سوى كلمات منقطعة مثل : ابواها وثنيان . . . ايصال رسائلها اليها . . . جائزة سنية لك . . . هل يمكن دخول الرجال الى الدير . . . هل ترضى بان تصير مسيحية ام ترفض . . . اية راهبة هي اشد الراهبات تقوى واطلاهن حديثاً وكان ارميا يجاوب باهتمام شديد وايليا مرتاح الى اجوبته وعلى وجهه لوانح الرضى

الفصل السادس

✽ امام دير العذراء ✽

في ان الحب ليس ببينة تُغرس طوعاً وتُفلق طوعاً

ولما فرغ ايليا من مسارة ارميا نهض وودّعه وانصرف فبقى ارميا وحده مفكراً تحت الارزة . وسار ايليا في طريقه بقصد دير العذراء القائم على مقربة من الارزة في جهة الشمال على منبسط من الارض فوق الجبل . وكان هذا الدير مبنياً هناك لينقطع

الشاهقة المحيطة بها تشبه حمامة يضاء في قفص مكمد اللون عليها غلالة من القطر المندوف . وكان الناس في سفح الجبل على الطريق يسرون ذهاباً الى المدينة واياباً منها وهم كلما التقوا صاخوا بعضهم بعضاً ثقبلاً وتبادلوا التهنة بالعيد . وكان منظر الافق وراء المدينة الى جوانبها متسعاً للجالسين على الجبل فكان ايليا يسرح طرفه فيه مبتهجاً . واما ارميا المسكين فان نفسه كانت لا تشعر بذلك الجمال الطبيعي ولا تلتفت اليه

ولما جلس الاثنان تجاه المدينة كان ارميا يفكر باهتمام . فقال له ايليا باسماء هات الآن ما عندك واختصر بقدر الامكان

فقال ارميا بجدي ورزانه : ان العلة متى استعصت صار شفاؤها متعذراً الا بعملية جراحية كبيرة او بعناية الهيئة . اما العناية الالهية فيظهر انها غضي منا لانها لا تساعدنا في شيء فيجب ان نشتغل العملية الجراحية . فانا قد بدا لي امر عظيم . فانك تعلم ان الامبراطور قد اتد الطبيعتين والمشية الواحدة * وهو يتداخل في شؤون الكنيسة * مع ان ذلك ليس من وظيفته . فقال هنا ايليا : انك نتكلم الآن يا ارميا كلام عقلاء . فقال ارميا لا نقطع حديثي واسمع التهمة . وانا متحقق ان البطريك صفرونيوس مستاء من مداخلات الامبراطور هذه . والكلام بيني وبينك ان هذه المسألة ليست بمسألة دينية فقط فانها مسألة جنسية ايضاً * فاننا نحن السوريين قد سئمنا النير اليوناني * وقد مضت علينا عشرة قرون واليونان متحكومت فينا منذ فتح الاسكندر بلادنا * فلماذا لا نكون امة مستقلة بديانة مستقلة وحكومة مستقلة . ان نفسي تحدثني الآن بهذا الامر . وها العرب قد كادوا يملكون فلسطين وغداً يصلون الى مدينتنا . ففي نفسي متى وصل ملكهم الى اسوارنا ان اذهب اليه واعرض عليه ان ننفق معه ونكون من حزبه على شرط ان يحمي بطريكتنا ويجعله ملكاً مستقلاً في سوريا كالامبراطور . وحينئذ يمكن البطريك ان يقاوم الامبراطور ويؤيد مذهبه في الطبيعتين والمشيتين . ولا رب عندي في انه سينصر عليه انتصاراً عظيماً ويتبعه كل اصحاب العقول في الامة . واول انتصاراته تكون في مصر لان الاقباط فيها مثلنا يثنون تحت نير اليونان * وقد اغتموا فرصة القول بالطبيعتين والمشية الواحدة للانفصال عن الكرسي الاسكندري والقسطنطيني * والمقوقس كبيرهم واليهم يحامل العرب الآن نكايه بالامبراطورية * (١) فما قولك في هذا المشروع العظيم

(١) لما كاتب صاحب الشريعة الاسلامية قيصر وكسرى والنجاشي والمقوقس والبحرث بن الي شمر الفسائي بدعوم الى الاسلام اجابه المقوقس صاحب مصر جواباً لطيفاً واهدى اليه اربع جوارر منهن « مارية » التي ولدت للنبي ولد اسماء ابراهيم « ابن الاثير »

المسيح الدجال اعظم من مقاومته بطريركنا صفرونيوس حتى في المسائل الدينية التي لا يفهم
هو منها شيئاً . ان بطريرك اورشليم يجب ان يكون ارفع البطارقة كلمة واصدقهم رأياً لانه
قريب من المهد والقبر والجلجلة - تلك الاماكن التي توجي الى النفس الحقيقة والحكمة .
ولذلك يجب ان لا يتبع رأيي غير رأيه . واما صاحبنا الامبراطور فانه استمال اليه
بطارقة القسطنطينية وانطاكية والاسكندرية وكذلك اسقف رومه وقرروا مسألة الطبيعتين
والمشيئة الواحدة * وانا اقول الآن لك ولم وللارض والسما انهم مخطئون جانوف على
الكنيسة . والحق مع البطريرك صفرونيوس الذي يعلم ان المسيح بطبيعتين ومشيتين *
فهنا تنفس ايليا الصعداء وقال رجعنا يا ارميا الى المجادلات الدينية . بالله دعنا منها
فقد عاقبتا نفسي

فابتسم النبي ارميا ابتسام الاحتقار وقال هل تظن اذا تركناها انها تتركنا هي .
هيئات هيئات . فانها قابضة علينا وعلى روح مملكتنا بمقبض من حديد . فاما ان نجاهها
او نتحانا . فضحك ايليا لهذه التورية في كلام المعتوه وقال له : انك اليوم بليغ يا ارميا فما
سبب بلاغتك . يظهر انك لا تزال صائماً لانك ذكرت لي يوماً انك لا تكون حسن
البلاغة الا اذا كنت صائماً . فقال ارميا نعم ما زلت صائماً ولم اتناول طعام العيد بعد .
ولكنني اهزاء بطعام العيد وبكل طعام . الا يكفيننا خبز الروح الذي هو غذاء النفس . نعم
هو يكفي كل رجل صالح واما الاشرار والخنازير البشرية الذين آلهتهم بطونهم فلا يكفهم
خبز الروح . ولكن لا تنقل الحديث الاول فاني اريد اتمامه لا بلغك امرأها . هل
تريد ان تسعى معي سعيًا عظيمًا

فحدق ايليا في المعتوه وقال ما هذا السعي . اخبرني عنه وانبثني اولاً هل حديثك
طويل فان لي حديثاً معها

فضرب ارميا يده في الهواء وقال لا حديث اهم من الحديث الذي اروم الدخول معك
فيه فتمال فجلس في الشمس امام الكوخ وهناك اطلعك على مشروع
فقال ايليا وهو يضحك في نفسه من مشروعات ايليا بل دعنا فجلس هنا امام المدينة
المقدسة فان المنظر في غاية الجمال

وفي الحقيقة ان منظر القدس تحتها كان مما يروق النظر في تلك الساعة . فان
الشمس اطلت على المدينة في صبيحة عيد الميلاد من وراء غيومها السوداء تنثر على ارض
القدس نورها الذهبي . وكانت المدينة تحت الضباب الرقيق الخيم عليها بين اسوارها السمراء

مضطربة خائفة وعلم انها من دم تلك الفتاة التي احبها في احلامه في صغره ثارت نفسه دفعة واحدة واحبها من اول نظرة . وخيل له انه يحب في هذه الفتاة حبيبين . الحبيب الحاضر الذي يستحق كل حب والحبيب الغائب الذي ذهب في اوقيانوس العالم ذهاب حجر في البحر فلم يعد يظهر له اثر . وكائن الاله الحب قصد ايليا بسوء فارسل اليه استير شبيهة بفتاته الاولى في كثير من ملامحها وسننها وقوامها . ولم تكن تنقصها والسفاه غير العصابة البيضاء المزركشة . . فصعد ايليا الجبل وهو يفكر بالفتاتين معاً . ولكن استير — وهي الحاضرة — بدات تحتل محل الخيالية الغائبة . وكان يتساءل كثيراً عن سبب وجودها مع ابيها في بيت لحم في تلك الليلة ويعد نفسه بقاء ابيها في ذلك اليوم للوقوف على سر هذه المسألة وما زال ايليا صاعداً حتى انتهى الى اعلى الجبل فقصد ارزة كانت قائمة هناك كالجاء لطيور السماء في ذلك المكان الجاف (١) ولما وصل اليها عطف الى جهتها الشرقية حيث بني كوخ صغير مستند الى جذعها . وكان في الكوخ رجل جالس ورأسه بين يديه متأملاً متفكراً وامامه كتاب مفتوح . فلما تحقق ايليا وجود الرجل صاح : السلام على النبي ارميا . فنهض الرجل وقال اهلاً بكيري ايليا . هل تذهب مرة ثانية الى بيت لحم . فضحك ايليا لهذا السؤال وقال جئت اشركك يا صديقي لانك انقذني امس . مالك جالس هنا وظهرك الى المدينة المقدسة

فتنفس ارميا الصعداء وخرج من كوخه الى مقابلة اورشليم . وبعد ان التى اليها نظرة قال : اذا كان الله قد غضب عليها افلا اغضب عليها انا ايضاً . انني صرت اكوه النظر اليها ولذلك نقلت كوكبي من امامها الى جهة الشرق . نعم لقد صرت مجوسياً استقبل الشمس بدل مدينة داود

فضحك ايليا وقال له : ماذا هل جد شيء . فقال ارميا متعظلاً : ماذا تريد اكثر من ضياع بلادنا وخراب مملكتنا كما خربت مملكة اليهود قبلنا . فها العرب زاحفون الينا لياخذوا املاكنا . وها المسيح الدجال يتركنا ويذهب كانه يسر بسقوط مدينتنا وديانتنا . فقال ايليا مدهوشاً ومن تعني بالمسيح الدجال . فصاح لرميا والجنون ظاهر في عينيه : الامبراطور . فصرخ ايليا : اسكت . اخفض صوتك يا ارميا والاه الحقوك بسميتك القديم . فهنا بلغ الغضب من ارميا مبلغه فصاح ونار الجنون تستطير من عينيه : دجال والقب دجال . فان سقط ديننا ومملكتنا سيكون على يده . وهل تريد دليلاً على انه

«١» كان على جبل الزيتون في زمن مملكة اسرائيل ارزة وقد حفظ الاسرائيليون تذكارها بعد تشنتهم

وانما كان ايليا يفكر بمجواث امس وسوء حظ تلك الفتاة اليهودية . وكان ايليا كلما افكر بها شعر بذوبان في قلبه وشفقة لا حد لها . وقد يستغرب القارى ان يحب هذا الشاب تلك الفتاة من اول نظرة ويخاطر بنفسه وبراحته في سبيلها . ونحن نشاركه في هذا الاستغراب لو لم يكن هنالك سرٌ صغير بث في دمه سمّ الحب بقوة الصاعقة وسرعتها . واليك هذا السرّ الصغير الحقيقى الذي لم يطلع عليه احد قبل الآن

منذ عشر سنوات كان ايليا في يافا لحاجة له . ولما قصد العودة منها الى القدس ركب في قافلة وسار معها . ولكنه قبل المسير رأى في المحطة قافلة اخرى تستعدّ للمسير وراء قافلته وفيها رجل يهودي ومعه فتاة في نحو العشرين من العمر . وكان ايليا يومئذ في السادسة عشرة من العمر . وكان هوائياً اي شديد التصورات والانفعالات . وقد قراء بامعان التوراة وتاريخ يوسفوس في حروب اليهود واخبارهم فصار يرى في اليهود معاصريه بقايا امة عظيمة . وبما كان يفتنه منها على الخصوص قوة نفوس نساؤها وجمالهنّ الذي حلّ في التاريخ مشاكل كثيرة . . . فحبل له ان للمرأة الاسرائيلية نفساً خصوصية جاذبتها اشد من كل جاذبية . فما وقع نظره على تلك الفتاة التي هي من ذلك الدم القديم حتى شعر بالنجذاب شديد اليها . وكان جمال الفتاة ولطف عينيها المادنتين الصافيتين مما ساعد على اسر ذلك الفتى الصغير . وكان على جبينها عصابة بيضاء مزركشة تزيد وجهها يابضاً وجمالاً . فسار الفتى ايليا في قافلته تاركاً قلبه الصغير لدى تلك الفتاة الكبيرة . وكان كلما نزلت القافلة على الطريق يشخص في انوار القافلة القادمة بعدها ويودّ لو تصل الى قافلته لتسيراً معه . وكان يحيل له حين رؤية اشباح تلك القافلة في الظلام من بعيد انه يرى تلك العصابة البيضاء ذات الزركشة اللامعة وتحتها العين اللامعة . وبالحقيقة انه كان يراها بعين بصيرته . ولما سمع ان احد اللصوص هاجم على القوافل افتركا ايليا الصغير بذات العصابة البيضاء قبل افتركا بنفسه . وعلى ذلك كان حب ذلك الفتى الصغير حباً حقيقياً لان هذا هو مقياس الحب الحقيقى . وقد بقي ايليا على هذه الحال وبهذه الاماني حتى غابت القافلة ولم يعد يرى لها اثرّاً فلم انهاحادث عن طريق القدس الى بلده غيرها . فاطرق الصغير حينئذ بتاءمل في ذهاب حبه سدى . فكان ذلك اول هم دخل قلبه الخلي . فيا حب الملائكة انك لا تكون ابداً اظهر من هذا الحب ولا اثبت منه . لان ايليا الصغير بقي يتذكر حتى في احلامه تلك الرؤيا التي مرت امام عينيه كشهاب اضاء فكان نوره اول نور دخل الى قلبه ولكن بعد عشر سنوات لما وقع نظر ايليا في بيت لحم على الفتاة استير في ظلمة الليل وهي

الراهب فابتسم ابتسام الازدراء لانه عرف ايليا وصار بقلب فيه نظره بجسارة وتهكم . فقال ايليا في نفسه وهو خارج : لا ريب في ان هذا هو اخو الراهب متى لان فيه ملامح منه وهو سكرتير البطريك على ما اعلم . فلو كان الشيخ سليمان مكاني لاراء عاقبة مقاومة لآخيه وكان الرجل الذي وراءه الراهب رسولا قادمًا من اجنادين حيث يقيم فائد الروم * وهو يحمل كتابًا منه الى البطريك . فلما رآه البطريك عبس لانه تشام من ارسال الرسول في اسبوع العيد . ولكنه تناول الكتاب باهتمام لا مزيد عليه وصار يقرأه بعينين متقدتين غيظًا واملاً . وما اتى عليه حتى صار يرتجف من الغضب فالتقاء بنزق الى المقعد و اشار الى الرسول ان يخرج . فجثا الرسول ثلاثًا ودنا فلثم ذيل البطريك ثم خرج باحترام ظهره الى الباب ووجهه الى البطريك وهو يمشي القهقري . فلما خرج صاح البطريك بالراهب بغضب : مرهم ان يجعلوا في صلاة العيد لتعود الى المدينة والا خفنا ان يباغتتنا العرب هنا وان كانوا لا يزالون بعيدين عنا . ثم اطرق البطريك يفكر . وبعد حين صاح : ان الله سينقم منهم لتركهم مدينتنا المقدسة بلا مدد جديد لتعزيز حاميتنا . فانحنى الراهب باحترام موافقة على كلام رئيسه

وفي اثناء ذلك كان الشعب في الاسواق لا يزال بضج وبلعب ويطلب تعميم النشاة . فابلغوه انهم قرروا ارسالها الى الدير وبعد ذلك يرون رؤاهم فيها

الفصل الخامس

النبي ارميا *

ومشروعه العظيم

في السبب الذي لاجله أحب ايليا حبًا فحائيًا

وانقضى ذلك العيد في بيت لحم بفرح وسرور بين طبقات الشعب الا ان البطريك صفرونيوس وقائد الحامية في القدس واليهما كانوا في شغل شاغل وهم شديدا . وفي يوم العيد بينما كان الناس منتشرين على طريق بيت لحم عائدين الى القدس كان ايليا على طريق جبل الزيتون فوق القدس صاعدًا الى الجبل بخطى ثقيلة ورأسه الى الارض كأنه يعد خطاه او يفتش عن شيء امامه . والحقيقة انه كان يتأمل ويتفكر

فهم ايليا بان يجيب البطريك بان اليهود ما تطرفوا هذا التطرف القبيح الا لظلم
المسيحيين لهم واضطهادهم اياهم ولكنه رأى الاختصار اولى في هذا المقام فاجاب : ان
مولانا البطريك ادرى منا بهذه الشؤون . وله رايه الموفق . انما ما زلت ارى ان هذا
الرجل لا يمكن ان يكون جاسوساً لانه لو كان كذلك لما جاء بابنته معه ليلقيها بهذه النار
اذا كشف امره

فابتسم البطريك وقال ان الجواسيس لا تكمل جاسوسيتهم الا بالنساء . خصوصاً
النساء الحسان

فاجتهد ايليا حينئذ في ان يقنع البطريك باطلاق سراح الفتاة على الاقل وبقي
الشيخ لديه ليفحص امره فرفض البطريك ذلك رفضاً قطعياً لان الشعب كان يطلب تعميد
الفتاة في حفلة عمومية . وقد قال البطريك للشاب في هذا الشأن كلمة جميلة وهي « ايليا
ايليا انك ملقٍ بتفسك في مضيق لا مخرج منه . فدفع الفتاة وشأنها فان بينك وبينها هاوية
عظيمة . ثم الا تعلم انني الآن مسئول لدى الله ولدى ضميري عن هذه الفتاة وان كانت يهودية .
فكيف تريد ان اطردها وحدها الى معترك العالم واسجن عندي حارسها وسندها
لكن يظهر ان البطريك كان يرغب في استالة ايليا اليه لما رآه له فرضي ان يطلق
سراح الشيخ وبقي الفتاة في دير الراهبات في جبل الزيتون حتى يسكت الشعب عنها وتنفي
الشبهة عن ابيها . وقد قال لاييليا ان هذا كل ما يمكنه صنعه . وبعد ذلك بعث يسأل
في « البيت الاحمر » عن السيدة تيوفانا المشهورة في القدس برفقة عواظنها وخدمة الاديرة
وقد تقدم ذكرها . واذا وجدوها وكل اليها البطريك ان تأخذ في صباح الغد تلك الفتاة
الى دير العذراء في جبل الزيتون وتوصي بها الراهبات خيراً

فلما بلغ الفتاة انها ستفصل عن ابيها وتقيم بين راهبات مسيحيات في دير
مسيحي اخذت تبكي وتذبح ولكن اباهما اقنعها بان امرها لا يتجاوز الاسبوعين وانه لا سبيل
الى غير ذلك نظراً لحياج الشعب بشأنها وطلبه تعميدها . فسكت الفتاة ونامت مع ابيها
في احدى غرف القصر في تلك الليلة لتذهب في صباح اليوم الثاني معه الى دير الراهبات
في جبل الزيتون . وقد صرف ابو الفتاة نصف الليل وهو يوصيها بما اراد ان يوصيها به
لئلا تمكن من اجتياز المصاعب التي كانت امامها

ولما خرج ايليا من لدن البطريك وجد في الباب راهباً ووراءه رجل يروم الدخول
على البطريك . فدهش ايليا حين مشاهدة الراهب ووقف حائراً لظنه انه يعرفه . اما

الشاب . كلا يا مولاي . فقال ومن أين قدما . قال لا أعلم . فقال وما سبب مجيئهما الى هنا مع معرفتهما ان الدخول الى المدينة المقدسة محرّم قطعياً على اليهود . فقال لا اعلم يا مولاي . فقطب البطريك حينئذ حاجبيه وقال : انك لا تعلم شيئاً من امرها ومع ذلك نتوسط لهما بالعفو بحجة الرفق والرحمة . فالرفق والرحمة يا بني فضيلتان واجبتان ولكن يجب ان نبحث هل وراء هذين الشخصين دسيسة لنا ام لا

فضحك ايليا في نفسه من هذا الفكر ونظر الى البطريك مبهوتاً . فقال له البطريك لعلك لم تفهم كلامي بعد . انني اريد قبل كل شيء ان اعلم هل الشيخ والفتاة هما جاسوسان للعرب او الفرس ام لا

فلما لفظ البطريك هذه الكلمة استنار عقل ايليا بغنة فرأى ان صاحبيه قد وقعا في ورطة جديدة اشد من الاولى . فاصنى قليلاً ثم اجاب . لم افطن الى هذا قبل الآن والآن فاني ما كنت اتوسط في اطلاق سراحهما قبل تحقيق امرهما . الا انني استأذن مولاي البطريك في ابداء ملاحظة صغيرة . وهي ان الفرس مشتغلون عنا الآن بمصائبهم مع العرب الذين يفتخون بلادهم * وفضلاً عن ذلك فانهم علموا من حروبنا معهم منذ بضع سنوات وهدمنا مملكتهم انه لا قبل لهم بنا * وحسبهم عدواً واحداً الآن . ولذلك لست اظنهم يفرشون بنا بالتجسس علينا . واما العرب فان اليهود غضابي عليهم لان اول عمل عمه اميرهم عمر بن الخطاب بعد وفاة اميرهم ابي بكر هو اجلاؤه اليهود والمسيحيين عن نجران وسائر بلاد العرب * لكي لا يبقى فيها الا دين واحد . وغبطنكم تعلمون ان بعض التجرايين المسيحيين قد لجئوا الى مدينتنا هذه . فكيف يمكن بعد هذا ان ياتن العرب يهودياً على اسرارهم مع معرفتهم استياء اليهود منهم

فهنا تنفس صفرونيوس الصعداء وقال هذا برهان ضعيف . فان اليهود كانوا اكبر اعوان الفرس والعرب علينا في جميع حروبنا معهم * وقد بلغت بهم الجراءة ان ثاروا بانطاكيا وقتلوا بطريركها كما تذكر * وثاروا ايضاً بصور ليقتلوا المسيحيين ليلاً * فرد الله كيدهم في نحرهم . ولا يزالون يتآمرون سرّاً في فلسطين مع يهود سوريا للثورة علينا * واعظم من ذلك كله انهم اشتروا من الفرس عشرات الوف من اسرارنا وذبحوهم انتقاماً منا * فبغض كهذا البغض يا بني لا يحول ولا يزول . ولذلك اعتقد ان اليهود يحالفون علينا كل الامم التي تقوم لانتزاع البلاد من قبضتنا لانهم لا يزالون يحملون باعادة مملكتهم . وما ادراك ان العرب لم يعدوهم بمساعدتهم على ذلك اذا هم ساعدوهم علينا

ولكن من يعرف اسرار ايليا فانه لا يشك في انه كتم غرضاً ثالثاً وهو الميل الذي بدأ يشعر به نحو تلك الفتاة الحسنة

فخدق البطريك في وجه الشاب مدهوشاً وقال فسر كلامك يا بني فقال ايليا وقد بدأ يحمس : يظهر ان غبطتكم بسرتم ان تسمعوا من في ذلك والا لا كنفتم بما تعرفونه من هذا القبيل . وحسبي ما فهمته منكم على الطريق . فانه من المشهور يا مولاي ان الخصم لا يستال بالعنف والشدة والبغض . فاذا وقع بين ايدينا كان حكمه علينا تابعاً لمعاملتنا . فاذا احسنا معاملته واغضينا عن اساءاته قال اننا قوم كرام متقدمون وربما عاد واتقلب فصار ميالاً الينا . وان عاملناه بالعكس قال بالعكس وازداد بغضاً لنا . فيجب علينا في رأيي ان نحسن معاملة غيرنا لنثبت له فضل مبدئنا . والا كان محققاً في كرهه لنا ولبلدنا

فاطرق البطريك يفكر . ثم سأل الشاب هل اسمك الخواجا ايليا يا بني . فقال الشاب مدهوشاً من نقل الحديث ومعرفة البطريك اسمه : نعم يا مولاي . فقال له وهل انت الذي يراك رهباني هائماً على وجهك في جبل الزيتون ووادي سدرون وحول المدينة المقدسة . فقال الشاب وقد زادت دهشته . تلك طريقتي يا مولاي الى المزرعة التي انا مستخدم فيها . فقال البطريك وقد هز رأسه انك تعني مزرعة الشيخ سليمان الذي حرّم على الكهنة الدخول اليها وجعلك « كاهناً عامياً » لها ولذلك يسميها « اوروشليم الجديدة » بدل اوروشليم مدينتنا . فاطرق الشاب هنا خجلاً واستحياء من شيخوخة البطريك وورقته . فقال البطريك مظهرًا الاستياء . لا بأس لا بأس . ولكنني انصحك يا بني ان تحفف على نفسك فلقد نظرتك امس من نافذة قصري في المدينة تنظر الى القصر وسكانه مهيئة الازدراء والاحتقار . وكنت في تلك الساعة اقراء تقريراً فيك مقدماً من احد عارفيك . فما لنا يا بني وللاهتمام بما لا يعنيننا . انما علينا ان نعيش بحسب وسلام مع جميع الناس . فان الصغار اخوة لنا كالكبار وكلنا عائلة واحدة بالرب . وانت لا تزال شاباً ولذلك يغلي دمك في عروقك . وحسبي دليلاً على ذلك اللهجة التي سمعتها منك الآن . فان غيري لو كان في مكاني لما قبلها منك . فهل تعدني انك تعدل عما مضى وتترك ما لا يعينك

فلما سمع ايليا هذه العظة الصغيرة التي لم يكن يتوقعها اسقط في يده . واحترق في الجواب . فادرك البطريك اضطرابه فمد يده وامرها على راس الشاب تحيياً وقال . حسن حسن ستترك كل ما مضى ولا شك . فلنعد الى امر الشيخ والفتاة . هل تعرف منزلها . فاجاب

ما يريد معرفته

وفي ذلك الحين تحرك الموكب لنقدمه وتلوه الجروع والجنود والمصاييح والرهبان . وايليا والشيخ والفتاة على مطاباهم في المقدمة والناس ينشدون حولم نشيد العباد المشهور مشيرين الى الفتاة وطالبين تميمدها

« باعتمادك يارب في نهر الاردن . ظهرت السجدة للثالوث . وصوت الآب تقدم لك بالشهادة متادياً اياك ابناً محبوباً . والروح كهيئة حمامة يؤكد تجسيد الكلمة . فيا من انقذت العالم من الخطيئة يارب المجد لك »

وما زالوا بهذا التشيد والمهتاف والضحك حتى وصلوا بيت لحم فدوت البلدة من جهاتها الاربع وانضم المجتمعون فيها الى القادمين ودخلوا بالبطريرك وايليا والشيخ والفتاة على نعم هذا النشيد المشهور

« اوصنا في الاعالي . مبارك الاتي باسم الرب . اوصنا في الاعالي »

وكان للبطريرك قصر رحب قائم وراء الكنيسة يقيم فيه مع حاشيته كلما قدم الى بيت لحم . فبعد ان استراح فيه هنيهة امر بان يستدعوا اليه الشاب ايليا . اما الشيخ والفتاة فانها ادخلا الى احدى غرف القصر واقفل عليهما الباب

فلما مثل ايليا بين يدي البطريرك امره البطريرك بالجلوس بازائه فجلس ايليا محتشماً وكان البطريرك صفرونيوس مهيب المنظر جميل الهيئة وهو في نحو السبعين من العمر . وكان شعره الابيض بكامل هامته العالية ووجهه الناصع البياض الشديد الحمرة تلمع فيه عينا زرقاوان حادتان لم تكسر السنون قوتهما . وكان له فوق هاتين العينين القويتين حاجبان كثيفان واسعان كانهما حرشان مشبكين فاذا قطعهما خلت ان العينين صارتا بركائين يقذفان نار الغضب والحدة . وكان بدناً ممتلئ الجسم وعليه ثوبه الكهنوتي الحريري الاسود يعاكس لون وجهه الابيض فيزيده جمالاً وجلالاً

فلما جلس ايليا سأل البطريرك ان يقص عليه القصة من اولها وان لا يكتمه شيئاً . فقص عليه ايليا حادثته وكيف خاصه النبي ارميا . فابتسم البطريرك لذكر النبي ارميا لانه كان مشهوراً . ثم استطراد ايليا من ذلك الى حادثة الشيخ والفتاة وصول البطريرك فاصغى اليه البطريرك ساكناً . وبعد ان تأمل قليلاً سألوه وما هو غرضك يا بني من المداخلة في هذا الامر . فاجاب ايليا مضطرباً لي غرضان واحد للدفاع عن النفوس البشرية التي حرّم الله اذيتها . وواحد للدفاع عن ديانتنا

الجميل « نعم . السلام في الارض لقسم من سكان الارض . اما هذا الشيخ والفتاة فاين السلام منهما الآن »

ولما وصل البطريرك كان النشيد والمنايا متصلين فمدّ يده وبارك الحاضرين في الجانبين اي انه رسم يده علامة الصليب في الهواء بجهة الحاضرين . ثم وقفت المركبة واستنهم البطريرك عن سبب ذلك الاجتماع والضوضاء فابلقه احد الرهبان السبب . فطلب ان يرى الفتاة فقدّموها اليه ووراءها الشيخ وايليا . فاجال فيها البطريرك نظره بدون اهتمام ثم امر بان تعود الى بيت لحم حيث هم ذاهبون وهناك يرى رايه

فلما سمع ايليا ذلك رأى ان الخطر قد ازداد شدة . فان البطريرك اذا دخل في موكبه مع تلك الفتاة الى بيت لحم في تلك الليلة فان المتحمسين يقيمون الدنيا ويقعدونها بتحمسهم وتحميرهم . واذا عرفوا الحقيقة بعد ذلك فآله يعلم العاقبة . فخطر له ان يجرب تجربة اعله ينجح فيها . فانفرد عن الناس وكشف راسه وانحنى للارض امام البطريرك ثم تناول يده فثمها وقال بيونانية سليمة من كل شائبة : هل تسمحون غبطتكم لابنكم المطيع بان يحدّثكم على انفراد

وكانت على وجه البطريرك لوائح الضجر واشتغال البالي . ومع ذلك اشار يده اشارة فانزاح الحاضرون عنه وبقي منفرداً مع ايليا

فقال له ايليا : مولاي ان الهياج شديد في بيت لحم كما بلغكم ولا شك . والشعب كاد يفتك بي انا ابنكم يجرد الشبهة . فكيف يكون حاله اذا دخلت بهذه الجماهير مع الفتاة الغريبة وهو لم ينسَ بعد ما لقيه المسيحيون من امبراطورة رومة انصار الآلهة

فاجاب البطريرك وهو يفرك انفه بمنديل اسود لتدفتته : ايها الشاب ان ارسال الفتاة الى بيت لحم حيث نحن موجودون اصون لها من ارسالها الى المدينة وحدها

فعلم ايليا ان حيله لم تجدي نفعا فلم يبق له الا مصارعة الحقيقة وجهاً لوجه . فقال للبطريرك بصوت يرتجف : وان ظهر هناك للشعب بامولاي ان الابنة ليست بوثنية

فاجاب البطريرك متفجعاً فلتكن مسيحية فان هذا يسر كل واحد منا فقال ايليا : وان لم تكن مسيحية

فهنأبت البطريرك وحده في ايليا . ثم راجع نفسه فنظاهر بانه لم يفهم كلام ايليا .

فقال له اركب يا ولدي اركب وسنبحث في هذه الامور هناك

فحينئذ تنفس ايليا الصعداء ورجع بامياً نحو الشيخ والفتاة لانه قراء في عيني البطريرك

هذه هي الحيلة التي دبرها ايليا لانتفاذ الفتاة . فانه كان يعلم ان العامة يتساهلون مع الوثنية اكثر من اليهودية اذ ليس بين المسيحية والوثنية دم زكي وثائر عظيم فضلاً عن ان الاولى كانت على ثقة من ان مصير الثانية اليها . ولم يكن محرمًا على الوثنيين دخول اورشليم . ومن جهة اخرى فقد كان يعلم ايضاً بناءً على ما ظهر له ان تلك الفتاة قد تفضل اسم « وثنية » على اسم « مسيحية »

وبينما كان الناس يتحدثون ويلفظون مسرورين بانهم سيعيدون في تلك الليلة عيدين عيد الميلاد وعيد هداية نفس بشرية واذا بالمشاعل والمصابيح قد ظهرت في الطريق من جهة القدس . فعمل الناس حينئذ ان البطريك قادم بموكبه الى بيت لحم استعداداً لصلاة العيد . فسرّ الحاضرون بذلك لرغبتهم في ان يذهبوا الى البطريك الفتاة الوثنية يدّاً بيد . ولذلك انظروا جميعاً وصول الموكب . اما ايليا فقد لبث واقفاً بجانب الشيخ والفتاة يفكر في طريقة لحل هذه المشكلة وقلبه يتفطر شفقة على تلك الفتاة كما وقع نظرها الفائر الكسير على نظره . ولكن الحق يقال ان عاطفة الشفقة هذه كانت ممزوجة بعاطفة اخرى ايضاً . . .

الفصل الرابع

✽ البطريك صفرونيوس ✽

الذي فتح العرب بيت المقدس في زمنه

وبعد عشر دقائق وصل البطريك

وكان جالساً في مركبة خصوصية له نتقدمه المشاعل والمصابيح وشرذمة من الجند وراء المركبة وامامها . ووراء الجند حاشية من الرهبان يركبون جياداً كريمة . وكان الجميع سكوتاً كان على رؤوسهم الطير الا جماعة الرهبان في المؤخرة فانهم كانوا يتحدثون همساً اذ من طبعهم انهم لا يستطيعون السكوت

ولما ظهرت مركبة البطريك للجموع نتقدّمها الانوار اخذ الحاضرون يستقبلونه متغنين بهذا النشيد الذي هو نشيد عيد الميلاد « المجد لله في العلى وعلى الارض السلام وفي الناس المسرة » وكانوا في اشد حالات الهياج من التحمس الديني . وكان بعضهم سكارى لان يوم العيد يوم فرح وشراب عند العامة . فقال ايليا حين سماعه ذلك النشيد

وحدة لاسيا وأنه كان يعلم تأثير بعض الالفاظ على اذهان العامة : الاتحجلون ايها الاخوة من القاء الشبهة على مسيحين مثلكم « باسم الآب والابن والروح القدس » قال ذلك ورسم علامة الصليب على صدره . ثم قال للشيخ والفئة برهنا لم . ثلي على انكم مسيحيون ايضا فعند هذا الكلام اتجهت جميع الانظار الى الشيخ والفئة . اما الشيخ فانه مدّ يده بكل تأنر ورسم علامة الصليب على صدره كما رسمها ايليا . واما الفئة فان يدها لم تتحرك . بل عاودها البكاء .

فهنأ علم ايليا الخطأ العظيم الذي حدث . وزاده علما به تهيج العامة حينئذ ونداؤهم « فلتصأب الفئة فلتصأب الفئة » اي فلت رسم علامة الصليب على صدرها . فرأى الشيخ حينئذ ان الخطر قد وقع ولا سبيل لردّه . فقال بصوت يرتجف من الناثر والانهال . نعم هي تصأب يا اخوان . صأبي يا بنية واسألي هنا ان يعينك على المرض الذي تبكين منه

فشعر ايليا بما في هذا الكلام من المعنى . وحدق في يد الفئة ليرى اتخا ص نفسها ورفيقها ام لا . فاذا بيد الفئة قد بقيت جامدة وزاد بكأؤها

فهنأ اشد اللغظ والهياج بين العامة وصار الخمسون منهم يصيحون « يهودية يهودية » ومصرى كالبرق بين القادمين والحاضرين انهم امسكوا يهوديا ويهودية . فاشرا بت الاعناق وتناول الناس لرؤيتهما . وفي هذه الاثناء دنا ايليا من الشيخ وحدته مليا والناس لا يسمعون حديثهما . وبعد حين التفت ايليا اليهم وقد عدل عن الخطوة الاولى الى خطوة جديدة فقال ضاحكا مخاطبا الجمع : الآن ايها الاخوان عرفت حقيقة المسألة . وبكفي ان اقول لكم ان هذه الفئة الصغيرة السن قد قدمت منذ اسبوعين من بصرى (١)

فصاح الجمع حينئذ باصوات منقطعة متتابعة « بصرى بصرى ... هاهأ فهي اذا وثنية ... بصرى بصرى ... صحيح صحيح . لذلك هي بهذا الجمال . ان « باكوس » الملعون قد كساها كل جماله ... كبريالا يسون كبريالا يسون ... هلمأ بنا الى بيت لحم لتعميدها في هذه الليلة ليلة العيد»

ثم صاح احدهم . ورفيقها هذا هو من بصرى ايضا . فاجاب ايليا لا بل هو من المدينة ولكنه جاء بها لارشادها وتميدها

(١) « بصرى مدينة ادومية مشهورة في فلسطين كانت آخر المدن الفلسطينية التي عمت فيها آلهة الرومان واليونان الاقدمين وكان فيها هيكل للاله « باكوس » وهو ابن جوبيتر والاله الخمر . وكانت في مقدمة المدن التي فتحها العرب عند حملتهم على الشام . وقد اخرنا تاريخ الوثنية فيها للرواية .

منهم فاتجهوا نحو البغليين وامسكوهما ليساؤا الراكبين عن حادثة بيت لحم وبذلك يتبشون حقيقة امرهما

فلما رأت الفتاة ذلك لم تنالك ان اجهشت بالبكاء واطلقت لزنراتها العنان . اما الشيخ فقد صار وجهه كوجوه الموتى من الاصفرار لانه تحقق الخطر . واما ايليا فانه اعمل المهماز في شاكلة الجواد وبوثبتين صار يجانب البغليين

وكان الناس قد تألبوا حول الشيخ والفتاة من كل صوب حتى سدت الطريق وصار كل قادم ينضم اليهم مستغربا مستعجلا . وكان هذا يقول انهم قد القوا القبض على اليهودي الذي فر من بيت لحم . وذاك يقول بل هذا رفيقه لا هو نفسه لان ذاك مسجون في بيت لحم الى ان يحضر البطريك . وهكذا شبهات العامة وتصوراتها احيانا تكون مصيبة واحيانا مخفظة . فاذا اصابك اكتشاف ما لا يستطيع احد غيره اكتشافه لان اكتشافه انما يكون بالشبهة والتهمة اي بالصدفة . واذا اخطأت فالويل للبريء الذي ينشب فيه سهم خطأها فلما وصل ايليا الى الجموع المتألبة صاح بها بلغة يونانية فصيحة . افسحوا الطريق يا اخوان فاننا نريد المرور . فقال له احدهم ولماذا تركتم بيت لحم في هذه الساعة هل تكرمون حضور العيد والقداس في الصباح . فقال ايليا انا سائر الى المدينة في شأن خصوصي وساعدو قبل الفجر لحضور القداس معكم (١) فساله الحاضرون ورفيكاك هذان . فاجاب انا سائر وحدي ومن هاهنا المسافرين . ثم التفت الى الشيخ وساله ايها الاخ هل انت ذاهب مثلي الى المدينة لتعود قبل الفجر . فقال الشيخ حينئذ بلغة يونانية عامية نعم ايها الاخ الكريم . فقال ايليا انت اكرم يا اخي فهلم بنا نسير معا . فافسحوا الطريق يا اخوان ولتمننوا بالعيد المجيد

ولكن الجمهور لم يتفرق بل كانت انظاره متجهة الى تلك الفتاة الحسناء التي بكت منذ حين بكاء يدل على الخوف . فقال احدهم . ولكن لم نخبرونا شيئا عن اليهودي الذي قبضوا عليه في بيت لحم فاذا صنعوا به . فهنا ظهر الارتعاد على الفتاة رغما عنها . وما الحيلة باعصاب النساء فانها ضعيفة . فازدادت شبهة التحمسين وصاح احدهم : الحق نقول لكم اننا لا نترككم ترمون الا اذا وجدنا بيننا من يعرفكم وقد رأكم في المدينة . فعملوا بنا الى دير مار الياس القريب على الطريق *وهناك نراكم على النور

فهنا علم ايليا ان الجبانة مضرّة ولا يفيد شيء مثل الجراءة والشجاعة . فقال بنزق

(١) المسافة بين بيت لحم والقدس خمسة اميال

بهما نظر الاستغراب لعودتهما في تلك الساعة من بيت لحم مع ان جميع الناس كانوا حينئذ ذاهبين اليها

ولم يصل الشيخ والفتاة الى محاذة المكان المعروف بقبر راحيل حتى سمع للفتاة شقيق وزفير ضعيف . فصاح بها الشيخ همساً اياك والبكاء يا استير والآن تفضحينا . فقالت الفتاة . است ابيكي على راحيل بل على انفسنا وعلى حياتنا التعيسة (١)

ولقد احسنت الفتاة بتوك البكاء في ذلك الحين اذ بعد دقيقة سمع على الطريق امامهما جلبة شديدة . وكان السبب في ذلك قدوم شرذمة من الجنود الفرسان مسرعة من القدس لان والي المدينة بلغه خبر الاضطراب في بيت لحم وهياج الشعب لظنهم ان في المدينة رجلاً اسرائيلياً فرأى زيادة الجند هناك . فلما نظرت الفتاة لمعان السلاح في الليل وسمعت ضوضاء الخيل ارتعدت فرائصها وغار الدم الى قلبها . فشجوها رفيقها بكلام رقيق تظهر فيه القوة مع انه كان خائفاً مثلها . اما الجند فمرت خبياً بالنظام جميل . فنفس الاثنان الصعداء . وكان ايليا قد دنا منهما اكثر حين نماء تلك الحركة

فلما مرت الجنود صار الناس يتساءلون عن سبب ارسالها بسرعة كهذه السرعة . ولما عرفوا السبب انتشروا بينهم بسرعة البرق فضحك منه الراكبون لعدم تصديقهم اياه واما المشاة فانهم جدوا في السير لمشاهدة المصاييح التي ابت ان تشتعل واليهودي الذي امسكه الناس . وكانوا في اثناء سيرهم يتهددون ويتوعدون ذلك اليهودي الذي كدر صفوهم في ذلك العيد . فلما وصلت طلائع هذه الجماعات الى الشيخ والفتاة ومما حديثهم عراها حينئذ خوف شديد . اما الناس فلما ابصروا الشيخ والفتاة اخذوا يحدقون فيها ويعجبون بعودتهما في تلك الساعة قبل الاحتفال بالعيد . وكانت تصوراتهم ملتبته للقصة التي سمعوها عن بيت لحم فاخذوا يقتربون من البغليين ويتفردون في صاحبيها وهم سائرون . فاصاب الفتاة ضعف شديد فمدت يدها وغطت بها وجهها تخفي لوائح الاضطراب والاصفرار وفي الوقت ذاته بدرت منها زفرة رغماً عنها لان صدرها ضاق بما كانت تجده من الاضطراب . فازدادت شبهة الناس فيها وصاروا يلتفتون نحوها من كل جانب . ثم قوي قلب بضعة من التجمسين

(١) راحيل هي امرأة يعقوب ويقال ان قبرها هناك وان كان ذلك يحتاج الى اثبات . وهو اليوم مزار مبني للاسرائيليين . وقد دخلنا اليه منذ نحو ١٣ سنة فوجدنا فيه عشرات من النساء الاسرائيليات يكنين فيه ويغنن ويلطنن حزناً على راحيل وعلى اسرائيل وهن بحالة تشبه حالة النساء فوق الميت تماماً من حيث البكاء والالطم والهياج

الخلي . وكان سبب اضطراب هذا الشاب بدله على اخلاقه . فانه لم يضطرب لمنظر الدم الذي سفك دماً زكياً عنده . فان نفسه كانت ارقى من نفوس العامة بكثير . بل كان اضطرابه لعله ان العامة اذا ظفروا بهذا الرجل ورفيقته فانهم يقيمون الدنيا ويقعدونها عليها لمخالفتها امر الحكومة بمنع دخول الاسرائيليين الى بيت المقدس ونواحيه . وربما لقيها من الحكومة اشد عقاب من اجل امر صغير كهذا الامر

وبعد دقيقة وصل الرجل والمرأة الى محاذة ايليا . فامعن ايليا من زاويته النظر فيها فاذا به يرى رجلاً في نحو الستين والسبعين من العمر وفناء في نحو العشرين . وكانت ملابسها كملابس رجال وسيدات اورشليم . وكان الخوف بادياً على وجيها الا ان خوف الفتاة كان يطبع على وجهها جمالاً سماوياً ساحراً . وكانت الزفات تتصاعد من صدرها وهي سائرة فتحنقها ولكنها انما لك نفسها رغماً عنها لئلا يسمع صوتها في هدوء ذلك الليل

فلما لمح ايليا في ذلك الليل هذا الجمال الخائف وطرقت اذنه تلك الزفات المتصاعدة عن قلب مضطرب متألماً من عدوان البشر شعر الشعور الذي يشعر به كل رجل كريم يعرف واجباته الانسانية في حال كهذه الحال . فقال في نفسه اني ساكون الزم لهذين الخائفين من ظلمها . فساتبعها واحرسها من بعيد واذا طرأ عليهما سوء وقيتها منه بنفسى . — وعلى ذلك اخذ يسير وراءها

اما الشيخ والفتاة فانهما ما قطعوا البلدة حتى وصلا الى الطريق العمومية الموصلة الى القدس فهناك تنفسا الصعداء قليلاً . وكان في ذلك المكان محطة للغيل والبغال فاستأجرا بغلين الى القدس وركبا قاصدين المدينة . فجاء ايليا بعدهما واستأجرا جواداً وسار وراءها

الفصل الثالث

على الطريق

في ان الفتاة قد تكون اشد تمسكاً بمبدعها من الشيخ لان نفسها عذراء لم يلوئها الخوف والمجبن ورجاء الفائدة

وكان الناس لا يزالون يقدون على بيت لحم من القدس وهم منتشرون على طول الطريق بين مشاة وركاب وفيهم المغنون والعازفون بالآلات الموسيقية . فلما رأى الشيخ والفتاة ذلك علما انهما ما زالا في خطر . وفي الحقيقة ان الناس كانوا ينظرون اليهما حين المرور

فهم النبي ارميا على الجموع صائحاً اليكم عنه اليكم عنه . فانزاحت الجموع من طريق الرجل القادم وهم يصيحون مسرورين « اهلاً بالنبي ارميا . سلموه اليهودي ليصلبه » فسلمه العامة ايلياوم يحومون حوله وايليا يلهث من التعب والالام لا من الخوف . فاخذته ايليا من يده ودنا منه فقَبَّله امام الحاضرين ثم قال على مسمع منهم « اذا كنت انا يهودياً فهذا الرجل يهودي » فدهش الحاضرون حينئذ واخذوا يتفرقون عن ايليا وهم نادمون لاسائتهم اليه . اما ايليا فاخذ يصلح ملابسه ثم انه شكر للنبي ارميا مساعدته واوصاه ان يبلغ السيدات شكره وبعد ذلك استأذن ارميا بمفارقه للتفتيش على الرجل الذي كان السبب في الاساءة اليه . وعاهده على ان يلاقيه في المكان الذي اعتاد ملاقاته فيه

وبينا كان ايليا يفتش في ذلك الشارع عن الرجل الذي حرّض الناس عليه وهو لا يزال في اشد هياج كان العامة قد عادوا الى الاضطراب والحركة واخذوا يتصايحون قائلين « فتشوا على اليهودي . . . والّا لم يبق عيدولا احتفال لان المصاييح « تاني » الاشتغال . . . هل وجدتم اليهودي . . . هل يجتم في ذلك الشارع . . . هل قلبتم الحجارة في الطريق لعله يخزي تحت احدها »

فمن هذا المزاح يظهر ان العامة كانت بذلك تقصد المزح على الاكثر اذ لم يكن لديها شيء يلهيها . وهذا ما يحدث في اكثر الفتن والاضطهادات . فان المضطهد (بكسر الهاء) والمضطهد (بفتحها) كثيراً ما يكونان كالمزمار والفاقر الاول بابع والثاني يتعذب وكان ايليا قد بلغ حينئذ طرف الشارع دون ان يجد الرجل الذي كان يبحث عنه . وكان ذلك الجانب يكاد يكون خالياً من الناس لبعده عن الكنيسة . فلما وصل الى منعطفه همّ ان يقفل راجعاً واذا به يسمع هامساً يقول « اسرعي يا استير »

فما سمع ايليا اسم « استير » حتى اجفل وهرع نحو الصوت . فشاهد شبحي رجل وامرأة يسيران في الشارع الثاني . فوقف مبهوتاً بنظر اليهما وقد اشتبه في امرهما من اسم « استير » اليهودي . فقال في نفسه ترى هل صدق ظن العامة ودخل بعض الامرائيليين الى هذه البلدة في ليلة العيد لمشاهدته مع ما هو مشهور من تحريم الدخول عليهم الى اورشليم ونواحيها . ولما كاد الشيطان يتواريان اسرع ايليا فقطع عليها الطريق من شارع الكنيسة ثم عطف على الشارع المقابل لشارعها فصار امامها . فسمع الرجل يقول للمرأة باللغة العبرانية همساً « لا تخافي لا تخافي » فتمتم ايليا حينئذ ان الرجل والمرأة امرائيليان لا شك فيها . فاضطرب لذلك اضطراباً شديداً . ووقف في زاوية ينظر مرورهما عليه في ذلك الشارع

وما برهانك . فقال ايليا اذهب معي الى مغارة المهد وهناك اصب امام عينيك شبتاً من الزيت في المصباح الذي انطفأ من تلقاء نفسه فتعلم حينئذ انه لم ينطفئ الا من نفاد زيته فرسم الرجل حينئذ علامة الصليب على صدره صائحاً « باسم الصليب الكريم » ثم صرخ مشيراً الى ايليا « هذا هو اليهودي فانه ينكر العجيبة » ، (اي المعجزة)

فلم يكن كلع البصر حتى تألب حول ايليا جمهور من العامة واخذوا بشيابه وبديه وعنقه . وكان احدهم يلطمه في كنفه وآخر يدفعه في صدره وثالث يصنعه على قفاه وهم يصيحون باعلى اصواتهم « مسكناه مسكناه يهودي يهودي » وكان ايليا في اثناء ذلك يتخلص منهم ولكن على غير فائدة . وما زالوا يجرّونه ويدفعونه والجمهير ازداد التفاقاً حوله حتى وصلوا به الى باب الكنيسة امام البيت الاحمر . وكان الضيوف في البيت الاحمر قد خرجوا الى الشارع حين سماعهم تلك الجلبة والسيدات وقفن في الباب ينظرن الى هذا الاضطراب . فلما وقعت انظارهن على ايليا بين تلك الجماهير في تلك الحالة شهقن شهقة واحدة من الاستغراب والدهشة . وصاحت تلك التي قالت في ما تقدم انها كانت تنظره يخرج من باب يافا : وحياة العذراء مريم ان هؤلاء الناس معتدون على هذا الرجل . فاني متحققة انه ليس يهودي لانني نظرت مراراً بنحني امام الصليبان والربان حين دخولهم في بعض الاحتفالات من باب يافا . وانا انظره في المدينة منذ سنوات . فازدادت النساء حناناً وشفقة على الرجل . وقد قالت تلك السيدة هذا القول دون ان تحشى لائمة فيه مع معرفتها انه يحتمل التأويل عليها . ولكن قلما كان في تلك الساعة كبيراً لرغبتها في انقاذ رجل يرىء فافتكرت بغيرها لا بنفسها

وبينا كانت هؤلاء السيدات مشغولات بالاسف والكلام كانت واحدة منهن وهي تيوفانا التي تقدم ذكرها قد ركضت الى داخل الفندق اول ما وقع نظرها على ايليا بين الجموع . وبعد بضع دقائق عادت ووراءها رجل غريب المنظر وهو يفرك عينيه من النعاس كانه كان نائماً وأيقظته . وكان هذا الرجل كبير الهامة عربض الاكتاف طويل القامة شعره منتشر على كنفه ك شعر الربان وفي عينيه لوانح الغلظة والحدة والدكاء . فلما راته السيدات صرخن « اهلاً وسهلاً بالنبي ارميا » وقالت له تيوفانا مشيرة الى ايليا بين الجموع « انظر الى هذا المسكين فاذهب وخلصه »

ولكن ما وقع نظر النبي ارميا على ايليا حتى اسرع اليه متفرساً فيه من بعيد . ثم صاح باعلى صوته « النبي ايليا » فالتفت حينئذ ايليا واذا ابصر الرجل القادم صاح به « الي يا صديق »

الفصل الثاني

✽ يهودي يهودي ✽

في ان العامة في كل مكان تصدر احكامها بلا تحقيق ولا محاكمة

اما ايليا فانه كان يضحك من زاويته لترك الرجال سؤال السيدة بلا جواب . وكان السيدات شعرن حينئذ بقرص البرد لا تقطاع الحديث فنهضن مبتهجات مرتجفات من القرب واسرعن الى داخل الفندق . وكان صاحبنا ايليا قد مدّ يده الى جيبه ليتناول دفتره ويجاوب فيه عن ذلك السؤال . واذا بصيحة شديدة علت في الشارع وصار الناس يصرخون ويحلبون . فهرع الرجال الى الباب وفي مقدمتهم صاحب الكتاب وجمدت السيدات في مكانهن مرعيات السمع لمعرفة سبب ذلك الصياح . فسمعن العامة يصيحون « غضب الله غضب الله » « يهودي يهودي في المدينة » فلما سمع صاحب الكتاب وقد عرفنا ان اسمه ايليا كلمة « يهودي » وثب الى الشارع وهو يقول في نفسه « هذه رواية جديدة لم نثناها منذ زمان » فوجد الناس في هياج شديد لا مزيد عليه وهم يروحون ويحيئون باحثين مفتشين عبثاً . فهذا يقول « رأيت من هنا وهو بلحية طولها كالذراع ووجهه اصفر كوجه الاموات » وآخر يقول « لا بل هو بلا حية ولكن قامته بطول اربعة اذرع ورأسه صغير صغير كالرمانانة » وذاك يقول « لا لا لم اره هكذا وانما رأيت قصيراً لا يتجاوز الذراع ولحيته تكنس الارض من قصره » فضحك ايليا من هذه الاقوال المتناقضة واستوقف احد الصارخين وكان من اكثرهم تحمساً وقال له : اخبرني ايها الرفيق ما سبب هذا الاضطراب . فاجاب الرجل وهو يلهث من تعبته في الصراخ : الا تعلم السبب . ان يهودياً اجتراً ودخل بيت لحم ليلة العيد فيجب ان نمسكه ونصلبه . فقال ايليا وقد ارتعدت فرائضه من ذكر الصلب . ومن اين علمتم ذلك اذا كنتم لم تمسكوه بعد . فاجاب الرجل علمنا ذلك باعجوبة سهاوية . فان المصباح في مغارة المهد انطفأ من تلقاء نفسه وكما راموا اشعاله لا يشتعل . وهذه علامة قطعية على وجود يهودي في المدينة يغضب وجوده اهل المقام فها ايليا رأسه وقال في نفسه : الويل للبريء الذي يشتبه به العامة ويقبضون عليه بدعوى انه يهودي فانه يذوق العذاب والاهانة قبل ان يستطيع ان يثبت انه ليس يهودي . ثم قال للرجل : اتريد ان ابرهن لك انه لا يهودي في بيت لحم الآن . فقال الرجل محملاً

بعد استيلاء العرب على دمشق لياخذ الصليب الى القسطنطينية وبنصبه في كنيسة هاجيا صوفيا * ففي هذه المرة كان الاضطراب والضعف بادبين في وجهه . وصحته كانت في اسوء حال وهذا ما منعه من قيادة جيوشه بنفسه * للدفاع عن دمشق والقائه عهدة ذلك الى اخيه ثيودوروس الذي اساء في الدفاع فناله غضب الامبراطور * ثم نظر المتكلم الى ما حوله كما انه خائف ان يسمعه احد وقال : وهناك اخبار جديدة وردت في هذا الاسبوع من القسطنطينية ثبت ان الامبراطور اصبح في حالة صعبة لطف الله به . فان عقله صار مضطرباً * لكثرة مشاكل السلطنة . ويخشى ان يفقد صوابه * وقد علمت عن ثقة انه لما وصل الى قصره في القسطنطينية اضطر رجاله ان ينوا له على البوسفور امام قصره حواجز خشبية على صفين من الجسور وتغطية هذه الحواجز بالخضرة والنباتات * لاختفاء منظر البحر عنه لانه اصبح يخاف خوفاً شديداً المجرد وقوع نظره على البحر * فهل من حق البطريك ان يلوم رجلاً هذه حالته العقلية والصحية

وكان بين الرجال رجل يتشاغل عن هذا الحديث بفرك يديه ووجهه من البرد فلما فرغ المتكلم من كلامه التفت الى الحاضرين وقال : هل تعتقدون ان البطريك مستاء من الامبراطور من اجل مسألة الدفاع عن سوريا وفلسطين فقط . كلا فان الاستياء بينهما قديم

فقال الرجل الذي تكلم سابقاً نعم نحن لا نجعل ما قام بينهما من الخلاف في المسألة الدينية * ولكن ما هذا وقته الآن . فان الواجب علينا لوطننا وديانتنا ومملكتنا ان نكون كلنا بدءاً واحدة ونفساً واحدة امام العدو . والا كانت العاقبة وخيمة علينا فانبرت هنا احدى السيدات وصاحت . يا لله اننا قدرنا على سلطنة عظمى كسلطنة الفرس فسحقناها واحتللنا عاصمتها * وقبائل بدو ضعاف حفاة كقبائل العرب لا تقدر عليها فساد السكوت حينئذ بين الحاضرين لان هذا السؤال البسيط نقل الحديث الى اهم المواضيع اي الى اسباب ضعف الامبراطورية يومئذ مع قوتها في ما سبق . فنظر الحاضرون بعضهم الى بعض وابتمسوا . وكان فيهم السوريون واليونان بين شرقيين وغربيين * فكأنهم ارادوا بابتسامهم ان يقولوا ان ذلك العيد يوم فرح وسرور لا يوم مناقشات ومخاضات في امور سياسية دينية جنسية * فقد كفى الناس مخاضاتهم في هذه الامور في باقي ايام الاسبوع *

الامبراطور كان مصيباً في ما فعل . قال الرجل ذلك ثم نظر الى ما حوله . فقالت احدى السيدات ولكن يظهر ان مولانا البطريك مستاء جداً من صنعه هذا . فقال ذلك الرجل ولكن ما الحيلة انه لم يكن يستطيع ان يعمل غير ما عمل . فانه بعد ان فتح العرب دمشق لانكسار اخيه تيودوروس امامهم في اجنادين (١) لم يبق له الا ترك سوريا وشأنها تدافع عن نفسها بنفسها للعودة الى القسطنطينية قاعدة مملكته لان المغول والسلافيين وفيهم البلغار والسرب كانوا يتهددون حياة السلطنة وقد كسر السلافيون جنده وراء القسطنطينية شرّاً كسرة * وقد بلغني انه لما خرج من سوريا قادماً الى هنا لاختذ الصليب المقدس من الجبلجة الى القسطنطينية خوفاً * من ان ياتخذ العرب كما اخذه الفرس لما فتحوا مدينتنا (٢) وقف على نشر في حدود سوريا مودعاً وقال « السلام عليك يا سوريا سلام لا اجتماع بعده » (٣) ذلك لانه علم انه لا قبل له على حفظ سوريا ووراءه من ذكرنا من اعدائه . ومما زاد الطين بلة ايضاً ان الجيش تمرد * وأعلن خلعه . فكيف بقي في هذه البلاد ليدافع عنها بنفسه وتلك حال سلطنته وعاصمته . ان البطريك مخطيء في استيائه . فقال رجل آخر وهناك سبب آخر يوجب على البطريك ان لا يستاء من ترك الامبراطور سوريا وفلسطين وشأنهما تعتمدان على قواتهما الداخلية فقط . وهو اعتلال صحته واضطراب عقله . فاني شاهدت الامبراطور مرتين . المرة الاولى منذ ثمانين سنة لما عاد الينا من حرب الفرس ظافراً منصوراً بعد ان سحق سلطنة كسرى الكبير وهدم معابد النيران واشترده الصليب وجاء لاعادته الى الجبلجة * فانه كان يومئذ في اوج عزم وعظمت . وكانت الامبراطورية كلها تتحدث يومئذ بسطوته وشاعره « الراهب جاورجيوس ييسيديس » الذي هو معلم اعترافه ايضاً ينشر فيه القصائد الرنانة التي تثير الافكار ويشبهه بالبطل اشيل وقسطنطين الكبير * فيومئذ كان الامبراطور معبوداً عند شعبه وكانت لوائح السعادة تظهر على وجهه . ولست انسى في حياتي منظره لما حمل في كنيسة الجبلجة في مدينتنا الصليب بنفسه وصعد به وحده الى موضعه في الجبلجة لنصبه بيده * فقد كانت لوائح القوة والصحة ظاهرة عليه . اما المرة الثانية التي شاهدته فيها فهي منذ مدة لما عاد الينا من انطاكية

« ١ » سنة ٦٤٤ لليلاد

« ٢ » سنة ٦١٤ لليلاد

« ٣ » رواه ابن الاثير وابنته درايريون . وهذا عبارة ابن الاثير بالمحرف (السلام عليك يا سوريا سلام لا اجتماع بعده ولا يعود اليك روي ابداً الا خائفاً حتى يولد الولد المشوّم)

وما اتى صاحب الكتاب على هذه العبارة حتى اندفع من قسم النساء في الفندق نحو عشرين سيدة ضاحكات مقهقهات وتفرقن في الحديقة . فالتى صاحب الكتاب اليهن نظرة ثم عاد الى كتابه بانقصة وكبرياء . اما السيدات فلم يصفرن انظارهن عنه بل اخذن ثيابا ملن فيه . فقالت احدهن من هو هذا البارد الذي يقراء في هذا الظلام والبرد يا اخواني . اظنه راهبا من رهبان دير ايليا . فضحكت رفيقاتها . واجابت سيدة اخرى وحياة العذراء يا اخواني انني نظرت هذا الرجل قبل اليوم . فانه في كل مساء يخرج من باب يافا وفي يده كتاب فينحدر الى الوادي ويغيب فيه

فرسمت احدهن علامة الصليب على صدرها وقالت « كيريا لايسون » (يارب ارحم) اظنه يختلي بعلازبول . فصاحت بعض رفيقاتها : باسم الصليب الكريم يا تيوفانا انك تذكرين بعلازبول دائما فيظهر انه يينك وبينه شيء من الصبغة . فضحكت السيدات . واما تيوفانا فانها رسمت علامة الصليب على صدرها وبصقت على الارض موجهة هذه البصقة الى بعلازبول

اما صاحب الكتاب فانه لم يسمع من حديث السيدات سوى هذه الكلمة « دير ايليا » فظن انهن يقلن « اسمه ايليا » فقال في نفسه من اين يعرفني هؤلاء السيدات ومن البديهي انه لا يخرج النساء الى الحديقة ويبقى الرجال في الداخل . فخرج الرجال على صوت النساء وتفرقوا في الحديقة محييين السيدات برؤوسهم . وما زالوا يتشون حتى النقت طلائع الفريقين فتبادلوا التحيات والابتسامات وتداعوا الى الجلوس على مقاعد الحديقة مع شدة البرد . فجلس النساء في صفوف والرجال في صفوف . ودار الحديث بين الفريقين وصاحب الكتاب في زاوية يصغي ويبني

فقال احدى السيدات متى يصل مولانا البطريرك . فاجابها احدهم سيصل في الليل فقالت اخرى : الظاهر ان هذا العيد سيكون بهيجا لكثرة الحجاج والوافدين . فهزأ احد الرجال راسه وقال ان اكثر هذه الجماهير فروا من وجه العرب * ولم يقدموا للعيد . فقالت تيوفانا اذا قصدتم الكلام في السياسة فاخفضوا اصواتكم وانظروا الى ما حولكم . فرفع حينئذ احد الرجال صوته وصاح مم نخاف لقد اضاعوا الامبراطورية بطياشتهم . وها ان العرب قد صاروا على ابواب المدينة * فبغيت النساء وصاحت تيوفانا : وهل انكسر مانويلس . فهزأ الرجل راسه وقال ان قائدنا مانويلس الظريف قد انكسر في « اليرموك » شر كسرة * وهذه الواقعة فتحت سوريا كلها للعرب كما فتحت لهم واقعة القادسية بلاد الفرس * ومن ذلك يظهر ان

الفصل الاول

الى الكنيسة الكبرى وخارجون منها ولوانح السرور على وجوههم
فلترك الناس خارجين وداخلين ولنذهب بالقارىء الى منزل كبير قائم تجاه الكنيسة
في الجهة الغربية وهو مدهون بلون احمر ولذلك يسمونه « البيت الاحمر » . وقبل الدخول
الى هذا البيت نقراء على خشبة مسطرة فوق بابيه هذه الكتابة باللغة اليونانية « لا شراب
ردى يزج معدتك ولا رفيق السوء يزج نفسك » ذلك ان هذا البيت كان معداً لنزول
الضيوف في الاعياد والمواسم والاحتفالات المختلفة

فاذا دخلنا هذا الفندق وجدناه قسمين . نقسم للرجال وكان يجتمع فيه ضيوف من بيت
المقدس وغيره . وقسم للسيدات وكان يجتمع فيه اجمل واذكى سيدات اورشليم (١) وكان
امام القسمين حديقة واسعة الجوانب مزروعة بالنباتات والازهار والشجيرات المختلفة وفي
وسطها قاعة المائدة وهي قسمان ايضاً واحد للرجال وواحد للنساء

وكان البرد في ذلك اليوم شديداً والغيوم متلبدة في السماء تنذر بالمطر والهواء يهب
من الجهة الجنوبية الغربية هبوباً عنيفاً ومع ذلك فقد كان في الحديقة في جهة قسم الرجال
رجل يمشى وفي يده كتاب خطي وهو تارة يقرأ وطوراً يتأمل . وربما يظن القارىء ان ذلك
الكتاب كان نسخة من كتاب ديني ولكن اذا دنونا من الرجل وجدنا على غلاف كتابه هذه
الكلمات « كتاب في النفس - تأليف ارسطو »

وكان الوقت مساءً وصاحب الكتاب يقرأ في كتابه على ذرات ضوء النهار الاخيرة بين
مداعبة الريح وقرص البرد وقهقهة الرجال والنساء خارجة من داخل الفندق بينما صراخ الناس في
الشوارع امام الكنيسة واصوات الباعة وضوضاء المغنين تصم الآذان . وكان هذا الرجل
القارىء كلما زادت تلك القهقهة والضوضاء الداخلية والخارجية ينظر باشمئزاز وانفة الى
الجانب التي خرجت منه ويقرن اشمئزازه بابتسام الاحتقار . الا انه في ذات مرة اشتدت
القهقهة والصياح من داخل ومن خارج فمدّ يده الى جيبه وتناول دفترًا وكتب
فيه ما يأتى

« الطبقات العالية لا هم لها الا ملاذها . فهي تفرح وتطرب لان الامبراطور يترك
لها حرية التمتع بها . فكان الدنيا كلها عندها اكل وشرب ولذة . والطبقات الواطئة
ترضى باقل شيء ولذلك يلونها باصغر الامور ويعملون على ظهرها كل الاعمال . فهل ننفتح
عيونها يا ترى يوماً من الايام »

الفصل الأول

✽ عيد الميلاد في بيت لحم سنة ٦٣٦ ✽

حالة الامبراطور هرقل والسلطنة البيزنطية في صدر الاسلام

« البيت الاحمر »

بيت لحم في يوم عيد الميلاد المسيحي كعبة يحج اليها المسيحيون من كل افطار العالم كما يحجون الى كنيسة القيامة الكبرى في القدس في عيد الفصح الذي هو عيد القيامة . ففي سنة ٦٣٦ لميلاد المسيحي ليلة عيد الميلاد خلت القدس من اهلها ومن الحجاج لزحفهم الى بيت لحم لحضور العيد . وقد بدأوا بالسفر الى بيت لحم منذ يومين رجالاً ونساءً واولاداً بعضهم يقيمون عند اقاربهم ومعارفهم وبعضهم يستأجرون غرفاً خصوصية لذلك . فامتلات بلدة بيت لحم على صفرها باجناس القادمين اليها من نواحي فلسطين والشغور وسوريا ومصر والاناضول والقسطنطينية وقبرص ورودس وغيرها . وكان اختلاف ازيائهم ووجوههم مما يروق النظر فيخيل للناظر ان اجناس البشر كلها تعرض له في تلك البلدة الصغيرة . وكانت كنيسة المغارة التي هي عند الناس مكان ولادة المسيح قائمة في وسط البلدة . وكانت مؤلفة من قسمين . قسم هو كنيسة المهد نفسه ويومي عبارة عن مغارة منقورة في الصخر مكسوة الجدران بالاغصية الثمينة المزركشة والمزينة انغريزية وفي سقفها عدة مصابيح بعضها يضيء ايلاً ونهاراً . وقسم هو كنيسة فاخرة كبرى قائمة فوق تلك الكنيسة الصغرى لاجتماع الناس فيها وقد بنتها هيلانه ام الامبراطور قسطنطين الكبير (٣١) وكانت الكنيسة منارتين في تلك الليلة بالمصابيح والشموع المتعددة وروائح الخجور تنبعث عن المباخر والناس داخلون

« ١ » لا تزال الى اليوم وهي الكنيسة الكبرى في بيت لحم

ايها الموتى الشريكون بامان واحمدوا الله لانكم قضيتم قبل العصر الذي تزحف فيه الامر والقارات بعضها على بعض لينفي بعضها بعضاً . ويا سلطنة برنظية التي ملات الدنيا ابهةً وسطوة وجلالاً استعدي فقد دنت آخرتك . ولا تلومي احداً غير نفسك . لماذا اهملت شعبك لتشتغلي بالمجادلات الدينية العقيمة . لماذا جهلت ان كل بناء لا يُبنى على « اصلاح احوال الشعب » بناءً ضعيف يتداعى في مدة قصيرة . لماذا حصرت كل قواك في الاختلافات على خلافة الملك وانتقال السلطنة . لماذا رمت الاستيلاء على الدنيا كلها بدل اصلاح شؤونك الداخلية فجزأت قواك بجزئة اهتمامك على غير فائدة . لماذا هجرت الروح والفكر الذي يجعل الافراد اقوياء والشعوب منيعي الجانب سعداء . ان الشعب الشاب الحديث الخارج من رمال بلاد العرب قد استولى على ذلك الفكر الذي هجرته وهم عليك بسلاحك بريئاً في اول نشأته من تلك النقائص التي اودت بك . لقد زحف يمثل الوحدة والعصبية والاصلاحات الشعبية والحياة الروحية والمعيشة الطبيعية والمساواة والاخاء والحرية ومن فرط ثقته من نفسه ومن مبداه يظن انه وحده يمثل الوحدةانية . وبهذه المناقب سيستولي يوماً على الكرة الارضية . وسبق له هذا الملك حتى تفارقه تلك المناقب كما تفارقتك فيصبيه حينئذ ما اصابك . وفي ذلك الوقت تنطحان كلاكما على الارض اخوين في المصاب تنظران الى الامم والمبادئ الاخرى التي تجي بعدكم وتقوم على آثاركم فيا ايها الامم المختلفة التي تقوم وتسقط وتطاحن كحبوب الحنطة تحت الرحي لك ان نقولي « المجد لله في العلى » لان الله خالقنا عظيم . ولكن لا نقولي « في الارض السلام وفي الناس المسرة » فان الارض ليس فيها اليوم شيء غير السيف والنار وليس بين البشر شيء يسر بل السائد بينهم الفساد والاضطراب والبغض والشقاء والدمار

المادة . بين القديم الذي يظن نفسه قوياً راسخاً ابدياً لا يزعه شيء ، وبين الجديد الضعيف المسترخ بمعول العقل والفكر ولا سلاح له سواء . فزلزلات الجبال واندكت الاسوار ونسف الفكر معالم التقليد والمصالح والمادة نسفاً فقلب عالماً واقام عالماً

ولكن ماذا جرى بعد ذلك ؟ هل حفظ الغالب السلاح الذي تغلب به ؟ اخبرونا يا رجال صهيون الجديدة يا جنود اسرائيل الجديد . وأأسفاه ان الغالب عاد الى عادات المغلوب . ان المادة قويت على الروح . والمصالح على المبادئ . والتقليد على الفكر والعقل . فهاتوا لنا معولاً آخر للهدم مرة ثانية . الينا يا ملائكة السماء بجراح جديد لمداداة هذه الحسنة المريضة . ولكن رحماكم فلتكن سكنين هذا الجراح نجيفة . اننا نشقى على جسمها النخيل وقلبها الرقيق وجمالها الساحر ونفوس الملايين العديدة المتعلقة بها . هات روحك يا بؤذه لنعلمها الصبر والقناعة . هات فكرك يا كوتوشوش لتعلمها الحكمة . هات بلاغتك الالهية يا افلاطون لندخل الى عروقها دم الفلسفة ممزوجة بالانوار السماوية . هات عقلك يا اريسطلو لتقوية عقلها . هاتوا يا حكماء منفيس والاسكندرية واثينا وبناريس ورومة كل حكمكم وفلسفكم لعلها تشفى بها . واياكم ان تقولوا انها في غنى عن كل ذلك بما لديها من المبادئ الفطرية الساذجة فانها نسيت ما لديها ونسيت الفطرة والسذاجة . نعم ان فاهها لا يزال يردد ويترنم بالفاظه ولكن يا للأسف ان قلبها لم يعد يفهمه ولا يقنع به . ولذلك ذهبت منها صحتها وجمالها . اجل يا بيت الحكمة الفطرية الساذجة . يا قدس الاقداس القديم . يا مأوى الفكر الحر المطلق والروح المجرد . ان حمامة الروح السماوية قد طارت من بين جدرانك . وهذا هو سبب مرضك . فهلاً استعدت روحك لتحيي بها نفسك ويؤهل منزلك . هلاً نظرت باخلاص ونزاهة الى مرضك

انك لم تريدي ذلك يا ابنة صهيون فهذا جراح وخضم شديد قادم نحوك . ولكن واسفاه ان سكينه ليست بنجيفة كما طلبت بل هي عبارة عن سيف قوي . ومع السيف ربح ونبلة وترس وجواد عربي . ان رمال قفار العرب قد تحركت يا ابنة صهيون وزحفت نحوك قاصدة الدنيا كلها . فامسعو اوسعوا المكان في الارض لامة جديدة عظيمة ومدنية جديدة . ان الدنيا تنخفض الآن بدين جديد وسلطنة جديدة . ان ابناء اسماعيل الاقوياء خرجوا من قفارهم الجذباء للملافة ابناء اسحق الظرفاء . ولكن يا للاخوة يا الحرمه النسب ان ملاقاتهم كانت للاقتتال على سلطنة الارض كأن هذه الدنيا الواسعة تضيق عن اخوين كريمين . فسدوا آذانكم يا ايها البشر فان ارضكم ستصير ميداناً واسعاً للحروب والمجازر المختلفة . ناموا

مدخل

* على الارض السلام *

على جبل الزيتون فوق بيت المقدس كانت في سنة ٦٣٦ قبل عيد الميلاد بثلاثة ايام طيف بنمى
متاً ملأ في المدينة تحته وهو يقول كأنه يخطب في الدنيا كلها :

منذ نحو النى سنة رن في فضاء هذه الارض التعيسة صوت خارج من جهات مجبولة
يقول « المجد لله في العلى وعلى الارض السلام وفي الناس المسرة »
ومنذ النى سنة والبشر بشر السلام على شفاههم لا في القلوب

* * *

منذ النى سنة هجمت المادة الترابية في عالمنا الدنى للاتحاد بالجوهر الالهى . فقبضت
يومئذ الارض على قسم من السماء . ولكن السماء عادت فافلتت منها فعاد الى الارض ما
هو من الارض والى السماء ما هو من السماء واختفى عنا ذلك النور الذي اضاء تاركاً البشر
في ظلمة ليلاء

* * *

منذ نحو النى سنة ثارت بين اسوارك يا « ابنة صهيون » (١) الحرب الابدية بين الحق
وبين التقليد الذي يضع نفسه موضع الحق . بين المبادئ وبين المصالح . بين الفكر وبين

شؤون غيرها . والبلاغة يضيفون الى " عاطفتي المجال والخبر ، " عاطفه الحق ، التي مقنضها المجهر بالحقيقة وطلبها باستقلال تام ونزاهة عن كل مواربة وجبن . ويقولون ان هذه الثلاثة هي اغراض العلم العليا ومواضيع الفلسفة السامية . وهو قول حق . ولذلك نقمى ان يكتمر في بلادنا العزيزة كل ما ينبي هذه العواطف الثلاث لانها اساس كل ارتقاء ونزاهة وفضيلة ومصدر كل شيء عظيم . والامم التي لا تؤسس على هذا الاساس المثلث تنعب وتبني عبثاً لانها لا تبني الا على المصالح المادية والقابلية الحيوانية

(والامر الثاني) الذي احببنا التنبيه عليه ان الروايات التاريخية لا يفتد بها سرد وقائع التاريخ وارقامه . فان طالب هذه الوقائع والارقام يلتمسها في كتب التاريخ حيث تكون قريبة المنال ليجريها عا ليس منها لا في الروايات المطولة التي تشتبك وقائعها الخيالية بها ولا بصبر طالب التاريخ البحت على مطالعتها . وانما المقصود من الروايات التاريخية (نوع) سرد الوقائع والارقام وتصوير الوسط المراد تصويره وابرار العواطف والافكار التي كانت تملج في هذا الوسط تكميل التاريخ في جوانبه الناقصة

ونعني هنا « بتكميل التاريخ » ان يضع المؤلف نفسه موضع الاشخاص التاريخيين الذين يتكلم عنهم ويعبر عن افكارهم وآرائهم في المواقف التي بصورها لم والتي لا اثر لها في التاريخ مستنداً على ذلك بما يعرفه عنهم . وهذا الامر في روايات « ديماس » المشهور كان ام الامور . فكانه به يبغي الابطال الذين يتكلم عنهم ويجعلهم يشعرون بالامور التي كانت تنطبق على تاريخهم ومقاصدهم ويكشف لك خبايا كانت مدفونة في صدورهم . ولقد سلكنا هذا المسلك ايضا في هذه الرواية . غير اننا خشينا ان يختلط التاريخ بما ليس هو في شيء منه فيضل القاري سيما القليل الاطلاع فوضعنا علامات للتفريق بين التاريخ وبين التصنيف والاستدلال . واليك هذه العلامات .

« هذه العلامة * (اي النجمة) تدل على ان ذلك القول وارد في التاريخ . والعلامة) — تدل على عكسه اي انه تصنيف او استدلال من المؤلف لا اثر له في التاريخ . والكلام الموضوع بين قوسين هكذا « (او) او ضميتين » « ومعه نجمة * هو نص تاريخي مجرّف . واما اذا كان الكلام بين هذه الاقواس بلا نجمة او كان بلا اقواس ولا نجمة فليس هو من التاريخ في شيء خصوصاً اذا كان بين اشخاص الرواية الخياليين — هذا الا اذا ثبت عليه في الحاشية »

وستتبع هذه الاصطلاحات في كل رواياتنا التاريخية لينسج لنا مجال الاستنباط والاستدلال التاريخي في امثال هذه المسائل . اذ بدون هذه الاصطلاحات يشوّء الكاتب التاريخ اذا حرص على الاستنباط والاستدلال وبهمل امّ ما في التاريخ الروائي اذا اهملها . والقراء في الشرق على الخصوص يعرفون ان الكتاب في شؤون المسلمين والسجيين في بلادهم لا غنى له عن هذا الاحتياط لخرج الموقف صعبة الطريق اما المصادر التي اعتمدنا عليها في هذا الكتاب فهي عدة لمؤلفي العرب والافرنج وقد رجعنا في شؤون العرب الى كتب العرب وفي شؤون الروم الى كتب الافرنج كما يجب ان يكون ذلك لان كل قوم ادرى بتاريخهم . ولقد اشرنا في الحواشي الى اكثر تلك المصادر

هذا ما قصدنا ذكره في هذه المقدمة . والان نأخذ بيد القاري الكريم لنسج معه في هذا الكتاب سياحة طويلة

كل الأحزاب باستقلال تام كان الكتاب غير منسوب الى احدها . فاذا كان اخواننا الرصفاء والقراء الكرام يرون بعد مطالعة هذه الرواية ان المؤلف قد قام بهذه الوظيفة فهذا خير جزاء يريد منهم وافضل ثناء يقبله على الطريقة التي اقدم عليها مع معرفته صعوبتها في بدء الامر في بلادنا الشرقية التي فيها سلطان المجبن والذل والمصلحة اقوى من سلطان عزة النفس وحرية الفكر وجرأة المبدأ

ومجددنا في هذه المقدمة ان ننبه القارئ الكريم الى امرين (الاول) الطريقة الانشائية التي اعتمدنا عليها في هذا الكتاب . فاننا عينا هنا بما نسميه الافرنج «جمال التأليف» عناية خاصة لان المجال في هذا الكتاب واسع لفكر المؤلف وقلمه ولا قيد يقيدها البتة . وهذا الذي يسمونه جمال التأليف عليه المعول في كل الكتب المجيلة التي هزت نفوس البشر في الارض ورقتها وامالتها نحو الخير والكمال . وبدونه لا يكون للكتابة اثر في النفوس ولا جاذبية تجذب القراء للاقبال عليها وتأليف جمهور مفكر يبرز غث الامور من سميتها وجميلها من دميمها وهو ما يعبرون عنه بالرائي العام . وهذا الاسلوب الذي اعتمدنا عليه هنا يعتمد على عاطفة الجمال التي في نفس الانسان والتي بها يبرز عن الحيوان حتى عرفنا الانسان "بانه حيوان يعرف الجمال وبشعره" . ويقول كثيرون من علماء الصبران ان "الجمال" في الفنون والصنائع الجميلة "صناعة القلم في جملتها" . هو اساس نهضة اوربا . فان ارتفاع هذه الفنون الجميلة في ايطاليا كان ناشئا عن ارتفاع عاطفة "الجمال" فيها . وهذا الارتفاع اطف الاذواق ورفع النفوس وكبرها ومن هنا نشأ الميل للحرية والارتفاع فسرى الى اوربا كلها . وبناء على اهمية عاطفة الجمال هذه ترى الناس يتعاونون صورة من صور المصورين فائيل مثلاً بملايين فرنكات . فهم يتعاونون باذنياعها ثار ارقى نفس لان عاطفة الجمال بلغت فيها اقصى درجات الارتفاع الممكن في الارض . فاذا قارنا بين هذه العناية "بالجميل" في بلاد المتقدمين وبين اعتبار بعضهم عندنا الجمال في الكتابة وغيرها شيئاً ثانوياً بل تغيولات وتصورات وادبيات جاز لنا ان ناسف لاننا في الشرق لم ندرك بعد ماهية الارتفاع الحقيقي اكوننا لا نزال نذم الورد على اسلوب ذلك الشاعر العربي الذي شبه ذلك التشبيه المشهور (١)

ولكن من حسن الحظ ان عاطفة الجمال الطبيعية الموجودة في نفوس الناس في الارض اقوى من ان تختنق اذا لم ينهها بعض الناس . ولذلك ترى (جمال صناعة القلم) يوتر في الناس في الشرق من غير ان يدروا به . وهذا سبب نهضة الشرقيين الى الكتابة والمطالعة وتعلقهم بها . وكلما ارتقت فيهم عاطفة الجمال اي كلما ارتقت "نفسهم" ارتقى فيهم الميل الى هذه الصناعة وجميع الصنائع الجميلة على نسبة واحدة . فقياس ارتفاع الام اذا انما يكون بالنظر الى ما تقدر على ابرازه من عاطفة الجمال هذه مقرونة بشقيقتها عاطفة الخير "لان الجمال الحقيقي لا يتصل عن الخير مطلقاً" . لا بالنظر الى ما تقدر على تقليد من

(١) قال انا تولى فراش احد اعضاء الاكاديمية الفرنسية في خطبة امام مثال رنان في هذا العام عن لسان الالهة المحكمة آتينا «ان فرجة اليونان انزلني الى الارض . ولما قضت خرجت منها . فجاء بعدم البرابرة واجتاحوا العالم . وكانوا يخافون «الجمال» ومحسبونه شرّاً . فلما رأوني "جميلة" شكوا فيّ ولم يعلموا انني المحكمة . فطر دوالي الخ" . الجامعة السنة الرابعة الصفحة ٢١٠ ، قلنا وبذلك نتصل حلقة الارتفاع الايطالي بجملة الارتفاع اليوناني ولهذا قالوا ان هذا اصل ذلك كما ترى في الخطبة المذكورة وفي خطبة رنان التي تقدمتها

المقدمة

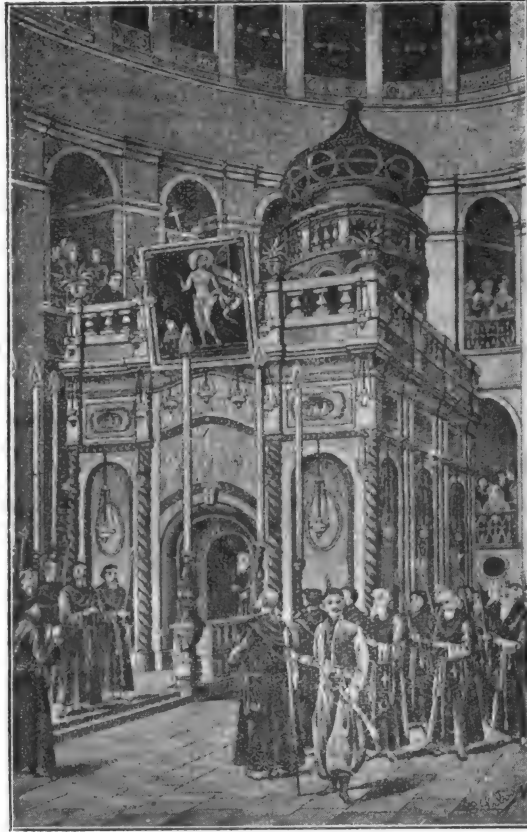
أهم أنواع الروايات ثلاثة (الاول) الروايات الاجتماعية والأخلاقية وهي أفضلها لأنها تبحث في اصلاح اخلاق الامة وتكوينها وتنبه نفسها الى ما فيه منفعتها (والثاني) الروايات التاريخية وغرضها بسط تاريخ الامة اي ذكر اسبابه ومسبباته لاستخلاص النتائج منها بجمرية تامة بلا تزلف ولا تحامل للوقوف على الفواعل في تقدم الامة وتأخرها . « والثالث » الروايات البسيكولوجية وتتدخل فيها الروايات الحبية التي يَصَوِّرُ فيها احتكاك العواطف وتنازع القلوب والاهواء

على ان هنالك نوعاً آخر من الروايات افضل من هذه الانواع الثلاثة وهو الذي جمع بينها في سياق واحد فيكون تاريخياً لهجي التاريخ فلسفياً اجتماعياً لهجي الفلسفة والاجتماع ادبياً حبيباً لهجي الادب والعواطف الحبية الطاهرة المنزهة عن الخلاعة والغرام البارد - ومن هذا النوع اشهر الروايات الخطيرة التي كان ظهورها عبارة عن حادثة وطنية كبرى لانها رفعت مبادئ وخفضت مبادئ " كالميزارابل ، ليفكتور ميغو " والمجسيم " لدانتى وغيرها

ولقد سلكت « الجامعة » هذا المسلك في روايتها الجديدة « اورشليم الجديدة » فجمعت فيها بين الفلسفة والاجتماع والتاريخ والحب والادب . وفوق ذلك ضمت اليها « الدين » لان العصر الذي تبحث هنا في شؤونه عصر ديني مضى سواء كان ذلك عند المسيحيين او عند المسلمين . فالكلام عنه يشمل الدين بالبيع والضرورة وبدونه يكون الكلام ناقصاً اهم وجوه

وهي على يقين من ان ابناء العصر وكتابه الافاضل الذين يرومون تنبيه الشرق من سباته وان يحولوا عنه عار الاستسلام للسلطات المضرة وبطابون الحقيقة ابنا وجدوها - ينظرون الى هذا الكتاب نظراً يُبْهِسُ مولفه شيئاً من التعب الذي عاناه في تأليفه . لانه لو لم يكن على ثقة من رضاه وتنشيطهم قبالاً على ما مضى لوجد في نفسه القوة اللازمة للاقدام على كتاب كهذا الكتاب مع ما هو معروف في بلادنا عن بضاعة العلم والادب وما هو مشهور من عيشهم حرية الفكر وتزاهة النشر ترفلاً للسذج وذوي المصالح خصوصاً في الشؤون الوطنية والمسائل الشرقية

والمنقبات لا يدعي في هذا الكتاب فضلاً او مزية ولكنه بصرح بانه بذل جهده للجهد بجمرية تامة بكل ما يجب الجمهور به عند الاشتغال بمسائل مهمة خطيرة كالمسائل التي في هذا الكتاب وطلب الحقيقة بين

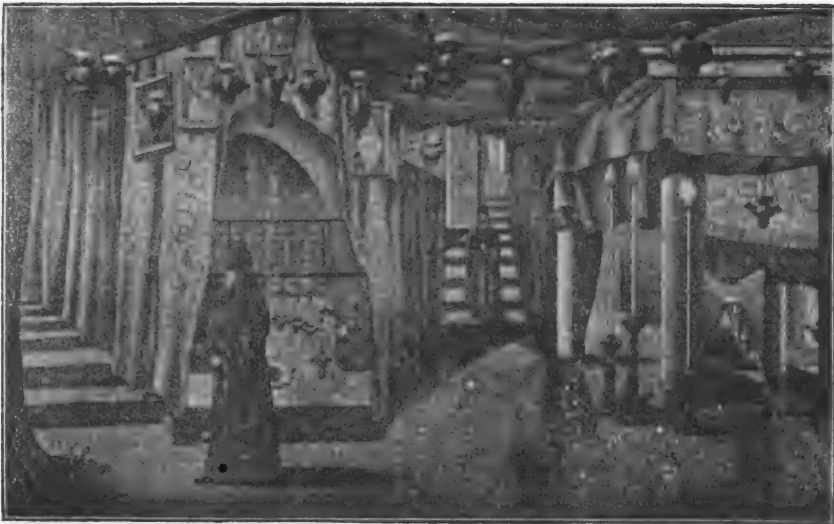


قبر المسيح

في داخل كنيسة القيامة وامامه انفس والرهبان يحتفلون بعيد القيامة
والدخول الى القبر من الباب في صدر الصورة حيث ترى كاهنا واقفا فيه والناس جالسون في
شرقات الكنيسة حول القبر



جبل الزيتون المشهور
الوارد ذكره كثيراً في هذا الكتاب. وعليه الكنيسة الروسية الكبرى في القدس



مغارة بيت لحم
التي ولد فيها المسيح وفيها المذود. انظر الصفحة ٤



اوروشليم (بيت المقدس)
مصورة كما تظهر من جبل الزيتون وابلبا وارما تحت شجرة في سفح الجبل



داخل المسجد الاقصى
ومن غير جامع عمر المعروف بجامع الصخرة انظر الصفحة ١٢٢ في الكتاب والصفحة الثالثة في الغلاف

OL 21510.5



MES

أشهر الحوادث

١٥

فتح العرب بيت المقدس

والرجل المريض والاسرائيلية الجميلة فيها

وهي رواية تاريخية فلسفية اجتماعية حية تتضمن زحف العرب الى بلاد الشام حيث ظهور الاسلام وحصر مدينه القدس (بيت المقدس) العاصمة الدينية الكبرى للمسيحيين بومئذ وسفر الخليفة عرب بن الخطاب من بلاد العرب اليها فتحها يطلب البطريرك صفرونيوس . واقامة المسجد الاقصى فيها على انقاض هيكل سليمان القديم هيكل الاسرائيليين . ويختل ذلك كلام عن احوال اليهود والمسلمين والمسيحيين بومئذ والافكار الدينية والسياسية التي كانت تختلج في نفوسهم . والاسباب السياسية والاجتماعية والدينية التي اضعفت سلطة الروم في بزنطية (القسطنطينية) فكانت سببا في سقوطهم وزوال ملكهم وقيام الامم التي تلهم

✽ تأليف ✽

فرح انطون

منشئ مجلة (الجامعة)

(حقوق اعادة الطبع محفوظة للمؤلف)

الاسكندرية في فبراير (شباط) سنة ١٩٠٤

620